القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يناير - فبراير 2011

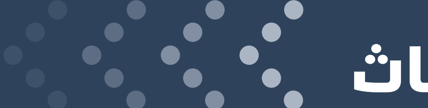


ملف العدد

الزمن

- الحدود الرمادية للملكية الفكرية
- عادات المائدة

1 العدد
المجلد 60



قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بإجراء أبحاث ميدانية متعمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. وتهدف هذه الخطوة إلى كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي، وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي.

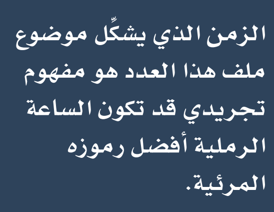
للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع، وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث، حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتّابها.

صورة الغلاف



الزمن الذي يشكّل موضوع ملف هذا العدد هو مفهوم تجريدي قد تكون الساعة الرملية أفضل رموزه المرئية.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
ناصر عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد الدميني

نائب رئيس التحرير
وليد الهلال

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

المكاتب:
الرياض، **دينا الشهوان**
بيروت، **رولان قطان**
القاهرة، **ليلى أمل**
أمريكا الشمالية، **أشرف إحسان فقيه**
قافلة الأبحاث ومكتب جدة
أحمد المنعي

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يناير - فبراير 2011
محرم - صفر 1432

قضايا 12–21

طاقة واقتصاد 22–29

بيئة وعلوم 30–48

الحياة اليومية 55–65

الثقافة والأدب 66–86

الملف 87–102

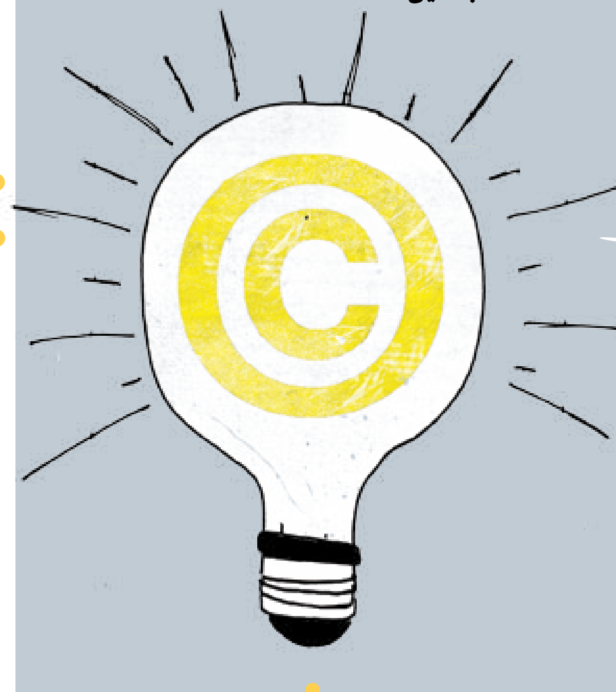
توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

الهواتف: فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

يوماً بعد يوم، تزداد حقوق الملكية الفكرية تعقيداً، بحيث بات فض الخلافات بشأنها يستدعي اللجوء إلى القضاء الذي عليه أن يجتهد أكثر من السابق لإعطاء كل ذي حق حقه. ويعود هذا التطور إلى ظهور أنماط من الإبداع الفكري في العلوم والآداب والفنون لم تكن معروفة سابقاً، ولم تتناولها القوانين القديمة في هذا المجال. ولهذا، تستهل القافلة رحلتها في هذا العدد بعرض جوانب هذه القضية المستجدة في عالم الإبداع وحماية حقوق المبدعين.



بعد ذلك ينطلق باب قول في مقال من قراءة لحملة جمع التبرعات التي قامت بها الموسوعة الإلكترونية المجانية «ويكيبيديا»، ليسقط الملاحظات العديدة، المستخلصة من نجاح هذه الحملة، على واقع حال المعارف العربية على شبكة الإنترنت.



2 طاقة واقتصاد

ويسعى مناخ الاقتصاد إلى الإجابة عن السؤال المحيِّر حول مصادر تمويل بعض المواقع الكبرى على شبكة الإنترنت، وبشكل خاص تلك التي تقدِّم خدمات مجانية مثل إجراء المكالمات الدولية مجاناً، وتبادل الرسائل وفرصة الاطلاع على أخبار العالم وغير ذلك مما كان من المستحيل تصور إمكانية الحصول عليه مجاناً قبل سنوات قليلة. فمن أين تأتي هذه المواقع الكبرى بالرساميل اللازمة لذلك؟ وهل يكفي حجم صناعة الإعلان الإلكتروني لتمويل مثل هذه المشاريع؟





3 علوم وبيئة

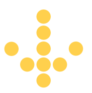
وفي مناخ البيئة والعلوم موضوعان: الأول يتناول «بنوك البذور»، هذه الصروح العلمية والزراعية التي تُعد آخر الحصون الحامية للتنوع الحيوي في عالم النبات.

أما الموضوع الثاني فهو حول مادة «الجرافين» الجديدة، التي تم استنباطها من مادة الجرافايت، وكانت السبب في حصول العالمين جيم ونوفوسيلوف على جائزة نوبل للفيزياء في العام 2010م، نظراً للدور الذي يمكن أن تؤديه هذه المادة الجديدة في الصناعات والعلوم المستقبلية.

الفاصل المصوّر

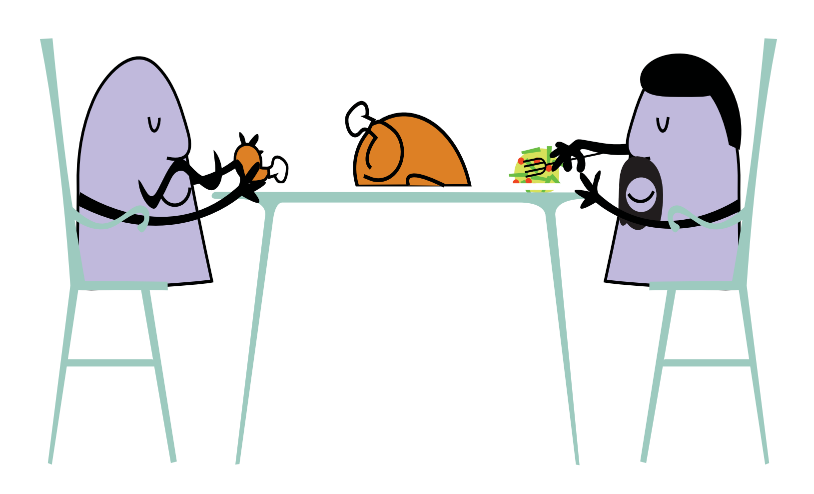


واستراحة هذا العدد في الفاصل المصوَّر هي مع عيِّنة من أعمال المصوِّرة السعودية أروى غواص، التي تنتصر للأبيض والأسود تعزيزاً لوضوح الخط الزخرفي في الطبيعة، سواء أكان هذا الخط جزءاً أساسياً من هذه الطبيعة، أم مضافاً إليها بفعل الإنسان أو حضوره فيها.

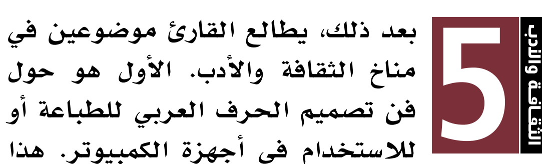


4 الحياة اليومية

أما مناخ الحياة اليومية فيتطرَّق إلى شأن نعيشه جميعاً كأمر بديهي في حياتنا، ولكنه يختلف اختلافات كبرى ما بين ثقافة وأخرى، وحتى ضمن الثقافة الواحدة: عادات المائدة وتقاليد تناول الطعام، التي تكون عادة بسيطة إلى حد ما عندما تمارس على مستوى الفرد أو العائلة، ولكنها تزداد تعقيداً وتلوّناً عندما يكون هناك ضيف على هذه المائدة.



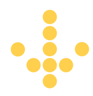
5 الثقافة والأدب



بعد ذلك، يطالع القارئ موضوعين في مناخ الثقافة والأدب. الأول هو حول فن تصميم الحرف العربي للطباعة أو للاستخدام في أجهزة الكمبيوتر. هذا الفن الذي حاول البعض تصويره على أنه نقيض فن الخط التقليدي، أو أقل شأناً منه، رغم أنه ضرورة لا غنى عنها، وإبداعه يتطلب جهداً وعلماً، يجعله جزءاً أَساسياً من عالم الخط العربي ككل، وليس نقيضاً لفن الخط اليدوي.



أما الثاني فهو في باب بيت الرواية، الذي يتضمن في هذا العدد عرضاً لمسيرة الروائي البيروفي ماريو بارغاس يوسا الذي حاز جائزة نوبل هذا العام، ومقتطفات من روايته «حفلة التيس» التي تُعد من أبرز أعماله.





6 ملف العدد

وفي الختام، يتوقف ملف العدد أمام «الزمن»، هذا المفهوم الذي أثار كل الأدباء والشعراء وعلماء الفيزياء وغيرهم على حد سواء، وكأن تناوله من خلال محاولة تحديده أو قياسه أو معرفة طبيعته هو شرط لا بد من التوقف أمامه كي يكون العالِم عالماً والأديب أديباً.

الرحلة معاً

القبيلة ومجتمعنا المدني

هل حدث لك يوماً أن استضفت في أحد المجالس أو الديوانيات، ولحظت أن رؤوس الحاضرين تتلاقى وهي تتساءل بهمس يظهر على العيون والأيدي، من هو هذا الشخص الغريب؟ إلى من ينتمي؟ وكيف أصبح -هكذا- فرداً منا يحتفل بمناسباتنا، ويشاركنا رؤيتنا، ويخاطبنا وكأنه ابننا أو أخونا؟

أقول إن هذا يحدث دائماً، ولا يزال يحدث. وقد توجد فروق طفيفة بين من يسرفون في عبارات الترحيب وبين من يقتّرون؟ لكن الحقيقة الراسخة، أن هناك غربة وعصبية وتنافراً بين بعض أبناء الوطن الواحد، وهناك التصنيفات الاجتماعية الجاهزة التي تقيم الحواجز بين الناس، وهناك الأرضية الثقافية التي تسمح لهذه المفاهيم المتطرفة أن تتواجد وتتحكم..!

«القبيلة» في حياتنا -على الأخص- موضوع شديد التشابك والتعقيد، وربما لم أتقدَّم لطرحه، كمسألة تستحق التأمل والبحث، لولا أن مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني، قد خصص آخر جلساته الجدلية لبحث موضوع «القبيلة والمناطقية والتصنيفات الفكرية»، وهو ما يعني أن هناك عنصراً يمكن أن يؤثر على تماسك الوحدة الوطنية، ويؤثر على اندماج المواطن في بنية الدولة ومؤسساتها، ويحول دون أن يكون صاحب إسهام فاعل في صناعة حاضرها ومستقبلها، والأخطر أن يصبح الولاء القبلي أو الطائفي أو المناطقي أكثر من الولاء الوطني، ولعل هذا ما جعل بعض أوراق العمل التي قدمت في المؤتمر أشد جرأة وتحليلاً وعمقاً مما توقعناه من هذا النوع من اللقاءات.

ولكيلا يشرد ذهن القارئ بعيداً، فإننا نقول إن القبيلة في جزيرتنا العربية بل وفي منطقة الشرق الأوسط بكاملها هي مكون ثقافي واجتماعي ووجودي عميق، وهو يتغلب أحياناً على غيره من المسلمات الاجتماعية، ويتسلل إلى مشاعر الناس وعواطفهم بل ويشكِّل أحياناً ضامناً حياتياً واقتصادياً، بل وهوية تعكس المجموعة القيمية والنظرة للحياة والآخر، بل إن هناك مفكرين اعتبروا أن الشعر العربي، وخاصة الفصيح منه، والذي ساد لأكثر من عشرة قرون في قلب الجزيرة لم يتجاوز التعبير عن قيم الجماعة التي تركز على نغمات الفخر والخيلاء، وأن الشعر



النبطي الذي نردِّده اليوم ما زال يشيع ذلك الضرب من التفكير والدلالات.

ونحن اليوم لا نستطيع حقاً أن ندين مفهوم القبيلة، في المطلق، فهو لم ينشأ ويتكون لأنه كان طارئاً عارضاً، بل لأنه كان الرابط العميق الذي يوحِّد الناس في صحاري مترامية، ويمنحهم المظلة الآمنة للعيش المشترك في كيان اجتماعي آمن وفي مواجهة الأعداء حين يصبحون خطراً داهماً على العيش والوجود والكرامة.

لقد اعتبر «ابن خلدون» أن العصبية تبدو وكأنها العنصر الضروري والكافي للربط بين وجهي العمران في تكونه وتفككه، فالدافع الذي يحوِّل القبيلة من حياة بدوية إلى حضرية، والعنصر الذي يضمن لها الحياة والحماية والسلطة إنما هو كامن في «العصبية» التي يمكن تفسيرها على أنها الحالة الذهنية العاطفية التي تظهر في العلاقات والسلوكيات التي تقسم بها مجموعة من البشر.

لكننا في الحقيقة لا نعيش عصر «ابن خلدون»، ولا نطمح لأن تكون القبيلة والعصبة هي رموز قوتنا الاجتماعية. إننا ننتمي إلى عصر جديد تتهدم فيه الواجهات العنصرية والعصبية والقبلية والمذهبية في العالم المحيط بنا، وتقوم على أنقاضها مقومات المجتمع المدني والمؤسسات، وتسود فيها روح الأنظمة والقوانين ويتساوى أمامها الأفراد والجماعات، ويصبح السبق الحقيقي للمقتدرين علمياً وتقنياً وبحثياً وإبداعياً، بعيداً عن أرض القبيلة وتحالفاتها وأطيافها.

وهذا ما بدا واضحاً في التقرير الختامي للحوار الفكري الثالث، فقد اعتبر أن المجتمع السعودي مجتمع متنوع ومتعدد، ويجب استثمار هذا التباين في تعزيز الوحدة الوطنية وخدمة التنمية بما يضمن بناء مستقبل وطني حضاري موحَّد، بل إن المملكة مكوَّنة من مجتمع متنوع وقبائل متعددة، وهي حقيقة يمكن أن تكون عنصر قوة ودعماً للوحدة الوطنية على أساس المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات.

وأعتقد أن روح القبيلة لن تتراجع في حياتنا دون أن تتحمل مؤسسات الدولة نصيبها في كبح جماح هذه الظاهرة، وتفعيل منطق الكفاءة والإبداع والإنجاز، وثانياً: إعادة رسم دور المؤسسات التعليمية والتربوية فدورها استراتيجي وهو يبدأ من تعلم أبجديات اللغة والحياة والمعرفة وينتهي بتخطي المرحلة الجامعية وتسلم قيادة المؤسسات. وثالثاً: المؤسسة الاجتماعية الأم، وهم الأهل وأفراد العائلة، ففي هذه البؤرة الصغيرة يتم تثبيت وتعميق القيم والمفاهيم الاجتماعية الإيجابية أو إعادتها إلى الخندق الضيق، خندق القبيلة ورؤاها المتعصبة، ومخاصمة مؤسسات المجتمع المدني التي تسود العالم اليوم.

ولعل أكثر ما يثير الانتباه هو أن نسبة ليست قليلة من شبابنا وصغارنا لا يزالون أسرى هذه المفاهيم القبلية السلبية، فمحيطهم الاجتماعي لا يزال يغذيهم بهذه المفاهيم التي تكرِّس مفهوم القطيعة وتقلِّل من شأن المواطنة. وبعض هؤلاء الشباب والشابات يحملون هذه الروح الإقصائية إلى خارج وطنهم أي حيث يدرسون، ويبحثون أو يعملون، أو يحاولون صناعة وطن جديد.

والمأمول هو أن يعود هؤلاء غداً بشهاداتهم المرموقة من أكاديميات العالم، وأن يسندها وعي وطني شامل يكرِّس اللحمة الوطنية، ويعزز قيمة المساواة الكاملة بينهم وبين أبناء وبنات جيلهم، وأن يحل العقل العلمي والمنهجي والتنظيمي محل قيم القبيلة والعصبة.

حين نصل إلى تلك المنطقة، نقول إننا نقترب من مشارف المجتمع المدني الذي نطمح إلى صنعه جميعاً...

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

في خطب الجمعة

أفيدكم بأنني تسلَّمت بكل فخر واعتزاز مجلتكم الغالية لشهري سبتمبر/أكتوبر لعام 2010م، المجلد رقم 59 العدد 5، بعد انقطاع دام أكثر من أربعين عاماً. وكم كنت فخوراً بعودة هذه المجلة الحبيبة إلى النفس وبما تحويه من مواد علمية وأدبية دسمة.

أخذت أقلِّب صفحاتها وأتذكر أيام شبابي وصديقتي مجلة القافلة، حينما كنت أكتب وأعلِّق على موضوعاتها وآخذ منها أحياناً فقرات أدرجها في خطب الجمعة. وسأستمر على هذه الاستفادة بإذن الله ما دمت حياً. فحمداً لله على نعمه وشكراً له على عودة الحبيب إلى محبيه، ثم شكراً لكم ولزملائكم الأفاضل على ما شرفتموني به بالاشتراك بهذه المجلة الخالدة.

عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن إبراهيم المذِّن

إمام وخطيب جامع الضليعة - عنيزة

مدينة الثقافة

أود أن أتوجه بالشكر والتقدير لكل أعضاء أسرة القافلة من إداريين وكتّاب ومصورين، ولكم يا فريق التحرير، على ما تقدِّمونه في هذه المجلة الرائعة، بل الأكثر من رائعة، التي لا يجب أن يُطلق عليها اسم «مجلة» بل «مدينة الثقافة» لما تحتويه من موضوعات مفيدة وشيقة.

حقاً إنها أشبه بمدينة من الثقافة والمعرفة التي ليس لها حدود، وهذا ما يدل بكل تأكيد على جهودكم المتميزة والرائعة.

فلكم جزيل الشكر والتقدير لقبول اشتراكي بها.

أحمد أنيس الديسي

خميس مشيط

رمز ثقافي

أنا أحد المعجبين بمجلتكم الغرَّاء المحتوية على العديد من الموضوعات الثقافية والعلمية، والتي تشكِّل رافداً ومصدراً ثرياً من مصادر المعرفة.

فقد تشرَّفت بقراءتها والاطلاع على بعض إصداراتها، فوجدتها رمزاً ثقافياً نعتز ونفخر به، نظراً لإسهاماتها في إمداد الأجيال بالثقافة والعلم في ثوب قشيب ينم عن جهد بارع في إيصال الوجبة الثقافية إلى المتلقي، وفتح نوافذ العلم مشرعة أمام عينيه. ولذا، فإنني سأكون ممتناً لكم إذا ما زوَّدتموني بنسخة من مجلتكم الغرَّاء.

محمد حجلان

القافلة: نشكر لك رأيك في القافلة. ولكن فاتك أن تذكر عنوانك في رسالتك الإلكترونية، لكي نتمكن من إدراج اسمك على قائمة المشتركين.

اقتراح

أشكركم على هذه المجلة الثرية بالمعلومات، وأود أن أعبِّر لكم عن رغبتي في الحصول على نسخة إلكترونية بصيغة (PDF)، يمكن للقارئ تحميلها على الكمبيوتر من دون تصفح الإنترنت. كما أود أن أقترح عليكم إصدار نسخة من مجلة القافلة تعمل على «الآي باد» و«الآي فون» مواكبة لعصر التكنولوجيا، خاصة وأننا نعرف أنكم في أرامكو السعودية تواكبون العصر على أفضل وجه.

أحمد محمد

الهفوف

حمزة شحاتة

بعد التحية العطرة لأسرة القافلة على ما تبذله من جهود في سبيل الثقافة العربية الأصيلة، بحيث باتت فعلاً فريدة من نوعها في مكتباتنا، أود الإشارة إلى مسألة قديمة، كانت تراودني في ذهني منذ زمن طويل، وشكَّل المقال الموسَّع حول الأديب والشاعر والفيلسوف السعودي حمزة شحاتة في العدد الأخير من القافلة، مناسبة لإثارتها.

فقد قرأت المقال المذكور بعناية شديدة، لأنني كنت قد سمعت باسم حمزة شحاتة مرات ومرات، من دون أن أعرف عنه أي شيء بالعمق. وأنا لا أخجل من الاعتراف بذلك، لأسباب سأوضحها في الأسطر الآتية.

فغداة قراءتي لهذا المقال، قصدت مكتبة كبرى تقع في وسط القاهرة، ومعروفة على مستوى الوطن العربي بأسره، على صعيد ضخامتها وتنوع العناوين التي تحتويها.

وسألت البائع عن أي كتاب عنده من تأليف حمزة شحاتة، فكان جوابه أشبه بالسؤال: «من؟» قبل أن يهز رأسه نفياً. ولما سألت عن أي كتاب كُتب حول حمزة شحاتة، كان الجواب نفياً أيضاً. وقصدت لاحقاً مكتبة ثانية وثالثة وكان الجواب هو نفسه.والأدهى من ذلك هو أنني حصلت على الجواب نفسه عندما اتصلت بقريب لي يعمل في السعودية، لأنني افترضت أن مؤلفات شحاتة لا بد وأن تكون مطبوعة ورائجة جداً في بلاده.. إذن حمزة شحاتة قامة مديدة في دنيا الأدب ومفقودة في المكتبات.

رغبت آنذاك في أن أتوجه إلى القافلة برسالة أنصح فيها بذكر أسماء دور النشر التي أصدرت مؤلفات شحاتة، واتباع ذلك كتقليد في كل مرة يدور فيها الحديث عن أديب كبير، بحيث يسهل الأمر على من يرغب باقتناء مؤلفاته. ولكنني تذكرت لاحقاً أن اسم حمزة شحاتة ليس الوحيد في هذا المجال. بل إن لائحة الأسماء الكبيرة منذ عصر النهضة وحتى اليوم التي لا نجد مؤلفاتها في المكتبات هي طويلة جداً. الأمر الذي يدفعني إلى تغيير ملاحظتي بأخرى، وهي أن تعد القافلة استطلاعاً موسعاً حول السياسة

التي تتبعها دور النشر في اختيار منشوراتها، ولماذا تسقط من اهتمامها بعض الأسماء اللامعة في دنيا الفكر والأدب، علماً بأن أصحاب الأسماء اللامعة هم أهم من غيرهم بالنسبة إلى القرّاء، ونشر أعمالهم هو ذو جدوى تجارية أكبر مما هو عليه الحال في مؤلفات المؤلفين الجدد.
هذا ما نفترضه استناداً إلى المنطق، إلا إذا كانت حسابات دور النشر العربية لا تطابق حسابات الباحثين عن الثقافة العربية.

أيمن إبراهيم منصور
القاهرة

الفقاعات

تعرفت إلى مجلتكم الراقية في غرفة الانتظار في إحدى العيادات الطبية. استوقفني غلافها الغريب عن المعارض والمدن، فرحت أتصفحها، ووجدت أن معظم مقالاتها مثيرة للاهتمام، في حين أنني لا أطالع عادة أكثر من مقالين أو ثلاثة من أفضل المجلات التي أشتريها.
ومن أكثر الموضوعات التي أثارت اهتمامي، كان مقال المهندس أمجد قاسم حول الفقاعات. إنها فكرة غريبة أن تخصص إحدى المجلات مقالاً طويلاً لإطلاع القارئ على أهمية الفقاعات. وعندما قرأت المقال، وجدت فيه أجوبة كثيرة عن أسئلة وملاحظات كانت ترتسم في ذهني من وقت لآخر، وأنا أشرب القهوة، أو المرطبات الغازية، أو عندما أستخدم رغوة صابون الحلاقة وما شابه.
إن مجلتكم هي فعلاً مجلة تُعنى بتبسيط العلوم، وتنوير العقل بالمعارف العلمية القيمة. فلكم مني أطيب تحية.

أحمد عبدالله المرشد
البصرة - العراق

الفولاذ الدمشقي

أنا واحد من القرّاء المعجبين بمجلتكم وحلتها القشيبة وما تحتويه من موضوعات علمية وأدبية متنوعة. أما الباب المفضل لديَّ شخصياً، وأول ما أقرأه فهو باب زاد العلوم، لأنه يحتوي دائماً على أخبار علمية قصيرة بالمختصر المفيد. وقد قرأت مؤخراً مقالاً عن الفولاذ الدمشقي، مفاده أن سرَّ صناعته قد اختفى، وأن المختبرات العالمية تسعى إلى إعادة إنتاجه. ولكني خلال رحلتي السياحية إلى دمشق العام الماضي، اشتريت بعض الخناجر المصنوعة من الفولاذ الدمشقي، وقيل لي إن صناعة هذا الفولاذ لا تزال قائمة، يتوارث أسرارها بعض الحرفيين عن آبائهم. ولهذا أعتقد أنه من المفيد أن تنشروا استطلاعاً حول هذه القضية، وإذا كان الأمر حقيقياً أم لا.

محسن السياري
الرباط

من بستان الشعر الفرنسي

جاءنا من الأخ عاطف محمد عبدالمجيد عدد من القصائد التي قام بترجمتها عن الفرنسية. والقافلة إذ تشكر له مبادرته هذه، تكتفي هنا بنشر واحدة من هذه القصائد نظراً لضيق المجال.

«ساعي البريد»

أبداً
ليست لدى ساعي البريد
خطاباتٌ
لكي يسلِّمها لي
***
عندما يراني
وأنا
في انتظاره هناك
يضحك
***
وفي كل مرة أخافُ
أن يفتح حقيبة أسراره
ويقولَ لي مُتحمِّساً
هذه الفاتورة لأبيك
هذه البطاقةُ الملوَنةُ
لأختك الكبرى
***
أما أنت
فليس لكَ عندي
أيُّ شيءٍ
ثم يضحكُ
وهو يبتعد عني
***
آهٍ
إنِّي أعرفه جيداً
ليست لديه خطاباتٌ
لكي يسلِّمها لي
ومع ذلكَ
أنتظره كلَّ يوم
في نفس المكانْ.

شعر: موريس كارام

المشتركون الجدد

الإخوة: محمد عبدالرحمن الأحمري، الجبيل الصناعية - عبدالمحسن الجريسي، الرياض - حسين علي الحاجي، الهفوف - عبدالله محمد الرحيلي، مكة المكرمة - عبدالله الزامل، الرياض - عبدالله حسن الزاهر، العوامية - فواز محمد أحمد المالكي، الطائف - منال علوي المسحر، القطيف - عبدالله المشاري، الرياض - عصام محمد الحلواني، الطائف - عبدالله محمد قرنبيش، جدة - عبدالحليم عبدالله مليباري، مكة المكرمة - سراج محمد علي غبرة - مكة المكرمة، محمد الزيدي، العلا - محمد بن أحمد بن عامر، الطائف - فيصل بندر عبدالرحمن، مكة المكرمة - خالد عبدالرحمن السليم، الرياض - محمد حسين السمين، القطيف - علي الشايع، الرياض - عبدالله عبدالرحمن الصويان، المدينة المنورة - منصور علي بن حسن الطويل، القطيف - توفيق محمد العباد، الأحساء - عبدالمنعم علي العبدالله، الأحساء - عبدالكريم بن حمد محمد، المدينة المنورة - محمد عبدالرحمن العمر، الدمام - عبدالعزيز العمودي، الرياض - سمير سعيد الغامدي، جدة - عبدالعزيز علي سعيد، جدة - ثامر الغزال، الهفوف - أحمد ابن ناصر الرازحي، أبها - زكي عبدالله علي القرح، الدمام - محمد عبدالله، الدمام - سليمان ابن علي العتيبي، الرياض - ملاك ميخائيل شينوده عبدالله، الإسكندرية، مصر.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

الرواية البوليسية.. لهذا غابت

طالعت في القافلة (عدد سبتمبر/أكتوبر 2010م) ملف الرواية البوليسية، الذي كشف بشكل غير مباشر غياب الرواية البوليسية العربية، لأنه لم يأت على ذكر أكثر من مثل أو مثلين صغيرين من التجارب العربية، في حين أنه أظهر بوضوح تطور هذا اللون الأدبي في الغرب. وكنا نتمنى أن يتوسع الملف في جانب منه، ليشرح أسباب هذا الغياب.

والحقيقة، أن غياب الرواية البوليسية العربية أمرٌ يعرفه الجميع منذ فترة طويلة. ولكن القلائل فقط حاولوا أن يبحثوا عن أسبابه. وما دفعني إلى توجيه هذه الرسالة إليكم وتناول هذا الموضوع، هو المقال الذي ظهر في العدد التالي حول الرواية البوليسية السويدية الجديدة «ثلاثية الألفية»، التي جاء تحت عنوانها «فتح سويدي في رواية الجريمة». فقد حمل هذا المقال في طياته تفسيراً لجانب بالغ الأهمية من الجوانب العديدة التي تشكّل مجتمعة أسباب غياب الرواية البوليسية عن الأدب العربي.

أهمية الابتكار

جاء في المقال حول «ثلاثية الألفية» أن هذه الرواية تدين بشهرتها الكبيرة إلى أن مؤلفها ستينغ لارسن ابتكر نوعية جديدة من البطل الذي يكافح الجريمة. وهذه النوعية تختلف عن نوعيات الأبطال الذين عرفناهم حتى الآن والذين تقول صورتهم التقليدية أنهم أناس مستقيمون ومقبولون اجتماعياً. في «ثلاثية الألفية» البطلة حسبما جاء في المقال: «فتاة شابة في أواخر العشرينيات من العمر»، أي إنها ليست ذات خبرة واسعة في شؤون الحياة، ولم تعارك الدهر مثل باقي الأبطال العباقرة. وفي الحديث عن شكلها جاء أن «ملامحها الأنثوية شبه معدومة» أي إنها ليست جميلة. وحول مهاراتها في التواصل الاجتماعي «فهي صفر»، أما مهاراتها الحاسوبية فلا تقدَّر بثمن، فهي «هاكر» (مقرصنة) محترفة، ولكي تكتمل الصورة التي تفتقر إلى الجاذبية، نرى أن هناك «شكوكاً» تدور حول إصابتها بمرض التوحد أو أحد أطيافه، ومع ذلك فإن هذه الفتاة تحارب الجريمة المنظمة وتنتصر للحق، علماً أن صورتها الأولية تدفعنا إلى الاعتقاد أنها جزء من عالم الجريمة أو من ضحاياه وليس من محاربيه.

ما فعله الكاتب السويدي لارسن هو أنه ابتكر بطلاً جديداً غير مألوف في مجموعة أبطال الروايات البوليسية التقليديين. فهذه ليست شرلوك هولمز ولا هيركول بوارو ولا أرسين لوبين.. إنها شيء جديد. وابتكار الجديد هو شرط يشترطه القارئ لكي يعترف بجودة أي عمل جديد، لأن لا مبرر لوجوده إذا كان تكراراً لما كان معروفاً سابقاً.

سبب على المستوى الأدبي

بالحديث عن أهمية الابتكار، نكون أمسكنا بطرف الحديث عن الرواية العربية ككل، هذه الرواية التي يجب أن تكون الحضن الحاضن لألوان مختلفة من هذا الفن، ومن ضمنها اللون البوليسي. ولكننا عندما نراجع وبسرعة التاريخ العام للرواية العربية نكتشف بسرعة أنها تكاد أن تنحصر في لون واحد أو لونين. فبعد الرواية التاريخية التي كانت طليعة الروايات العربية في القرن التاسع عشر (مثل «روايات تاريخ الإسلام» لجرجي زيدان)، والتي لم تعمِّر طويلاً، ظهرت على الساحة الرواية الاجتماعية التي اكتسحت كل ما عداها من ألوان روائية. وتندرج في إطار الرواية الاجتماعية معظم الأعمال الكبيرة التي عرفناها في القرن العشرين، سواء أكانت روايات نجيب محفوظ «الواقعية»، أم عاطفية ميلودرامية كما هو الحال عند إحسان عبدالقدوس، أم تلك الحفنة التي زعمت لنفسها صفة «السياسية-الوطنية» وجاءت مغلفة بعقدة ذات طابع اجتماعي لتلافي عيون الرقباء، وصولاً إلى الموجة الأخيرة التي تحاول الغوص في مسائل اجتماعية لا يزال مجتمعنا حذراً جداً في تناولها حتى خلال الأحاديث الشفهية، فأصبح للابتكار والتجديد عند الكثيرين مفهوماً في غاية السطحية (والتفاهة) لأنه يقتصر على خرق الخطوط الحمراء بغض النظر عن الغاية من هذا الخرق.

عندما نراجع تاريخ ظهور الرواية البوليسية في الغرب، نكتشف أنها تعود إلى القرن التاسع عشر، أي أنها جاورت كبريات الروايات الاجتماعية في العصر الذهبي للرواية الأوروبية. وبلغت مرحلة النضوج خلال أقل من نصف قرن على عصر عمالقة الرواية الكلاسيكية.

أما عندنا فبعد مرور نصف قرن على عمالقة الرواية العربية أمثال نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، وجدنا الرواية العربية تغرق في مستنقع «الصنعة» أي البنية الأسلوبية والشكل، لتزعم لنفسها دوراً طليعياً مستقلاً عما سبقه. أما الخطاب فبقي في جوهره هو نفسه، يتكرر لمرات ومرات ما بين الجزيرة العربية والمغرب. وصار تبادل التهاني على التجديد يقتصر على المؤلفين وحفنة من النقاد الجدد الذين لا يكيلون إلا بمكيال البنية والأسلوب واللغة وما شابه. أما وظيفة الرواية فقد دخلت منذ أربعة عقود طي النسيان والإهمال التام.

إن أهمية الوظيفة لا تكمن في ماهيتها بحد ذاتها، فمن حق كل أديب أن يوظِّف روايته وفق نظرته الخاصة إلى مجتمعه ووفق مفهومه الخاص للصح والخطأ والخير والشر وغير ذلك، إنما تكمن أهميتها في أنها تنبع عادة من نظرة أمينة إلى البيئة الاجتماعية التي ظهرت فيها، وتعكس المفاهيم (حتى الفلسفية منها التي تسود مجتمع ما).

إن الرواية البوليسية في أوروبا، والقصص المتفرعة عنها في أمريكا وتصوّر في أحيان كثيرة لتعرض في السينما أو على شاشة التلفزيون، ليست مجرد مادة تسلية، أو تمريناً للذهن على اكتشاف هوية المجرم، بل تحمل في طياتها ما هو أعمق من ذلك بكثير. إذ إننا عندما نتساءل (ويجب أن نتساءل) عن الأسباب التي تجعل معظم هذه الروايات تنتهي النهاية نفسها: المحقق أو الشرطي هو المنتصر والمجرم ينال عقابه في النهاية، علماً بأن الواقع يختلف بعض الشيء عن ذلك، لأنه هناك آلاف الجرائم التي يبقى مرتكبوها بعيدين عن يد العدالة، وتُطوى ملفاتها مقيدة «ضد مجهول». إن انتصار الشرطي أو المحقق (رمز المجتمع) ضد المجرم (الخارج على قيم المجتمع) هو وليد المفهوم الفلسفي الذي يسيِّر الحياة في المجتمعات الغربية، والذي يثق بقدرة

المجتمع على التصدي لأعدائه، ويثق بالقضاء والجهاز التنفيذي للعدالة، وحتمية انتصار الحق على الباطل وغير ذلك..

هل المشكلة في العامل الاجتماعي؟

عندما يحاول البعض أن يسقط على الرواية العربية الدور الذي يلعبه العامل الاجتماعي في الغرب على طبيعة الرواية البوليسية، نجد من يسارع (ومن دون تفكير صادق للحظة) إلى تفسير قوة الرواية البوليسية في الغرب وغزارة إنتاجها إلى تفشي الجريمة والعنف في هذه المجتمعات، وكأن مجتمعنا العربي خال من الجريمة، أو كأن هناك مجتمعاً واحداً في هذا العالم هو كذلك.

إن مِثل هذه التفسيرات الإنشائية تفتقر إلى الحدود الدنيا من الصدقية. لأن أية صحيفة يومية تفندها بسرعة. إذن، المشكلة هي في تطلع الروائي إلى العالم من حوله، وفي صدقيته في التعامل مع هذا العالم.

لقد ظهرت الجريمة في أعمال أدبية عربية لا تعد ولا تُحصى. ولكن الأدباء العرب تعاملوا معها بأنماط عديدة ومختلفة، ما عدا النمط البوليسي. أو ليس مدهشاً أن تتحول جرائم «ريًا وسكينة» المرعبة إلى مسرحية كوميدية؟

إن المجرم القاتل في الرواية العربية التقليدية هو غيره تماماً في أوروبا. فمنذ ظهور «شفيقة ومتولي»، يبدو القاتل في الرواية العربية إنساناً مظلوماً، شهماً وشريفاً في معظم الأحيان، قادته ظروف قاهرة إلى ارتكاب جريمته التي لا تعكس حقيقته الطيبة. ولذا نراه يقبل بالاستسلام للعدالة من دون مقاومتها. فلا نجد في ذاكرتنا ونحن نخط هذه السطور رواية عربية أو فلماً سينمائياً عربياً واحداً، سقط فيه المجرم بيد العدالة نتيجة ذكاء المحققَ أو استخدامه للفحوصات المخبرية المتطورة لاكتشاف الحقيقة.

إن الجزم بحقيقة الأسباب الكامنة خلف هذه الصورة النمطية من البطل-المجرم صعب. فمن الممكن أن يكون مرتبطاً بطبيعة الصورة المكونة في وجدان الإنسان العربي حول مجتمعه وأدوات العدالة فيه. وفي هذه الحال، يمكن الجزم أن هذه الصورة خاطئة وغير واقعية وغير سليمة على الإطلاق، ومن ضمن مهمات الأدب الإسهام في إصلاحها وتصويبها.

ولكن من المرجح أن الميلودراما في الرواية العربية التقليدية التي لقيت رواجاً كبيراً، وأصداء أكبر في نفوس القرَّاء منذ عصر إحسان عبدالقدوس، باتت ملجأً آمناً لكل كاتب يسعى إلى اقتناص أكبر قدر من الجمهور في أسرع وقت ممكن. خاصة عندما يكتب لوسيلة نشر أكثر جماهيرية من الكتاب مثل السينما والتلفزيون. فغياب الرواية البوليسية عن الفن الروائي العربي ليس مجرد ملاحظة تقتصر سلبيتها عليها، بل تطال أيضاً حال الرواية العربية عموماً، التي تبدو وكأنها انتقلت من الطفولة إلى الترهل من دون المرور بمرحلة النضوج والاستقرار، رغم الومضات الكبرى فيها (لمن يستلّ اسم نجيب محفوظ أو غيره من القامات المشابهة في وجه حكم كهذا). فالرواية هي صناعة كاملة ذات منتجات متعددة الألوان، وليست مجموعة روايات جيدة أو روائيين جيدين.

ثامر بهجت

المنصورة، مصر

تعقيباً على ملف العدد «الرواية البوليسية»، مجلة «القافلة» عدد سبتمبر-أكتوبر 2010

حول

فيروس التعصب الرياضي

إن كان هناك فيروس قد أصاب كل شرائح المجتمع ولا يُعرف له دواء فهو بالتأكيد فيروس «التعصب لكرة القدم». وفي المقام الأول، على «المريض» المصاب بهذا الفيروس أن يعتمد على نفسه فقط للشفاء من هذا المرض المعدي والذي يسبب المتعة والحزن للمريض. لسوء الحظ يحدث هذا الفيروس أحياناً الكثير من الضرر، حيث تبدأ أعراضه بالشعور التدريجي بحالة من عدم الرضا ثم ردود فعل عنيفة تؤدي أحياناً إلى السكتة القلبية أو الانتحار، مثلما حدث للبرازيل عندما خسرت على أرضها وبين جمهورها نهائي مونديال عام 1950م أمام الأوروغواي 1 / 2، حيث توفي 17 شخصاً بسبب تلك الخسارة.

وربما يكون هذا الفيروس سبباً في إشعال نار حرب ضروس بين بلدين جارين مسالمين، كما حدث بين السلفادور وهندوراس أثناء تصفيات بطولة كأس العالم عام 1970م، وعرفت بـ «حرب كرة القدم» ودامت 100 ساعة، وبلغ عدد ضحاياها 6 آلاف قتيل وأكثر من 12 ألف جريح و50 ألف مشرد وعشرات القرى المدمرة.

إن أخطر مثال على تفشي هذه الجرثومة هي ظاهرة الهوليغانز.. والكلمة مشتقة من اسم إحدى العائلات الإيرلندية (Houligan) التي عاشت خلال القرن التاسع عشر في لندن. واشتهرت بشغبها وحب الخصام والمشاكسة، وتطلق هذه التسمية حالياً على مثيري الشغب الإنجليز، الذين تسبب ممارساتهم العنيفة الكثير من الدمار، مثل هجومهم بوحشية على جيرانهم الإيطاليين قبل ساعة من بدء مباراة ليفربول ويوفنتس في نهائي دوري أبطال أوروبا. وخلال ثلاث دقائق فقط كان 38 متفرجاً إيطالياً وبلجيكياً قد فقدوا حياتهم، وأصيب المئات وسط فزع هائل. ورغم بشاعة الحادثة أقيمت المباراة، وفاز يوفنتس بهدف من ركلة جزاء، وقرر الاتحاد الأوروبي حرمان الأندية الإنجليزية من اللعب في البطولات الأوروبية لعدة سنوات متتالية.

لقد كانت كرة القدم وما زالت موضوع بحث لعدة دراسات، ولم يجد الباحثون في علم الاجتماع والنفس حتى الآن تفسيراً واضحاً لظاهرة حب بني البشر لكرة القدم، التي باتت الشغل الشاغل لكل الدول والشعوب.

إن التشجيع أو ما يقوم به الفرد من هتافات لفريقه وشتائم للخصم والحكم، هو أشبه بلحظة جنون تصيب الإنسان.. لحظة الجنون هذه يحتاج إليها الإنسان لتجعله عاقلاً. وقد يكون التحكيم الهزيل للمباريات سبباً في إشعال الملعب من قبل المتعصبين. المأساة التي خلقت أكبر عدد من الضحايا حدثت عام 1964م في عاصمة البيرو، عندما ألغى الحكم هدفاً في الدقائق الأخيرة خلال مباراة ضد الأرجنتين، فهطل مطر من البرتقال وقذائف أخرى من المدرجات الملتهبة بالغضب. وعندئذ تسببت غازات الشرطة ورصاصها في حالة هلع عام، وحشر البوليس الجموع عند أبواب الخروج التي كانت مغلقة، فسقط أكثر من 300 قتيل وجُرح أكثر من 1000، وفي تلك الليلة اجتمع حشد من الناس للاحتجاج في شوارع العاصمة ليما. والغريب أن التظاهرة لم تكن ضد الشرطة وإنما ضد حكم المباراة.

إن التعصب الرياضي يقتل كل شيء جميل في الرياضة، ويؤدي إلى طمس الحقيقة وعدم التعامل بها كمضمون حضاري يمثّل قيم ونظرة الناس الواسعة لها وسط الشعوب والأمم. كما أن التعصب في الولاء والتشجيع يبعدنا كثيراً عن الرياضة وأهدافها وتجاربها السامية التي تدعو إلى المحبة والإخاء، والتي أضحت أخلاقاً وسلوكاً، وفي هذا يقول الشاعر:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم

عبدالكريم جابر النجفي

العراق، محافظة النجف

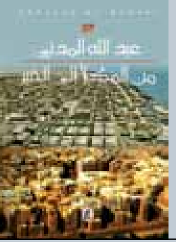
تعقيباً على موضوع «التعصب الرياضي»، مجلة «القافلة» عدد مايو-يونيو 2010

قافلة النشر

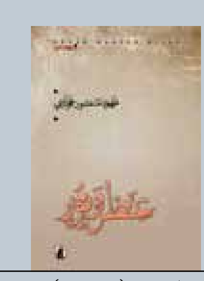
إصدارات جديدة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

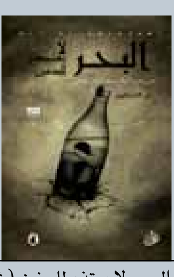





من المكلا إلى الخبر (رواية)
عبدالله المدني



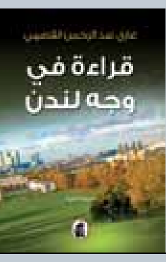
عطر ونور (نصوص)
عهود منصور حجازي



البحر لا يعتذر للسفن (شعر)
علي الشرقاوي



عقد من الحجارة
غازي عبدالرحمن القصيبي

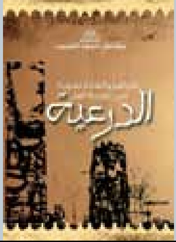


قراءة في وجه لندن
غازي عبدالرحمن القصيبي

دار الفكر العربي



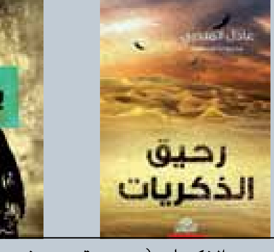




ظواهر وألفاظ لغوية في لهجة أهل الدرعية
مشاعل حمود الشبيب




حرِّر ذاتك واستمتع بحياتك
ماجد مسعد

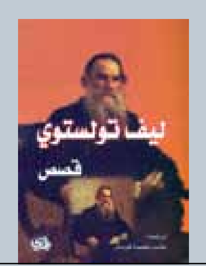



رحيق الذكريات (مجموعة قصصية)
عادل المنذري

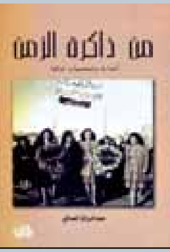


بشع عشوائي (رواية)
حسنة القرني

دار المدى



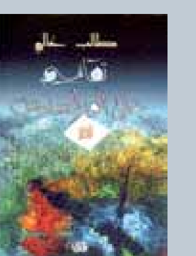
ليف تولستوي (قصص)
ترجمة: غائب طعمة فرمان



من ذاكرة الزمن
عبدالرزاق الصافي




مطر على بغداد (رواية)
هالة البدري

تقاسيم على الوتر السادس (شعر)
طالب غالي

دار ميريت للنشر





الوحيدون (رواية)
محروس أحمد



ورود سامة لصقر (رواية)
أحمد زغلول الشيطي



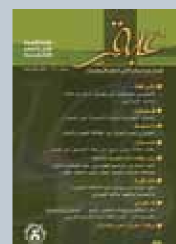
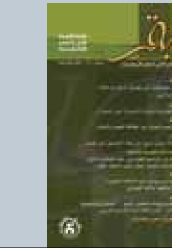
كيَاح (رواية)
خَالد عويس

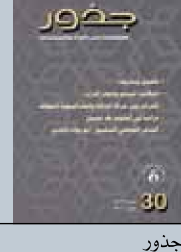


ديرمافوريا (رواية)
كريج كليفنجر

النادي الأدبي الثقافي بجدة






عبدالعزيز السبيل.. قراءة في مرحلة
د. حسن النعمي

عبقر
مجلة فصلية تُعنى بالشعر وقضاياه

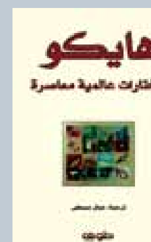
الراوي
دورية تعنى بالسرديات العربية

جذور
فصلية تُعنى بالتراث وقضاياه

علامات في النقد
الشعر رؤية وإيقاعاً

دار طوى للنشر والتوزيع









بأقصى زرقة ممكنة (نصوص)
ماجد العتيبي

قلب حي وقرية ميتة (قصص)
نضال قحطان

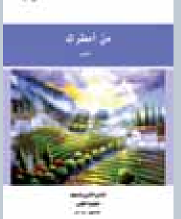
هايكو (مختارات عالمية معاصرة)
ترجمة: جمال مصطفى

أرواح عارية
محمد حامد

قشرة الحضارة (إشكاليات الثقافة السعودية وتحولاتها)
شتيوي الغيثي

النادي الأدبي بالجوف





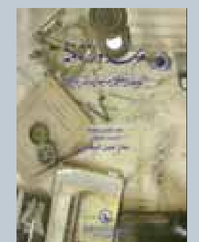
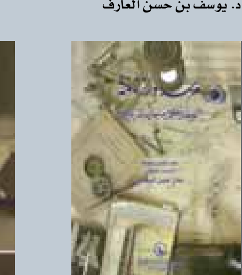
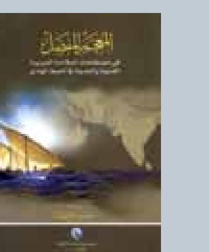
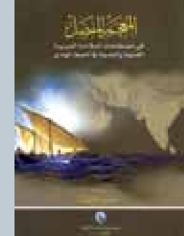
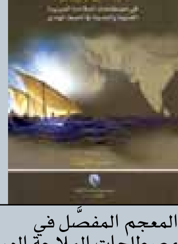


في حضرة السيد الموت (مراثي)
د. يوسف بن حسن العارف

من أمطرك (شعر)
صالح عودة

القصيدة وتحولات مفهوم الكتابة
محمد الحرز

مركز البحوث والدراسات الكويتية

مرشد ورزنامة النوخذة محمد ماجد سالم المرزوق
عادل حسن السعدون

المعجم المفصَّل في مصطلحات الملاحة العربية
حسن صالح شهاب

فريستارك في الكويت
عبدالله يوسف الغنيم

رياض الريس للنشر والكتب







طريق إلى الديموقراطية
جاد الكريم الجباعي

سكين في خاصرة الأفق (شعر)
جمال محمد إبراهيم

كتاب الأسرار
سلوى النعيمي

منزل الأخت الصغرى (شعر)
ناظم السيد

الحدود الرمادية للملكية الفكرية





هل تكفي عبارة «جميع الحقوق محفوظة» لحفظ حقوق أصحاب الملكيات الفكرية؟ الجواب المبدأي سيكون «نعم، إذا كانت هناك آليات تطبِّق القوانين المتعارف عليها بحزم». ولكن السؤال يزداد إرباكاً عندما نتساءل عما هو المقصود تماماً بكلمة «حقوق»، وما الحالات التي تُعد خروقات لها؟

في عصر تعدد وسائط نقل المعلومات، وأيضاً انفتاح الإنتاج الفكري على مذاهب فنية وأدبية وتقنية وعلمية لم تكن موجودة قبل سنوات قليلة، يصبح الجواب عن هذا السؤال في غاية التعقيد، ويحفل بالشروط والزخارف الدقيقة التي تميِّع الحدود الفاصلة بين ما هو من ضمن الحقوق، وما هو ليس كذلك.

مصلح جميل وأشرف فقيه يستعرضان المجالات المثيرة للجدل حول الحدود التي تحيط بالملكية الفكرية، والحالات التي يصعب أمامها الجزم ما إذا كانت تشكِّل انتهاكات لحقوق الملكية هذه أم لا، وينطلقان من حادثة صغيرة، أثارت هذه القضية العامة على مستوى العالم.

حين دخل باراك أوباما سباق انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2008م، ظهرت واحدة من أبرز مظاهر الاحتفالية التي شهدتها الشوارع وغرف الطلبة الجامعيين ومواقع الإنترنت الشخصية، وهي عبارة عن عمل فني بسيط وأنيق تمثل في صورة ظليّة بالأحمر والأزرق والأبيض لوجه الرئيس المقبل، معدّلة باستخدام الحاسوب وتحتها بالخط العريض كلمة «Hope» الإنجليزية التي تعني «الأمل».

كان هذا «العمل الفني» من تصميم الفنان الأمريكي الشهير «شيبرد فيري». وقد حظي بانتشار ساحق كأيقونة للحملة الانتخابية وللعهد الأمريكي الجديد. لا يعرف أحد كم كسب فيري من وراء هذه اللوحة. لكن نسخاً موقعة له عرضت بموقع المزاد الإلكتروني «eBay» بأسعار وصلت حتى خمسمائة دولار للنسخة. وأصاب فيري ذروة المجد حين أضيف معرضه -المتضمن هذه اللوحة بالذات- إلى معهد الفن المعاصر ببوسطن، كواحد من أشهر فناني المتحف على مدى أكثر من 70 عاماً. لكن فرحة الفنان لم تكتمل. ففي يوم من أيام فبراير 2009م وفيما هو في طريقه لافتتاح ذلك المعرض، تم اعتقال فيري بتهمة السرقة الفنية!

الذي حصل أن وكالة «أسوشيتد بريس» الصحافية اتهمت فيري بأنه قد بنى عمله الفني على لقطة فوتوغرافية التقطها أحد مصوري الوكالة لأوباما عام 2006م. وبالتالي فالعمل الفني مبني على مادة مملوكة حصراً للوكالة بموجب حقوق الملكية الفكرية. في المحكمة، جادل فريق محاميّ فيري بأن هذا صحيح تماماً.. لكنه قانوني تماماً! مبررين تصرف موكلهم بأنه مندرج تحت بند «الاستخدام العادل» للأعمال والمصنفات الفنية والأدبية.

فماذا تعني هذه المصطلحات القانونية كلها؟ هل يضمن لنا قانون «الاستخدام العادل» الإفادة من ملايين المواد المتوافرة عبر الإنترنت والمكتبات العامة وسواها؟ أم إننا بحاجة لنستأذن.. ونبحث عن مصدر كل عمل إبداعي.. قبل أن «نقتبس» منه كي نمارس إبداعنا بدورنا؟

قبل أن نخوض في تعقيدات قضية فيري، فإننا سنتحدث عن «جيمي توماس». قد يكون فيري فنان شوارع ذائع الصيت استفز الانتشار الكبير للوحته كبرياء وكالة كبرى مثل «أ. ب.».. لكن جيمي توماس هي مواطنة عادية من ولاية مينيسوتا. وفي نوفمبر من هذا العام، قضت محكمة أمريكية بتغريم توماس مبلغ مليون ونصف المليون دولار، عقاباً لها على نشر ملفات موسيقية لأغانٍ تجارية عبر مواقع المشاركة المفتوحة بالإنترنت بغير حق قانوني.

هل تحس الآن بأنك معني أكثر بقضايا الملكية الفكرية؟!

بدايات القصة

مع أن أمريكا تبدو دولة رائدة في مجال حماية الملكيات الفكرية، إلا أن أصول المبادرة جاءت من أوروبا. إذ تُعد رواية «باميلا» للكاتب البريطاني «صموئيل ريتشاردسون» أول رواية تطبع بالمستعمرات البريطانية (أمريكا حالياً). كان ذلك في العام 1744م حين قام «بنجامين فرانكلين» -الذي يُعد من أهم الآباء المؤسسين لأمريكا- بطباعتها ونشرها، مستفيداً من عدم وجود نظام دولي لحقوق الملكية الفكرية آنذاك. استمتع فرانلكين بالدخل المادي من بيع الرواية وحقق أحد أهدافه التي عرف بها كتنويري في تلك الفترة، وهي تسهيل حصول العامة على الكتب للمتعة

والفائدة. وإذا كانت المستعمرات في تلك الفترة من دون حقوق ملكية فكرية خاصة بها، فقد كانت أوروبا قد بدأت في سن قوانين مختلفة حول تلك الحقوق، وبالذات بعد انتشار صناعة الطباعة التي أوجدت مجالات اقتصادية وإبداعية جديدة، جعلت قوانين الملكية الفكرية أمراً لابد منه. ومنذ تلك الفترة وحتى اليوم لا تزال قضايا حقوق الملكية الفكرية أمراً مثيراً للجدل، سواء في آليات تطبيقها وتعزيزها أو في تعديلها لما يتوافق مع التغير السريع في أساليب إنتاج الأعمال الإبداعية وأساليب تناقلها وتسويقها. بل والأكثر إثارة للجدل هو كثرة قضايا انتهاك الملكيات الفكرية وتنوعها مع تنوع مجالات الإبداع البشري.

تغير في عالم الأعمال بات نتيجة إعادة تشكيل المعلومات وليس نتيجة لوجودها فقط

المبادئ الأساسية.. البسيطة

ترجع أول اتفاقية دولية تنظِّم حقوق الملكية الصناعية إلى عام 1883م. وقد عرفت باسم «اتفاقية باريس» نسبة لمقر المؤتمر الذي خصص للوصول إلى قانون دولي يحمي حقوق الملكية الصناعية. ذلك المؤتمر وافق بدايات ثورة أوروبا الصناعية التي جلبت نوعاً من الفوضى الحقوقية، الأمر الذي لم يعجب أحد أشهر الأدباء الفرنسيين في تلك الفترة، وهو فيكتور هوغو، الذي لعب دوراً كبيراً في التحريض على استحداث قانون دولي يحمي الفنون والآداب.

وبعد اتفاقية باريس، ظهرت «اتفاقية برن» للمصنفات الفنية والأدبية عام 1886م.

واستلزم الأمر قرابة القرن لتتكلل جهود إيجاد جهة مؤسسية دولية تتولى حماية حقوق الملكية الفكرية بجوانبها المختلفة. فتم التوصل في عام 1967م إلى إبرام الاتفاقية الدولية لإنشاء المنظمة العالمية للملكية الفكرية (WIPO) التي تحولت لاحقاً إلى إحدى الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة عام 1974م.

يهتم قانون الملكية الفكرية بحماية إنتاج الفكر البشري لأي عمل، أدبي أو فني أو براءة اختراع لمنتج ما أو أسلوب ما، من الاستعمال غير المشروع من قبل الآخرين. أي إنه يعطي المؤلف أو المبتكر أو المالك للعمل المحمي حق الاستفادة المادية والأدبية منه. وتشمل حقوق الملكية الفكرية نوعين: أولهما؛ ملكية صناعية لبراءات الاختراع، والعلامات التجارية، والتصاميم الصناعية وغيرها. والثاني؛ حقوق النشر والتأليف (Copyrights) التي تختص بالأعمال الفنية والأدبية مثل الرسومات والصور والموسيقى والفنون الحركية والروايات والشعر وغيرها. وحدد المشرعون دوافع حماية الحقوق الملكية وتسويق مفهومها بقولهم: «إن تقدم ورخاء البشرية يكمن في مقدرتها على استيعاب الإبداعات الجديدة في الحقل التقني والثقافي». ونصوا كذلك على أن «الحماية القانونية لهذه الإبداعات الجديدة تشجع على إيجاد مصادر إضافية مما يقود إلى ابتكارات أخرى». وأضافوا «أن حماية الملكية الفكرية تستحث النمو الاقتصادي، وتوجد وظائف وصناعات جديدة، وتعزِّز المساواة والاستمتاع بالحياة».



تحويل صورة أوباما إلى لوحة ومشكلات الملكية التي أنتجت عنها

وفـي الواقع، فإن العمل الإبداعي يُعد محمياً بمجرد إنتاجه أو ابتكاره حتى قبل أن يكون مسجلاً. أي إنه لا يفترض أن يكون العمل الإبداعي مسجلاً رسمياً تحت أي نظام حماية حقوق ملكية حتى يتمتع مؤلفه بحقوق مادية وأدبية محفوظة.

وبعد وفاة المؤلف الأصلي، يكون للورثة الحق في التصرف في المنتج المحمي تحت قانون حماية الحقوق الفكرية. ويضمن النظام للورثة خمسين سنة من الاستفادة من العمل، وبعدها يسقط في الحق العام. إلا أن الحق الأدبي للمؤلف يظل أمراً مهماً يجب التنويه به عند استعمال العمل. أي إن فرصة وصول العمل الإبداعي للجماهير للاستفادة والاستمتاع به يظل محكوماً بحق المؤلف وورثته في شكل ومدة وأسلوب ترخيص العمل ووصوله إلى العامة.

ولكن المعضلة في هذا القانون أنه يتعامل مع منتجات غير ملموسة أو محسوسة؛ لذا لا يزال فهم قانون حماية الحقوق الملكية غائماً عند الكثير من العامة، ومجال جدل تشريعي واسع. فقد يتساءل البعض: كيف أشتري صورة أو لوحة أو رواية ولا أملكها؟ وهنا يقع اللبس بين ملكية المشتري للمنتَج مادياً، وبين المنتج الإبداعي فكرياً الذي تعود ملكيته لمبدعه. أي إنه يمكن لأي قارئ شراء رواية من المكتبة والاستمتاع بها أو إعارتها لصديق أو بيعها. ولكنه لا يملك حق نسخها وتصويرها وبيع نسخ منها! كما يحق لأي شخص شراء أي عمل فني وتزيين بيته به أو إهداؤه، ولكنه لا يملك الحق في استعماله في كتاب أو نشره في مجلة أو تصويره واستعمال الصور تجارياً من دون موافقة الفنان الذي أنتج العمل الأصلي. فالمؤلف سواء أكان فناناً أو كاتباً أو مخترعاً، هو وحده، أو من يوكله لينوب عنه قانونياً، أو ورثته هم من يملكون حق ترخيص العمل للبث الإذاعي أو التلفزيوني، أو الطباعة او إعادة الطباعة، أو الترجمة، أو الإنتاج على أقراص الحاسوب، أو الاستفادة الاقتصادية منه بأي شكل كان.

الحالة العربية

واكبت الدول العربية الحركة الدولية من أجل حماية الملكية الفكرية من خلال القوانين الوطنية، ولكنها جاءت متأخرة. وتتمتع كل الدول العربية اليوم بنظام قانوني يحمي حقوق الملكية الفكرية من النهب والسرقة. ويمكن فيما يلي أن نستعرض قوانين بعض الدول العربية:

في الأردن: صدر قانون حق المؤلف عام 1992م. وقانون براءات الاختراع عام 1999م، وقانون الرسوم الصناعية والنماذج الصناعية عام 2000م، وقانون العلامة التجارية عام 1952م، وقانون المنافسة غير المشروعة والأسرار التجارية عام 2000م، وقانون المؤشرات الجغرافية عام 2000م، وقانون الدوائر المتكاملة عام 2000م، وقانون حماية الأصناف النباتية عام 2000م.

وفي الإمارات: صدر قانون حق المؤلف عام 1992م، وقانون براءة الاختراع والتصاميم عام 1992م، وقانون العلامة التجارية عام 1992م.

وفي مصر: صدر قانون حماية الملكية الفكرية عام 2002م الذي ينظِّم حقوق المؤلف وبراءات الاختراع والرسوم والنماذج الصناعية والعلامات التجارية والدوائر المتكاملة وحماية أصناف النباتات. وقد ألغي قانون براءات الاختراع والرسوم والنماذج الصناعية الذي كان قد صدر عام 1949م وعدِّل لاحقاً مرات عديدة.

وفي المملكة، تتقاسم عدة جهات حكومية سعودية مسؤولية مراقبة وتطبيق قوانين الملكية الفكرية منها مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية التي توفر حماية حقوق الملكية الفكرية في مجالات مثل: براءات الاختراع، والنماذج الصناعية، والتصميمات التخطيطية للدارات المتكاملة. بينما تهتم وزارة الثقافة والإعلام بحقوق المؤلف الذي صدر نظامه عام 1424هـ، وصدرت لائحته التنفيذية عام 1425هـ والذي يشمل حماية المصنفات الأدبية والفنية.

قانون حرية الاستخدام

يعرِّف موقع ويكيبيديا (المحتوى الحرّ) بأنه: كل ضرب من المعلومات الوظيفية (برمجيات، تصميمات، مخططات) أو الأعمال الفنية أو أي نوع من المحتوى الإبداعي الذي لا توجد قيود كبيرة تحد من قدرة الآخرين -باستثناء مُنتِجه- على استخدامه وتوزيعه وإنتاج نسخ معدلة منه أو أعمال مستنبطة أو مبنية عليه بحيث يشكل جزءاً أو يتكون منها.

ويشمل المحتوى الحر كل الأعمال التي هي في الملكية العامة، وكذلك الأعمال المحمية

بحقوق طبع والتي تسمح رخصها بما سبق. ولأن القوانين المعمول بها في الغالبية العظمى من القضاءات تمنح بشكل تلقائي منتِج العمل حقاً حصرياً في احتكار ما يُنتِج، فإن الأعمال يجب أن يُصرّح بكونها حرة، غالباً بالإحالة إلى نص رخصة أو تضمين عبارة ترخيص في متن العمل نفسه أو في الموضع المنشور فيه العمل.

وعلى عكس حق الطبع المرتبط بالاستغلال المادي والتجاري، فإن الحق الأدبي للمؤلف في أن يقرن اسمه بعمله هو حق لا يسقط أبداً. كما أن معظم تشريعات العالم لا تسمح حتى بالتنازل عنه طوعاً لأنه يعد حقاً مرتبطاً بهوية الإنسان كمبدع، ويمنع الاستغلال الناشئ عن الحاجة والإغراء المادي.

ومع أن الأعمال تصبح مَشاعاً بانتهاء مدة الحماية القانونية الممنوحة لمؤلفيها كما أسلفنا، إلا أنه من الممكن أن تصبح محمية مرة أخرى، وكذلك كل ما اشتق منها من أعمال إن تغيرت القوانين لاحقاً. وإن كان هذا محل صراع قانوني وقضائي.

هناك رخص للمحتوى الحر تندرج في الإنجليزية تحت ما يعرف «copyleft» كمرادف لغوي لكلمة «copyright». وتنص معظم الرخص الحرة صراحة على أن الأعمال المشتقة (عند النسخ أو إعادة التوزيع) يجب أن يُشاد بمؤلفها (منتجها الأصلي)، وهي ممارسة الهدف منها نشر الأمانة ومقاومة السرقة الأدبيتين، دون تحميل المستخدم عبئاً كبيراً ينتفي معه كون الرخصة حرة بشكل عملي. ورخصة «GNU» للوثائق الحرة هي مثال على ذلك، ومثلها «رخصة الإبداع العمومي» في تنويعاتها التي لا تحظر كلاً من الاستغلال التجاري والأعمال المشتقة. ويمكن كذلك استخدام رخصة «GNU» العمومية كرخصة للمحتوى الحر بالرغم من أنها صممت أصلاً للبرمجيات ولذا فهي أقل ملاءمة لذلك من المثالين السابقين. وحيث إننا نتطرق لهذا السياق، فسنذكر أن المقاطع أعلاه هي من موقع ويكيبيديا العربي!

التأمل في كل هذه التفاصيل القانونية يصيب القارئ بالدوار. ويمكن لأي منا أن يستشعر عدة ثغرات قانونية في هذا الشأن، إضافة لاستشعار الخوف من الوقوع تحت طائلة قوانين دولية فضفاضة ومتشعبة هكذا. إلا أن أكثر ما يثير النقمة في هذه التفاصيل كلها هو الإحساس بالاختناق. لأن الأصل في الإبداع البشري هو الانتشار والتحليق في فضاءات الحرية، في حين تتحدث قوانين الملكية الفكرية عن حقوق حصرية لورثة المؤلف تمتد لنصف قرن من بعده!

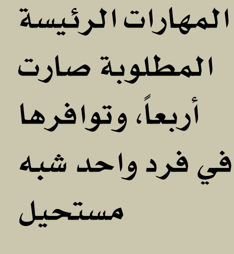
في السينما والتلفزيون

تُعد صناعة الأفلام والبرامج التلفزيونية من أكثر الصناعات عرضة لخرق قوانين حقوق الملكية وذلك لتعدد المصادر التي تصنع الفلم السينمائي أو البرنامج التلفزيوني. ومن أهم الأمثلة في السينما الأمريكية ما تعرض له فِلم (Amestad) للمخرج الأمريكي ستيفن سبيلبيرغ. فقد تقدَّمت الروائية «باربرا تشايز-ريبود» بشكوى ضد الشركة المنتجة، تدعي فيها أن المخرج سرق أجزاءً من روايتها التاريخية «صدى الأسود». الفلم والرواية مبنيان على أحداث تاريخية عن العبودية في أمريكا، لذا رفضت المحكمة شكوى الروائية لأن التاريخ لا يملكه أحد. ولأي شخص الحق في توظيفه في عمله الفني أو الأدبي. وأطرف ما في هذه القضية هو أن محاميي الشركة المنتجة لفِلم «أميستاد» أثبتوا أن الروائية نفسها انتهكت حقوق النشر والتأليف حيث نقلت بعض أجزاء روايتها من كتاب آخر طبع قبل 36 سنة من طباعة روايتها، لتتحول قضية حقوق الملكية ضدها.

انتشار الطابعة، ومعها النسخات غير القانونية للكتب


Corbis

أمـا على مستوى حقوق الأفـكار، فقد سبـق أن تعرَّض أحد أشهـر البـرامج التلفزيونيـة الأمريكية «ذا كوزبـي شو» إلى قضيـة رفعت ضد القنـاة المنتجة «NBC» يدعـي فيها أحد موظفـي القنـاة أنـه هو مـن تقـدَّم بفكرة البرنامـج التلفزيونـي للقناة، وأنـه المالك الفكـري لها. ولكـن القضيـة انتهت برفض المحكمـة الفيدرالية لحـق الرجل في ملكية الفكرة، لأنها غيـر أصلية وموجودة بطريقة أو بأخـرى فـي برامـج تلفزيونيـة. وهـذه القضايـا تطـرح سـؤالاً مهماً قـد لا يدركه الكثيـر من العامـة ومن المؤلفيـن أنفسهم عمـا يحميـه قانـون الملكيـة الفكريـة، وإلى أي حـد يمكن لفكـرة أو عمل أدبي أو فني أن يكـون أصلياً وقابلاً للحماية، وإلـى أي مدى يمكن أن يعطي قانـون الملكية الفكرية الحق للعامة والفنانين الآخرين في الاستفادة والاستمتاع بالمنتج الأدبـي أو الفني من دون خرق لهذا القانون سواء عن طريق الاستعمـال العـادل أو سقـوط حق الملكية بمـرور الزمن أو بانتقالها إلى مالك آخر.

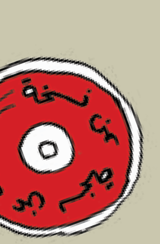
المهارات الرئيسة المطلوبة صارت أربعاً، وتوافرها في فرد واحد شبه مستحيل

ماذا عن الملكية الصناعية؟

بعيـداً عـن عالـم الأدب والفنـون، مـا الذي يجعـل الشكل الخارجـي لسيـارة أو تصميمها الداخلي محميـاً ولا يمكن استنساخـه أو تقليـده؟ هنـا يأتـي قانون الملكيـة الفكرية بشقـه الأول الـذي يحمـي الملكية الصناعيـة ومن ضمنها التصاميم الصناعية.

فتصميم سيارة مثلاً يمكن أن يُعد كتصميم صناعي أو كعمل فني تطبيقي، مما يجعل استنساخه أو تقليده مخالفاً للقانون. والتصميـم الصناعي كما توضحه المنظمة العالمية للملكية الفكريـة: هـو التزيين والزخرفـة الجمالية لأيـة سلعة، مثل اللون والخطوط أو الشـكل والسطح. وتندرج تحت التصميم الصناعـي أشـكال مختلفة مـن التصاميـم الصناعية، من الساعات إلى السيارات ومن الأجهزة المنزلية إلى المعدات الطبيـة. ولكن ليـس أي تصميم يمكن أن ينـدرج تحت هذا القانـون. فحتى يحصـل تصميم صناعي علـى حق الحماية تحت قانون الملكية الفكرية يجب أن يكون «جديداً» و«أصيلاً» و«غيـر وظيفـي». أي أن يكـون التصميـم أساسـاً ذا طبيعة جمالية. والتصميم الصناعي طبقاً للمنظمة الدولية للملكية الفكريـة هو ما يجعل المنتج جذاباً وفاتناً، مما يعطي المنتج قيمـة تجارية ويزيد في رواجه. وهنا يظل تعريف كلمات مثل جديد، أصيـل (original) وغير وظيفي تعريفاً غير محدد، وقـد يختلف من دولة إلـى أخرى. إلا أن تعريف كلمة «أصيل» كمثال قد يكون تعريفاً متعارفاً عليه. فالكلمة تعني أن المنتج يجـب أن يديـن بأصوله إلـى منتجه. والتصميـم الصناعي عكس المنتج الأدبي أو الفني، يجب تسجيله حتـى تحفـظ حقوقـه. أي إن مجـرد إنتاج تصميـم صناعـي لا يعطيه حـق الحماية مثل الرواية أو الصورة أو العمل الفني بشكل عام.

وقـد تختلـف قوانين الملكيـة الفكرية من دولـة إلى أخرى، وقـد تتضمن بعض الفقرات التي قد تكـون قابلة لتفسيرات متباينة. ففي حين استمتع «بنجامين فرانكلين» بعدم وجود قانون حمايـة فكرية في تلك الفترة، فإن الدستور الأمريكي الذي صدر في نهاية ذلك العام تضمَّن في مادته الأولى، الفقرة الثامنة نصاً صريحاً يعطي الحق للمخترعين والمؤلفيـن فـي الاستفـادة مـن إبداعاتهـم الأدبية والفنيـة واكتشافاتهـم. مع ذلك فالقانـون الأمريكي فـي شق حقوق النشر والتأليـف كمثال لا يحمي الأفكار ما لـم تكن في نصـ أدبي أو درامـي تعبيـري يجعلها قابلة للحمايـة. ولا يحمي القانون الأمريكي أيضـاً الحقائق، مثل الحقائـق عن الأرض أو الحيوانات أو غيرها. أي إنه لا يمكن لأحد أن يدعي ملكيتهـا. والأخبار حين تعلن يصبح التعامل معهـا على أنهـا حقائق، بينمـا أي تقرير إخبـاري خاص أو لقـاء خاص يظل محمياً، ويمكـن للجهات المنافسة الإشارة إليه بـدون نسخ أو إعـادة إنتاج. وهنا يتداخـل القانوني مع الأخلاقـي. ففي حين أنه يحق لأيـة صحيفة أو قناة إخبارية أن تبلـغ مشاهديها بما قاله مسـؤول مهم في لقاء خاص مع قناة إخباريـة أو صحيفة منافسة، إلا أنها لا تملك الحق في بـث اللقاء أو نشر ما دار فيه علـى شكل نص مطبوع، وتظل

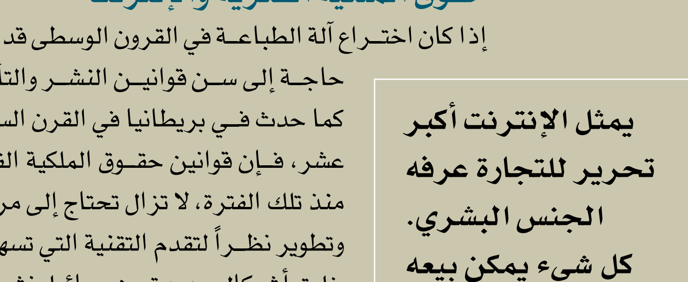




أخلاقيات المهنة هنا عاملاً مهماً في هذا الجانب الذي يتقاطع مع قانون الملكية الفكرية. وفي أمريكا، يعطي قانون الملكية الفكرية المؤلف الحق في ملكية مؤلفه الفني أو الأدبي مدى حياته، ثم ينتقل الحق لمدة سبعين سنة للورثة.

حقوق الملكية الفكرية والإنترنت

إذا كان اختراع آلة الطباعة في القرون الوسطى قد أوجد حاجة إلى سن قوانين النشر والتأليف، كما حدث في بريطانيا في القرن السادس عشر، فإن قوانين حقوق الملكية الفكرية منذ تلك الفترة، لا تزال تحتاج إلى مراجعة وتطوير نظراً لتقدم التقنية التي تسهم في خلق أشكال جديدة من وسائل نشر ونقل ونسخ وحفظ المنتج الأدبي أو الفني. ولعل أهم محطات هذه القوانين هو اختراع الصورة المتحركة والبث الإذاعي والتلفزيوني ثم وسائل النسخ والأقراص المدمجة ثم مؤخراً الإنترنت.



يمثل الإنترنت أكبر تحرير للتجارة عرفه الجنس البشري. كل شيء يمكن بيعه وشراؤه عبر الإنترنت

تشكل الإنترنت معضلة حقيقية للمشرِّعين. لأن المعرفة قد تم «ترقيمها – Digitized». كل صور المعرفة البشرية تقريباً من نصوص وصور وأعمال فنية وفكرية ومعلومات متوافرة في الشبكة الرقمية على هيئة نبضات إلكترونية. وكلها يمكن تبادلها ومجاناً عبر الإنترنت.

فقد جلبت الإنترنت معها مشكلة اسمها «Ctrl+C» وهما الزران اللذان تحتاجهما لتنسخ –أو تسرق– أي نص ثم تلصقه وتنسبه لنفسك. هذه معضلة يعرفها المدرسون والبحاثة الذين يقاومون ليعلّموا تلاميذهم معنى الانتحال العلمي والأدبي في ظل مغريات لا تحد، تمثلها الوفرة والسهولة على الإنترنت.



الإنترنت ومشكلات السرقة الناتجة عنه

تمثل الإنترنت أكبر تحرير للتجارة عرفه الجنس البشري. كل شيء يمكن بيعه وشراؤه عبر الإنترنت. وأي شيء يسعنا أن نستخدمه عبر الحاسوب هو عرضة للاختلاس الإلكتروني. ومثال شركة «نابستر» شهير ومعروف ككيان حاول أن يقتحم عرين شركات الموسيقى التجارية ويوفِّر الأغاني للناس مجاناً على الإنترنت ثم دفع الثمن غالياً. واليوم، إن كل إنسان هو متهم بانتهاك الملكية الفكرية على الإنترنت حتى يثبت العكس. مواقع مشاركة الملفات المجانية (Free File Sharing) هي أكثر من أن تحصى. وهناك تقنيات متقدمة لتسهيل هذه العملية. وفي بعض الدول وداخل بعض الهيئات الرسمية فقد جرى تجريم مجرد زيارة هذه المواقع. لكننا كلنا نفعل ولأغراض نبيلة في كثير من الأحيان. كثير منا يجد نسخاً إلكترونية بصيغة (PDF) لكتب قديمة ما عادت متوافرة في المكتبات. الطلاب والباحثون عن متعة القراءة يفعلون ذلك. فهل تُعد هذه جريمة. ما الفرق بين من يقرأ كتاباً مجاناً من الإنترنت، ومن يستعيره مجاناً من مكتبة عامة أو صديق؟ وإذا كانت المسألة تتعلق حقاً بالحقوق التجارية للكتب والأغاني، فكيف سيعمل أصحاب هذه الحقوق على الحفاظ عليها إلكترونياً؟ هل سيقتضي هذا مراقبة استخدام كل منا لشبكة الإنترنت، بكل ما يمثله هذا من انتهاك فج لحريتنا الشخصية؟

بين مؤيد ومعارض

في صيغتها المبدئية، تمثل قوانين الملكية الفكرية إطاراً مثالياً لحماية حقوق المبدعين من الاختلاس والانتحال والسرقة. فالتاريخ حافل بالمبدعين والمفكرين الذين ضاعت جهودهم وحقوقهم نتيجة سرقة الآخرين لهم. وقوانين الملكية الفكرية تهدف أساساً إلى ضمان هذه الحقوق. لكن هناك فريقاً من المبدعين أيضاً يناهض هذه القوانين ويرى فيها تقييداً لحرية الإبداع ولحرية التجارة والكسب المادي المشروع أيضاً.

لكن الملكية الفكرية كمبدأ هي ذات أبعاد فلسفية معقَّدة. فالفن كما يعرفه الفنانون هو ملك للبشرية كلها. وبعد اعترافنا بنسبة عمل فني ما إلى مبدعه الأصلي، فإلى أي حد هو بعد ذلك مملوك لصاحبه؟ ولأي حد هو من حق العامة؟ هل يحق لأحد أن يحجب علماً أو فناً أو إبداعاً بسبب حجة قانونية؟ أم أن للمجتمع ككل رأياً قاطعاً لا يصح تجاوزه؟



السلع المقلَّدة للأصل، صناعة عملاقة لا تعترف بأية حقوق..

يصر البعض إذاً على أن بعض حالات هذه المسألة «اعتباطية»، وغير ذات جدوى. ولعل أحد أمثلة هذه الاعتباطية تتجلى في قصة الرسائل التي كتبها الروائي الأمريكي «إرنست همنغواي» بخط يده في العشرينيات من القرن الماضي. هذه الأعمال الأدبية اكتشفها مالكها الذي ورثها عن والده الكاتب الأمريكي دونالد ستيوارت، والذي كان صديقاً لهمنغواي. وحين ظهرت هذه الرسائل مجدداً في العام 2004م، حاول مالكها «ستيوارت» الابن نشرها. ولكن الهيئة الوصائية (estate) التي آلت إليها حقوق مؤلفات همنغواي رفضت بزعم أنها من يتملك حق نشر أعمال الكاتب الراحل. ومع أن كثيراً من المهتمين والقُرَّاء طالبوا بنشر تلك الرسائل لأنهم يرون فيها حقاً لجميع محبي أعمال هذا الأديب العالمي، إلا أن مطالبهم ذهبت أدراج الرياح مقابل حق الهيئة القانوني. والطريف في هذا الأمر أن الهيئة لا تملك عين المستندات! أي إن المستندات (الأوراق المكتوب عليها القصة والرسائل) بذاتها ملكية لمكتشفها ويعطيه القانون حق الاحتفاظ بها أو بيعها كأية سلعة. أما أمر «نشرها» على الملأ فلا يحق له قانونياً!

بالعودة إلى قضية ملصق حملة أوباما الانتخابية التي ذكرناها في البداية، وما زال البت فيها جارياً بالمحكمة حتى الساعة، فإن كانت هذه القضية قد أثارت الكثير من الجدل والنقاش على أعلى المستويات القانونية والفنية، فإنها -بعيداً عن القانون- تطرح قضية جوهرية فكرية مهمة جداً. فالصورة الأصلية صورة مغمورة وغير مهمة على المستوى الصحفي أو الفني، ومع ذلك فإنها كانت سبباً في صنع وابتكار ملصق ذي قيمة فنية وتعبيرية عالية جداً. فالملصق، نظراً لمدى الأصالة والابتكار فيه على مستوى اللون والخطوط وعلى مستوى الرسالة التي يحملها قد تم اختياره للمشاركة في معرض معهد الفن المعاصر في بوسطن، بالإضافة إلى أنه أصبح من ضمن المقتنيات الدائمة في المعرض الوطني للصور الشخصية في واشنطن.

أحياناً تتعارض قوانين الملكية الصناعية وحقوق النشر والتوزيع مع أبسط مفاهيم الحياة. وتمثل شركات الأدوية حالة مدوية في هذا الصدد. فحين انتشر الرعب من فيروس «سارس» بين عامي 2003 و2004م، تم تداول حقائق بخصوص تأخر بيع العقاقير المضادة لهذا الفيروس بسبب خلافات حول حقوق الإنتاج وبراءات الاختراع! الكلام نفسه يقال بشكل أوسع بخصوص معاناة القارة الإفريقية مع مرض الإيدز، حيث يموت 6000 إفريقي كل يوم بسبب المرض الذي ينتشر هناك بشكل مخيف بسبب الفقر والجهل بأساسيات الوقاية. ومع أن هذا الفيروس بالذات ليس له علاج حاسم، إلا أن هناك أدوية تسهم بفاعلية كبيرة في تطوير مقاومة المرضى وإطالة معدلات أعمارهم، بإذن الله. مشكلة هذه الأدوية أنها ذات أسعار فلكية لا تقدر عليها كثير من الحكومات الإفريقية الفقيرة، ناهيك عن الأفراد. وتزيد المأساة فداحة حين نعرف أن المختبرات قد طورت بدائل أرخص ثمناً. إلا أن هذه الأدوية الأرخص تمنع من الطرح في السوق بقوة القانون الدولي، لأن حقوق أبحاث علاجات الإيدز محفوظة لأباطرة شركات الصيدلة الذين لا يعنيهم كم يموت بقدر ما يعنيهم أن يبيعوا منتجهم، وأن يقاضوا من ينازعهم الحق «القانوني» في هذا المنتج وأمثاله. بل إن هناك فيروسات مطورة صناعياً و«مملوكة» لصانعيها. وفي سيناريو كابوسي يسعنا أن نتخيل ما سيحصل لو أفلت أي من هذه الفيروسات من عقال السيطرة. إن أي عالم أو باحث سيمنع قانونياً من أن يطور طريقة لقتل هذا «المنتج» الصناعي من دون إذن مسبق من منتجيه.. ولتكون هذه حالة فريدة من الفذلكة الحقوقية تنقلب فيها الحضارة إلى عدو للوجود البشري نفسه!

قول في مقال

درس إلكتروني في الهمة و..الكرم؟

في نهاية شهر ديسمبر، أعلنت «مؤسسة ويكيميديا» التي تصدر الموسوعة الإلكترونية «ويكيبيديا» عن اكتمال حملة جمع التبرعات التي كانت قد بدأتها قبل بضعة أسابيع.
طه النقاش يقرأ ما تتكشف عنه هذه الحملة من تفاصيل جديرة بالملاحظة على ضوء المخزون الثقافي العربي على شبكة الإنترنت، وواقع حاله الذي لا يبعث كثيراً على الزهو.

الذين تصفحوا موقع الموسوعة الإلكترونية «ويكيبيديا» خلال شهري نوفمبر وديسمبر الماضيين، كانوا يطالعون في أعلى الصفحة الأولى من أي موضوع عبارة «نداء عاجل من مؤسس ويكيبيديا جيمي ويلز»، وقرب الإعلان عن النداء، كانت هناك صورة رجل توحي هيئة وجهه بشيء من الطيبة والثقة والاحترام (هو ويلز نفسه). والذين قرأوا النداء عرفوا فوراً أنه دعوة إلى التبرع لهذه الموسوعة الإلكترونية، التي توفر لقرائها كل ما يشاؤونه من معلومات مجاناً، وتخلو في الوقت نفسه من أي إعلان تجاري. ومما جاء في نداء ويلز أنه والكثير من العاملين في الموسوعة لم يتقاضوا أي راتب على عملهم خلال السنة الماضية، وأن أي قرش يتبرع به مستخدمو ويكيبيديا سيساعدهم على الاستمرار في عملهم للعام التالي (الحالي).

وفي نهاية شهر ديسمبر، طالع متصفحو هذه الموسوعة محل النداء السابق عبارة «شكراً لكم». فقد جمعت الموسوعة، أو بالأحرى مؤسسة «ويكيميديا» التي تصدرها، نحو 16 مليون دولار، أي ما يكفي لإدارتها طوال العام المقبل. وجاء في التفاصيل أن عدد المتبرعين فاق نصف المليون.

وكان المعدل العام للتبرع «22 دولاراً» من الشخص الواحد. وأن نحواً من 130 ألف شخص تبرعوا للفرع المحلي من ويكيبيديا.. فلماذا كانت الاستجابة على قدر الطموح؟

النجاح... مسألة قرار

أول ما ظهرت «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت، لم يلحظ وجودها أحد. فقد بدأت بجهاز «لابتوب» واحد. وما كانت تسمى «موسوعة» كانت تفتقر إلى الكثير في تغطيتها لموضوعات و«بنود» أساسية وكبيرة. وفي منتصف مسيرتها، أي قبل سنوات خمس، بدأ الناس يأخذون هذه الموسوعة على محمل الجد. ولكن تقييمها كان يتضمن الكثير من النقد والإشارات إلى الثغرات الملحوظة «أكاديمياً»... أما اليوم، وهذه الموسوعة تحتفل بمرور سنوات عشر على تأسيسها، فقد أصبحت على أرض الواقع المنهل الثقافي والعلمي الأول في العالم دون منازع.

فموقع «ويكيبيديا» هو الخامس في العالم من حيث عدد الزوار... وكل من يعمل في الشأن الثقافي أو العلمي أو التعليمي، صار يلجأ إليه للاستطلاع والبحث.. حتى تلامذة المدارس الإعدادية، صاروا يعتمدون عليه لإنجاز واجباتهم المدرسية، حسبما يروي المعلمون. وصار من الممكن أن تمر سنة أو سنتان أو ثلاث دون أن يتصفح الباحث الموسوعات التقليدية الكبرى. ونتيجة للغنى المتزايد في مخزون ويكيبيديا، وتعزيزه بالروابط المكملة لأي بحث. وإذا

استمرت هذه الموسوعة بالنمو بالوتيرة نفسها، فمن المرجح أنها قبل نهاية العقد الحالي، ستتحول إلى البوابة الأولى للمعارف الإنسانية، التي لابد من المرور عبرها للوصول إلى أية معلومة في العالم. إنها حكاية نجاح مذهلة، ودرس في النجاح. فما الذي يقوله هذا الدرس؟

لسنا بحاجة إلى التوسع في الكثير من التفاصيل: فهناك طموح واضح في ذهن فرد لم يكترث للعقبات المادية، ورضي في سبيل تحقيق هذا الطموح بالعمل لسنة من دون راتب. وهناك «النَفَس الطويل» أي العمل لسنوات وسط اللامبالاة أولاً، ثم الانتقادات ثانياً. قبل انتزاع اعتراف الجميع بجدوى هذا العمل وقيمته. وهناك أيضاً ما قد يكون الأهم من كل ذلك في السنة العاشرة من عمر هذه الموسوعة، وهو احتضان الناس لها. يعبر عن ذلك هبوب نصف مليون شخص للتبرع لها، حفاظاً على استمراريتها.

الشيء بالشيء يذكر!

والآن... ماذا لو تطلعنا إلى واقع حال ثقافتنا العربية والإسلامية على شبكة الإنترنت؟

التذمر من فقر هذا المخزون المنشور إلكترونياً، لا يزال هو نفسه كما كان في السنوات الأولى لظهور شبكة الإنترنت. ولا يزال يتكرر على كل لسان، حتى أصبح مملاً. لا وقع له في النفس.

ويعود هزال الحضور الثقافي العربي على الإنترنت، مقارنة بغيره، في الأساس، إلى أنه ما من جهة عربية شحذت همتها لنشر التراث العربي بكل ما يختزنه من معارف وعلوم وفنون وآداب، بشكل منهجي كما فعلت الحكومات الغربية. وهذا ما يعرفه الجميع، ويعاني منه أي باحث عربي. ففي حين أن البحث مثلاً عن لوحات لفنان فرنسي من القرن السابع عشر، يوصل الباحث فوراً إلى كشف كامل بكل هذه اللوحات، فإن البحث عن سيرة رسام عربي معاصر، يتوه بالقارىء بين عشرات المواقع التي ورد فيها ذكره بشكل أو بآخر، وفي معظم الأحيان في مواقع منتديات هواة الحكي عن الفن والثقافة، ليس أكثر. الأمر نفسه ينطبق على أعمال كلاسيكية في الأدب والفكر العربي، لا وجود لها على شبكة الإنترنت، لا في صيغتها الأصلية الكاملة، ولا حتى مجرد ذكر لها، إذا لم تكن قد نشرت مجدداً في زمن صف الأحرف على الكمبيوتر، بحيث إن نشرها على الإنترنت لا يعود يكلف شيئاً.

ولكن أن تكون الجهات الرسمية العربية قد قصّرت في نشر التراث والمعارف العربية على شبكة الإنترنت، كما يطيب للبعض أن يردد، فإن ذلك لا يعني أنها وحدها تتحمل مسؤولية ذلك. فلماذا لم يظهر عندنا «جيمي ويلز» عربي بالهمّة نفسها والإصرار نفسه؟ خاصة وأنه ظهر فعلاً في الغرب، حيث لا تذمر من أي فقر في المخزون المعرفي على الإنترنت. في حين أن التذمر عندنا بقي تذمراً، ولم يتحول إلى مبادرة، أي مبادرة من شأنها أن تنتقل بالواقع إلى حال أفضل.

فالحكومات والجهات الرسمية إذن ليست وحدها مسؤولة عن هذا التقصير، بل هناك جزء من المسؤولية يقع فيه المثقفون أنفسهم، وخاصة أولئك الذين يزعمون أنفسهم «حاملي الهم الاجتماعي والثقافي العربي»، فلو صرف هؤلاء بعض الوقت الذي يصرفونه على التذمر لاتخاذ مبادرة تنفيذية تغني مخزون المعارف العربية على الإنترنت، لكان وضعنا أفضل بكثير مما هو عليه.

وأخيراً وليس آخراً، هناك شطر كبير من المسؤولية يقع على عاتق المجتمع بشكل عام، أي على الجمهور العريض الذي يقر بحاجته إلى الاطلاع على تراثه الثقافي والمعرفي بلغته، ولكنه في الوقت نفسه، لايبدو مستعداً لأن يحرك ساكناً في دعم أي مشروع يهدف إلى تلبية حاجته هذه، بخلاف نصف المليون شخص الذين احتضنوا ويكيبيديا، وبذلوا بعض مالهم الخاص في سبيل إنقاذها.

إن المسألة ليست مسألة كرم وبخل. ففي كل يوم تطالعنا الصحف بأخبار تبرعات سخية قدّمها، مشكورين، أناس ميسورون تلبية لنداءات إنسانية ملحة. وبإمكان الكثير من هؤلاء أن يحلوا أية مشكلة تتعلق بتمويل مشروع علمي ثقافي مثل ويكيبيديا وأكثر. ولكن العائق الحقيقي هو في مكان آخر.

العائق هو في توزع المسؤولية عن القضية التي نحن بصددها على أكثر من طرف: الجهات المسؤولة رسمياً عنها (جزئياً)، والمثقفون والباحثون (جزئياً) أيضاً. والمجتمع ككل (جزئياً كذلك).

فالمشكلة إذن هي مشكلة تكامل واشتراك في النظرة إلى أهمية إغناء المخزون المعرفي العربي على الشبكة، والارتفاع به، ليس بالضرورة إلى حد الكمال، بل إلى الحد اللائق على الأقل..

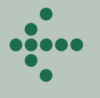
الخطر كل الخطر. هو في تراجع الإحساس بضغط الحاجة إلى التصرف والعمل. خاصة وأن ما ينشر على المواقع العربية باللغات الأجنبية عن التراث المعرفي العربي يتمتع بمستوى عالٍ من الجدية والقيمة، بحيث بات الكثير من الباحثين العرب يعتمدون عليه. والأدهى من كل ذلك، هو أن الموسوعة «ويكيبيديا» تترجم إلى العربية، رغم أن المترجم منها إلى العربية لا يزال حتى الآن فقيراً، مقارنة بالموقع الإنجليزي. ولكن تحسن محتوى «ويكيبيديا» العربية (وهي محكومة بالتحسن)، سيجعلها بوابتنا الرئيسة إلى معارفنا.. وماذا يمكننا أن نقول عندها..؟؟ 

من يشتري سمكاً في شباك إلكترونية؟

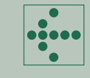








ثمة ما يثير الحيرة أمام شبكة الإنترنت. فبعضها يقدِّم لنا مجاناً كل ما جاء في صحف العالم، وبعضها يسمح لنا بتبادل الرسائل مجاناً، وبعضها الآخر يوفِّر مجال إجراء المكالمات دون المرور بالهاتف التقليدي وأيضاً.. مجاناً. وهذا ما كان يستحيل تخيله قبل أعوام قليلة. وكل هذه الخدمات تتطلب طواقم بشرية ضخمة وتقنيات مكلفة جداً، بما فيها الأقمار الصناعية اللازمة لذلك. فمن أين تأتي هذه المواقع بالأموال اللازمة لذلك؟ وبماذا يستفيد موقع «فيسبوك» مثلاً عندما يوفر لنا مجالاً للدردشة من بلد إلى آخر، ودون حدود، و..مجاناً. يوسف الديني يجيب: الإعلانات. والأرقام التي يوردها حول حجم صناعة الإعلانات على هذه المواقع مثيرة فعلاً للدهشة.



«لم تُبن روما في يوم وليلة»، كذلك الحال بالنسبة لاقتصاديات الإنترنت التـي ظلـت في بداياتها موضـع تشكيك ولمز من قبل أنصـار المدرسـة القديمة في الاقتصاد والأعمال والتسويق.

وعلـى امتـداد الفترة الزمنيـة الطويلة التي ترسـخت فيها بُنى الشـبكة العنكبوتية التحتية، مما جعلها تزداد انتشـاراً وتعقيـداً، كان «الحرس القديـم» ينظـرون إليهـا كفقاعة تتضـخم بوتيرة متسـارعة، وأخذ يقينهم يـزداد هو الآخر تضخماً بقرب انفجارها.

لكن الإنترنت كأحد تمثلات الحداثة وما بعدها، كانت تجد في موتها انبعاثاً بشكل مختلف ومغاير تماماً، ومن هنا ولد ما بات يعرف بـ «الجيل الثاني من الويب» الذي تميز بخصائص عديدة على مستوى السرعة، بسبب تحسن مستوى النطاقات العريضة وانخفاض التكلفة والتخفف من أعباء الضغط على الشبكة، وهذا ما زاد من حجم المستخدمين بشكل مطرد.

هناك شخصيات أدبية وفكرية وفنية عديدة كانت تتساءل حـول مسـتقبل الإنترنت، وحـدود هذا الهوس بـه، ومدى صـدقية الإعلان فيه؛ ومـا يُروى من أرقـام فلكية كأرباح لبعـض المواقع أو حتى لقيمتها السـوقية عنـد التقويم أو البيع.

ومـن الممكن تفهـم هذه التسـاؤلات لأنها تشـكك بالقيمة المادية وما تعنيه من قيمة سـوقية، ومداخيل، وأرباح، بناءً على النظـر إلى القيمـة الاعتبارية. بمعنـى: مدى ملاءمة محتوى الإنترنت للقيمة مقارنة بالمحتوى الجاد.

حتى على مستوى «المحتوى» القيمي، تطورت الإنترنت كثيراً من مجرد ملهاة عوالم افتراضية إلى أداة بحثية ومعرفية، وأسلوب معيشي مفتوح على كل المستويات. لكن تلك ليست قصتنا.. القصة هنا: كيف تربح مواقع الإنترنت، وظاهر مداخيلها لا يوحي به باطن ما تقدمه من خدمات مجانية في الأغلب؟

الإعلان في الشبكة العنكبوتية هو في النهاية شكل ترويجي يهدف إلى تقديم رسائل تسويقية لجذب زبائن جدد

وللإجابة عن مثل هذا السؤال، يجب أن نستدعي بكثير من التأمل، القاعدة التسويقية التي تؤكد أن نجاح أي مشروع إعلاني يعتمد على النموذج الذي يُبنى عليه. وكما نعلم فإن نموذج الأعمال في قطاع التقنية مبني على «الابتكار»، أو كما يقال عادة في التعبير الاقتصادي البسيط «تقديم اقتراحات للقيمة مقنعة وتنافسية بحيث لا تتوافر في مكان آخر».

تتغير القوالب.. والإعلانات واحدة

إذن الإعلان على الشبكة العنكبوتية هو في النهاية شكل ترويجي يهدف إلى تقديم رسائل تسويقية لجذب زبائن جُدد. من هنا، فإن تصفحك البريء لصفحة إنترنت تبدو لك فارغة من أي فواصل إعلانات مزعجة ومملة جعلتك تفر مكتئباً من التلفاز إلى شاشة الكمبيوتر، لا يعني سوى أنك انتقلت إلى مستوى آخر من الإعلان. فالزوايا الإعلانية (البانرز) التي تحيط برأس الصفحة وجوانبها وأسفلها، والوسائط التي تعمل في الخلفية، والدردشة مع أشخاص يقاسمونك الاهتمامات نفسها، والبريد الإلكتروني الذي لا تعلم حقيقة من أرسله لك، كلها أشكال ترويجية. دعك من هذا كله، مجرد نقرك المتواصل من الصفحة الرئيسة دخولاً في تفاصيل الصفحات الداخلية ثم في تفاصيل أخرى، وانتقالك أحياناً إلى مواقع أخرى، هي في النهاية أرقام مدفوعة الأجر. لأنها تعني الكثير لمالك الموقع الذي سيذهب مملوءاً بالفخر والإنجاز إلى المعلن ليقدِّم عدد زوار الموقع، وتفاصيل دخولهم، وكل المعلومات البيوغرافية عنهم.

كانت البداية لظهور الإنترنت كمنافس إعلاني مع شركة «Hotwired» عام 1994م، حين حققت الشركة أرباحاً تُعد ضئيلة إذا ما قورنت بالعوائد التي تجنيها شركات رائدة في هذا المجال. وإن كانت الخلفية التي مهدت لظهور الربحية من الإعلان على شبكة الإنترنت بدأت مبكراً مع ظهور خاصية «الوصلة» (Links) بمواقع أخرى مثل شركة «AT&T» التي وضعت على موقعها وصلة ربط للموقع، مقابل قيام هذا الموقع بوضع نقطة ربط بموقع «GNN».

منذ ذلك الوقت، كرت سبحة الإعلانات التي تستهدف شريحة مستخدمي الإنترنت. وراحت الشركات الكبرى تتنافس على وضع إعلاناتها على الشبكة. وعلى سبيل المثال دفعت AT&T وHotwired مبلغ عشرة آلاف دولار شهرياً عام 1997م، مقابل كل وصلة (link) يتم وضعها على الموقع. بينما بلغت تكلفة تثبيت «بانار» دعائي على موقع ياهو في العام نفسه مائة ألف دولار شهرياً.

المقارنة لصالح الإنترنت

وإذا كنت منحازاً للإعلان التقليدي، أو غير مؤمن بجدوى مثل هذه الإعلانات، بمعنى آخر؛ إن كنت من أنصار المدرسة الكلاسيكية في الإعلان، فربما من المفيد أن تفكر في خصائص الإعلان على الإنترنت.

وبمقارنة بسيطة، يظهر امتياز الإعلان على الشبكة عن نظيره في وسائل الإعلام التقليدي الأخرى، مثل الصحف والمجلات والتلفزيون والراديو، بعدد من الخصائص الجوهرية، تتصل في كثير منها بطبيعة الإعلان وهوية المعلن، وحتى لغة الإعلان، وطريقة بقائه في الذاكرة عبر حيل نفسية عديدة. وأهم هذه الخصائص هي:

تستطيع أن تعلن في الإنترنت ويبقى إعلانك متاحاً للشريحة المستهدفة طيلة الوقت خلال 365 يوماً في السنة، في أي مكان في الكرة الأرضية موصول بالشبكة، وبالتكلفة نفسها مهما كان المستخدم. وفي أحيان كثيرة، تكون مثل هذه التكلفة أقل بكثير من تكلفة صفحة في مجلة شهيرة أو إعلان مصور خاطف للأنفاس في وقت الذروة لمحطة تلفزيونية، ذات حضور متوسط على مستوى الجغرافيا، وعدد المشاهدين.

وفي الإعلان التقليدي أنت مستهدف ومتلق فقط. بينما في إعلان الإنترنت أنت فاعل.. تستطيع أن تناقش وتنافس وتتفاعل مباشرة مع الجهة المعلنة. كما أنه


corbis

العالم وأخباره في متناول اليد.. مجاناً!

يمكنك أن تبقى مستهدفاً بالمنتجات الموجهة إلى اهتماماتك.

وفي إعلان الإنترنت، على عكس الإعلان التقليدي، لا يتوقف قرار الشراء على خطوة لاحقة تقدم عليها بعد حين. فتبرد همتك، أو تغيِّر رأيك، بل أنت قادر على الشبكة أن تذهب بقرارك إلى أقصاه، فتشتري السلعة فوراً، وتتابع مراحل انتقالها إلى أن تصلك. كما يمكنك أن تسأل وتناقش أثناء ذلك مخاوفك أو رغباتك في المنتج. فخدمات ما بعد البيع عادة ما تكون متاحة وبشكل سلس ومرن.

وكمعلن، تستطيع أنت أن تغيِّر إعلانك في أي وقت، أو أن تضيف إليه حزمة طويلة من الإمكانات التي توفِّرها التصاميم الإبداعية، وأن تستغل قدرة الوسائط المتعددة الفائقة على التجدد والإبهار. كما أنك في شريحة الإنترنت ستوفر الكثير من تكاليف دراسة العملاء، إذ إنك تفترض عادة مجموعة من العلامات الدالة لكل عميل بإمكانه استخدام الإنترنت بشكل جيد.

أبرز المزايا في الإعلان على الشبكة

يوفِّر الإعلان في الشبكة العنكبوتية العديد من المزايا منها:

- التواصل المباشر بين المعلن والمستهلك.
- المرونة في توصيل الرسالة الإعلانية بأسلوب مبتكر.
- وجود الإعلان بصفة متكررة ودائمة أمام أعين المستخدمين.
- القدرة على إيصال معلومات أكثر عن مادة الإعلان (السلعة)، وإجراء استطلاعات للرأي حولها.
- إتاحة الفرصة للمعلن لمعرفة مدى فاعلية الإعلان من خلال التقارير الإحصائية بشكل دقيق، مثل عدد المشاهدين الذين اطلعوا عليه، وهذا ما يصعب احتسابه بدقة في التلفزيون، أو في الدوريات المطبوعة.
- تتيح تقنيات التصميم وضع الإعلان بأشكال متغيرة، وإضافة الكثير من المؤثرات إليه، مثل الفلاش والصور المتحركة.
- إمكانية تحديد الفئة المستهدفة من الحملة الإعلانية حسب الدولة، والمدينة، والجنس، والعمر، والمهنة، ومستوى التعليم، والحالة الاجتماعية.

أما الدافع الأكبر للمعلنين على شبكة الإنترنت فهو أن الشريحة المستهدفة تأتي للبحث عن محتوى محدد، وغالباً في اللحظة النفسية الأكثر ملاءمة لعرض المنتج عليه. هذا المنتج الذي يصل إليه في قالب صمم خصيصاً له.



الإعلان على شاشة الكمبيوتر يطال ما لا تطاله وسائل الإعلان الأخرى

وحتى لا تبدو الأمور حالمة، فإن ثمة عيوباً أساسية تتصل بطبيعة الإعلان على الإنترنت، لكنها في طريقها إلى التلاشي بحكم تطور المجال ودخول شرائح جديدة باستمرار إلى السوق. من تلك المخاطر والصعوبات افتقار الكثير من الشركات إلى دراسة دقيقة لحجم السوق، وملاءمته لكثير من المنتجات. كما أن الإقبال على الإعلانات المباشرة ما زال ضعيفاً، مما حدا بالمطورين إلى إعادة النظر في طبيعة شكل الإعلان، وتطوير محتوى شبه تلفزيوني يعتمد على التأثير البصري، ومحاولة منافسته في تقديم بدائل خاصة، انطلاقاً من أن الشريحة الكبرى ما زالت تقضي ساعات أطول أمام الشاشة الفضية، وتفهم لغتها الأليفة جداً.

الإعلانات بالبلايين

إن سوق الإعلانات على الإنترنت واعدة جداً. فعلى سبيل المثال، احتوى موقع «فايسبوك» على ما يقارب 1 تريليون إعلان في العام الماضي. إذ بلغ عدد الإعلانات المعروضة على هذا الموقع خلال الربع الثالث من هذا العام الفائت، حوالي 297 بليون إعلان، أي ما يمثل 23.1% من إجمالي سوق الإعلانات العالمي على الإنترنت.

ويلي «فيسبوك» موقع «ياهو» حيث بلغ عدد الإعلانات المعروضة عليه حوالي 141 بليون إعلان، أي حوالي 11% من إجمالي سوق الإعلانات. وحلت «مايكروسوفت» في المركز الثالث، حيث بلغ عدد الإعلانات المعروضة على موقعها حوالي 64 بليون إعلان، وهو ما يعادل 5% من إجمالي هذا السوق. بينما أتت «فوكس» في المركز الرابع بحوالي 48 بليون إعلان، أي بنسبة 3.8% فقط.

أما «جوجل»، المنافس الأشرس، فاحتل المركز الخامس بنحو 35 بليون إعلان وحوالي 2.5% من إجمالي سوق الإعلانات.

عربياً، لا يزال الإعلان على الإنترنت يخطو ببطء شديد، ويؤكد الخبراء أن هذا يعود إلى قلة المحتوى العربي الجيد، وعدم وجود معلومات كافية عن الشرائح المستهدفة. إلا أن هناك تجارب كثيرة ناجحة تشي بمستقبل أفضل. ونحن نعلم، مؤخراً، شراء «ياهو» لشبكة «مكتوب» بالكامل. في صفقة ضخمة تجاوزت المائة مليون دولار. ولا بد للمشتري من عمل يرد إليه ما دفعه.. مضاعفاً على الأرجح.

«الومضة»
هل اللاوعي أدق من حسابات الوعي؟



النقاد الذين قرأوا هذا الكتاب، توقَّعوا أن مصدراً لتعبيرين جديدين سيدخلان على لغة علم النفس وأيضاً علم الدماغ، خاصة وأن مؤلفه «مالكوم غلادويل» هو نفسه مؤلف كتاب «نقطة الانحراف» الذي صدر عام 2000م، وتحوَّل لاحقاً عنوان كتابه ذاك إلى تعبير متداول على المستوى العام للإشارة إلى اللحظة التي تلتقط فيها عامة الناس فكرة أو مفهوماً أو منتجاً وتتبناه ويروِّج في صفوفها.

كتاب غلادويل الجديد هو بعنوان «الومضة»، وهو حول الخاطرة الفورية. ويتضمن تحليلاً عميقاً للآليات التي تقود الإنسان إلى اتخاذ قرار فوري. ويمكن القول إنه كتاب علمي مبسط للعامة حول دور اللاوعي في اتخاذ القرارات الفورية.

وما قد يفاجئ القارئ، هو أن المؤلف يذهب عكس المفهوم التقليدي والموروث الذي يدعو إلى التأني في اتخاذ القرارات، كما تعبِّر عن ذلك أمثال وحِكم شعبية في كل ثقافات العالم.

أمثلة من كل صوب

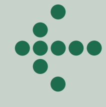
يدور هذا الكتاب حول جانب من علم النفس، لم يكتب فيه الكثير بلغة تفهمها عامة الناس. ولهذا، وجدنا المؤلف، وخاصة في الفصول الأربعة الأولى يناقش أمثلة مستمدة من كافة الأزمنة، وأيضاً، من كافة جوانب الحياة، فنجد ضمن هذه الأمثلة: الزواج، وفن النحت اليوناني القديم، وفك الشيفرة خلال الحرب العالمية الثانية، وأفضل باعة السيارات في إحدى الولايات الأمريكية، والممثل توم هانكس، والأخطاء الطبية، وكيفية الحكم على شخص ما من خلال نظرة إلى غرفة نومه.

ومن أكثر الأمثلة المعبِّرة عن موضوع الكتاب، قصة يوردها المؤلف في الصفحات الأولى، وتدور حول بحث أجري حول إحدى المنحوتات الفنية لمعرفة ما إذا كانت أصلية أم مزوَّرة. فثمة مجموعة من الخبراء أعطيت الوقت الكافي لفحص هذه المنحوتة والتمعن فيها ملياً، خلصت إلى أن هذه المنحوتة أصلية. ولكن مجموعة ثانية من الخبراء أصرت على أنها مزيفة بعد إلقاء نظرة خاطفة عليها، وتوصلت إلى قرارها هذا «بومضة عين». والمدهش هو أن المجموعة الثانية كانت على صواب.

ومن هنا تطرح الأسئلة التي يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عنها: كيف عرفت المجموعة الثانية الحقيقة فوراً؟ ولماذا أخطأت المجموعة الأولى؟ هل هناك مخاطر في الإسهاب في التحليل؟ هل يلعب وميض العين (أو ما يسميه البعض طرفة عين أو رمش العين) دوراً في التوصل إلى الحقائق واتخاذ القرار الصائب بشأنها؟

أمام مخاطر لا تمهل

للإجابة عن هذه الأسئلة، لا يكتفي المؤلف بالإشارة إلى الكم الضخم من القرارات التي نتخذها في حياتنا كل يوم، والتي تشكل حتى في الصغيرة منها، فرقاً بين الحياة والموت، وبين الحرية والسجن، وصولاً إلى



من الرف الآخر.. اقرأ

الفرق بين الحرب والسلام في القرارات الكبرى التي يتخذها الكبار. بل يسهب في تحليل قصص محددة جرت على أرض الواقع، ولعب فيها التفكير الفوري دوراً بالغ الأهمية.

ومن هذه القصص، واحدة تدور حول إطفائي في ولاية كليفلاند الأمريكية استجاب لنداء إغاثة روتينية بسبب حريق اندلع في منزل من طابقين في حي سكني، وكانت النيران قد اشتعلت في المطبخ. اتجه الإطفائي والفريق العامل معه إلى المكان، وكسر الباب وبدأ برش المياه من الخراطيم على النار التي كانت من المفترض أن تنطفئ. ولكن النار لم تخمد.

و«برمشة عين» أمر الإطفائي رجاله بإخلاء المكان فوراً. وبعد لحظات من خروجهم من المنزل، انهارت الأرضية التي كانوا يقفون عليها. فقد كان مصدر النيران الطابق السفلي تحت المطبخ وليس المطبخ نفسه كما بدا أولاً. وعندما سئل الإطفائي كيف عرف بوجوب إخلاء المكان بهذه السرعة، لم يستطع إعطاء تفسير لذلك. ولكنه لاحقاً، احتاج إلى ساعتين ليشرح أسباب قراره، ومنها على سبيل المثال أن النار لم تتجاوب مع ما كان يفعله فريق الإطفائيين، كما أنها كانت حامية إلى درجة غير اعتيادية في حرائق مشابهة، وأيضاً كان هناك هدوء ملحوظ، بينما كان من المفترض أن يكون المكان المشتعل أكثر صخباً.

وتذكرنا هذه القصة بقصة مشابهة نعرف فصولها وجرت في وقت لاحق لصدور الكتاب، وهي قصة الطيار الأمريكي الذي حطَّ بطائرته على نهر الهدسون في مدينة نيويورك، بعد أن تعطل محرِّكا الطائرة نتيجة اصطدامها بسرب طيور كان في أجواء المدينة. فكل كلمات الثناء التي ألقيت خلال تكريم الرجل لإنقاذه الطائرة وركابها امتدحت «سرعة بديهته» التي لخصها هو بالقول: «عرفت فوراً أني كنت أطير على مستوى منخفض وببطء بشكل يجعل العودة إلى المطار مستحيلة، فقررت الهبوط على النهر..».

ويجري الكاتب مقارنة بين الأداء المتفوق في مجال تشخيص الآلام الصدرية في أحد مستشفيات شيكاغو بأداء غيره من المستشفيات، ويرده إلى التوجيهات التي أصدرها المستشفى بخصوص الطريقة التي يجب أن يتم بها تشخيص أسباب الأوجاع الصدرية، والقاضية بالاكتفاء بمعلومات أقل من المريض مما تطلبه باقي المستشفيات، والتركيز على المؤشرات الأساسية فقط مثل ضغط الدم وتخطيط القلب فقط. ومن خلال هذا التبسيط أصبح هذا المستشفى الأول في أمريكا على مستوى صحة تشخيص الآلام الصدرية.

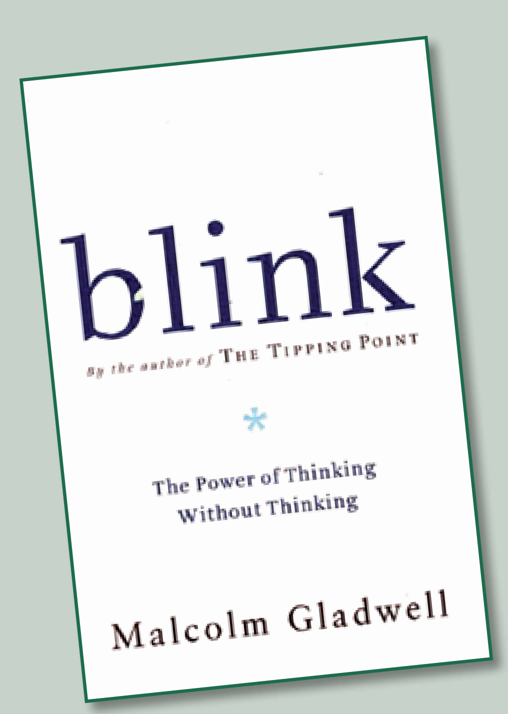
التقطيع بوميض العين

يقول المؤلف إن اتخاذ القرارات الفورية الصائبة يعود إلى طريقة معقدة يعمل بها الدماغ في الجهة اللاوعية بالنسبة إلينا. فعندما نرمش بعيوننا أمام أمر يتطلب منا اتخاذ موقف منه، يقوم العقل بتقطيع المشهد إلى مجموعة متلاحقة من الصور، كل واحدة منها تحمل جانباً من حقيقة الأمر الذي نقف أمامه. وأحياناً تكون الومضة الواحدة كافية لأن ترسل إلى الدماغ صورة كاملة عن حقيقة ما نواجهه. وتترك الدماغ يعطي الجواب الملائم.

ويستند غلادويل في ثقته بجواب الدماغ، على أمر معروف في علم النفس منذ زمن طويل. فقد طور الإنسان خلال آلاف السنين، وأيضاً خلال حياة الفرد مجموعة من المعايير والمفاهيم وخزنها في لا وعيه. فخبراء فن النحت مثلاً، يخزنون في عقولهم مقاييس المنحوتات الأصلية ومواصفاتها، ولذا، يمكنهم أن يقولوا فوراً إن هذه المنحوتة أصلية أم لا. في حين أن التحليلات المخبرية يمكنها أن تنخدع إذا ما كانت قد أضيفت إلى هذه المنحوتة عناصر كيميائية مثل تلك التي تتراكم عليها بفعل الزمن، وهذا ما يفعله الكثيرون من مزيفي الفنون.

الومضة في ذهن المؤلف

في أحد الحوارات الصحافية معه، قال غلادويل إن ما دفعه إلى البحث في هذا النوع من التفكير، كان ما عايشه هو شخصياً. فيروي أنه بعد صدور كتابه الأول، قرر التخلي عن المظهر التقليدي والوقور،



وترك شعر رأسه يطول. فكانت النتيجة أن علاقة العالم به تغيرت. حتى إنه طورد ذات مرة من قبل سيارة شرطة أوقفته للتحقيق معه لأنها اشتبهت بكون هيئته «مطابقة» لرسم تقريبي لأحد المجرمين الذين تبحث عنهم. وخلال استجوابه استطاع غلادويل أن يُقنع الشرطة ألاَّ شيء مشترك ما بين مظهره ومظهر المجرم المطلوب غير الشعر. وأقرت الشرطة بصحة ذلك.

وفي تحليله لهذه الحادثة، يقول غلادويل إن مروره بالسيارة من أمام الشرطة، كان كافياً لإثارة شبهة عناصرها، الذين ربطوا ما بين شعره وشعر المجرم كما هو مرسوم في الصورة. وبإسقاط هذه الملاحظة على الأوضاع الاجتماعية بشكل عام، يقول إن الزنوج في أمريكا يتعرَّضون لمثل هذه المضايقات أكثر بكثير من غيرهم، بسبب الدور الذي تلعبه «رمشة العين» والفكر التقطيعي، من خلال ما تكدس من صور في اللاوعي. ولكن عندما تكون الصور المتكدسة في اللاوعي سليمة، ومبنية على الخبرة والدراسة والتجارب السابقة، يمكنها أن تصدر فوراً الحكم الصائب.

مفردتان برسم اللغة الجديدة

«الومضة» و«الفكر التقطيعي» هما التعبيران اللذان يرجِّح النقاد دخولهما إلى لغة العامة، نتيجة بحث دورهما بهذا الإسهاب في كتاب غلادويل، مهما تحفظ البعض على منحاه العام.

والمتحفظون ليسوا قلائل. فمعظم المجتمعات لا تزال تمتدح «التمهل في التفكير»، وتنصح بـ «النظر قبل القفز»، وترى «أن في العجلة الندامة». في حين أن غلادويل يرى أن عالماً تصدر فيه الأحكام الفورية بالاعتماد على التقطيع السريع، «هو عالم أفضل»، خاصة بسبب غِنى العقل في زمننا بالمعلومات الصحيحة التي تتكدس فيه بشكل غير مسبوق في التاريخ نتيجة ثورة الاتصالات وشبكات المعلومات، وتمنحه فرصاً أكبر ليصدر الحكم الصائب بومضة عين.

مهى قمر الدين



بنوك البذور

حصون تحمي كنوز الحياة

كان العام الماضي 2010 سنة دولية للتنوع البيولوجي حسبما أعلنت الأمم المتحدة التي دعت العالم إلى حماية تنوع الكائنات الحية على الأرض، الذي أصبح مهدداً بفعل مخاطر الانقراض التي تهدد بعض مكوناته.

وبعيداً عما حمله العام الماضي من دراسات ونتائج أبحاث وإنذارات حظيت في وقتها بالتغطية الإعلامية اللازمة، عماد حسن يأخذنا اليوم إلى زاوية شبه مجهولة من زوايا قضية التنوع البيولوجي «بنوك البذور»، حيث تودع أهم أرصدة الحياة، وتحفظ إلى وقت الحاجة.

corbis



يقـول موقع السنة الدوليـة للتنوع البيولوجي مرحِّباً بزواره: «مرحباً بـك فـي السـنة الدوليـة للتنـوع البيولوجـي. أنـت جـزء لا يتجـزأ من الطبيعـة؛ إن مصيـرك بيـد الله، ويرتبـط بشدة بالتنـوع البيولوجي.. التنـوع العظيـم للحيوانـات والنباتـات الأخـرى والأماكن التـي تعيش فيهـا والبيئـات التي تحيط بهم في شتى أرجاء العالم. إنك تعتمد على هـذا التنـوع للحياة لأنـه يُمدُّك بالغـذاء والـدواء والأساسيات الأخرى التي، ببساطة، لا يمكنك العيش دونها. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا التنـوع الغنـي يتعرض للفقدان بمعدل متسارع علـى نحو خطر بسبب أوجـه النشـاط البشرية. وهذا بدوره يؤدي إلى فقرنا جميعاً، ويُضعف قـدرة الأنظمـة الحيـة التـي نعتمـد عليهـا، علـى مقاومـة التهديـدات الخطرة...».

التنوع الحيوي أو البيولوجي ومستوياته المختلفة

التنوع الحيـوى مصطلح جمعي يُطلق علـى تنوع الحياة على الأرض والأنماط الطبيعية التي تُشَكِّلها. وهذا التنوع الـذي نراه في يومنا هذا ما هو إلا ثمرة ملايين السنين مـن التطـور، والذي تشـكل نتيجـة العوامـل الطبيعية، والتأثيـر الحاصـل بفعـل البشر. إنـه يُشـكل شبكة من الحيـاة التي نمثل نحن جزءاً منها ونعتمد بصورة كاملة عليهـا. ويشمل التنـوع الحيـوي مجمل أنـواع الكائنات الحيـة على الأرض. ويتم توصيف التنـوع الحيوى عادة على ثلاثـة مستويات تشمـل الأنواع والجينـات والنظم البيئية.

غالباً مـا يُفهم مصطلـح التنوع من منطلق التنـوع الواسع للنباتـات والحيوانـات والكائنات الدقيقـة (الميكروبات). وحتـى وقتنا هذا، تم التعرف علـى حوالي 1.75 مليون نوع، أغلبهـا مـن المخلوقـات صغيـرة الحجم مثـل الحشرات. ويُقَـدِّر العلماء أن هناك عملياً ما يقرب من 13 مليون نوع، فـي حيـن أن بعض التقديرات الأخرى تـراوح بين 3 و100 مليون.

ويتضمن التنوع البيولوجي أيضاً الاختلافات الجينية داخل كل نـوع. فالكروموسومـات، والجينـات، والحمض النووي، وهـي اللبنات الأساسيـة للحياة، تُحدد تفـرُّد كل كائن حي على حدة.

ويبقى مظهـر آخر من مظاهر التنـوع البيولوجي، ألا وهو تنـوع الأنظمة البيئية مثـل تلك الموجودة فـي الصحارى والغابـات والأراضي الرطبة والجبـال والبحيرات والأنهار و المسطحـات الزراعيـة. وفـي كل نظـام بيئـي، تُكَـوِّن المخلوقـات الحيـة، بمـا فيها البشـر، مجتمعـاً يخصها، تتفاعـل فيما بينها كما تتفاعل مع ما يحيط بها من الهواء والماء والتربة.

وفى الحقيقة، يُعد فقـدان التنوع الحيوي للأنواع النباتية والحيوانيـة أحد المخاوف البيئية الرئيسـة، لتعلقه بعدد كبير من السلع والخدمات. فقد كنا نطور على مدار آلاف السنين مجموعة كبيرة من النباتات والحيوانات الداجنة المهمـة فـي التغذيـة. لكن هـذا البيـت المليء بالكنوز بدأ يتضـاءل نظـراً لأن الزراعة التجاريـة الحديثة تهتم بصـورة متنامية بمجموعـة قليلة نسبياً مـن المحاصيل. كما أن حوالي 30 فـي المئة من سلالات الأنواع الأساسية لحيوانـات المزرعـة تتعرض حاليـاً لخطـر الانقراض المحـدق بصـورة كبيرة، طبقـاً لما جاء فـى موقع السنة الدولية للتنوع البيولوجى.

إن الزراعـة تعتمـد علـى عـدد محـدود مـن المحاصيل لاتتجـاوز المائـة والخمسيـن محصـولاً التي تـزرع على مساحات كبيرة على مستوى العالم. ولكن، كما هو معروف، فإن هذه المحاصيل تأتي فـي مجموعة واسعة من أشكال مختلفـة من حيـث ارتفاع النبـات، ولون الأزهـار، ونمط التفرع، وموسم الإثمار، وحجـم البذور، والنكهة. وهناك أيضـاً اختلافـات فـي بعض الخصائص الأقـل وضوحاً

مثـل استجابتها للحرارة وللبـرودة أو الجفاف، أو قدرتها علـى تحمل آفـات وأمراض معينـة، وهذا مـا يطلق عليه «التنوع الوراثي».

ويعـود التنوع في المحاصيـل إلى ظروف النمـو المختلفة. فالمحاصيـل المزروعة فـي التربة الفقيرة عـادة ما تكون أقصر من المحاصيل المزروعة فى التربة الخصبة.

ويمكـن أن يعـود التنـوع أيضاً إلـى الاختلافـات الوراثية. فبعـض المحاصيل قد تحمل الجينات التي تمنحها النضج المبكـر أو مقاومـة المرض. وهـذه الصفـات الموروثـة تحظـى باهتمام خاص حيث يتم نقلها مـن جيل إلى جيل، وبالتالي تحـدد الخصائص الكلية للمحصـول والمحتملة فـي المستقبـل. فمن خلال الجمـع بين جينـات الصفات المختلفـة، يتمكـن المـزارع من تطويـر أصنـاف جديدة من المحاصيـل لتلبية حاجات معينـة. فالصنف الجديد، علـى سبيل المثال، قد يكون ذا إنتـاج أعلى، وأكثر مقاومة للأمراض وله عمر أطول حين العرض للبيع من الأصناف التي تولد منها.

وبهـذا، فإن تنـوع المحاصيل هو الأصـل، والقاعدة لكل أنـواع الزراعات التـي جربها الإنسان علـى هذه الأرض منـذ بداية الزراعـة. وعلـى المزارعين والعلمـاء اليوم الاستمـرار في الحفـاظ على هذا المـورد الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

قمة الأرض ....الاتفاق التاريخي

بـدأ الاهتمـام الفعلـي العالمـي والالتفـات إلـى أهمية الحفـاظ على التنـوع البيولوجـي وتوثيقه دولياً منذ أن انعقد في عام 1992م أكبر اجتماع دائم لقادة العالم في مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية في «ريودي جانيـرو» بالبرازيل. حيث تم التوقيـع على مجموعة من الاتفاقـات التاريخية فـي «قمة الأرض»، والتي تضمنَّت اتفاقيتيـن مُلزمتيـن: اتفاقية «تغير المنـاخ» المعروفة، واتفاقيـة «التنـوع البيولوجي»، وهـي أول اتفاقية عالمية معنية بالمحافظة على التنوع الحيوي والاستفادة الدائمة منـه. وحظيت هـذه الاتفاقيـة بموافقة عاجلـة وسريعة الانتشار. حيث قامت أكثر من 150 حكومة بالتوقيع على وثيقة مؤتمر ريو، ومنذ ذلك الوقت صدقت على الاتفاقية أكثر من 187 دولة.

تجـدر الإشـارة إلـى أن الاتفاقيـة تحمل فـي طياتها ثلاثة أهداف رئيسة:

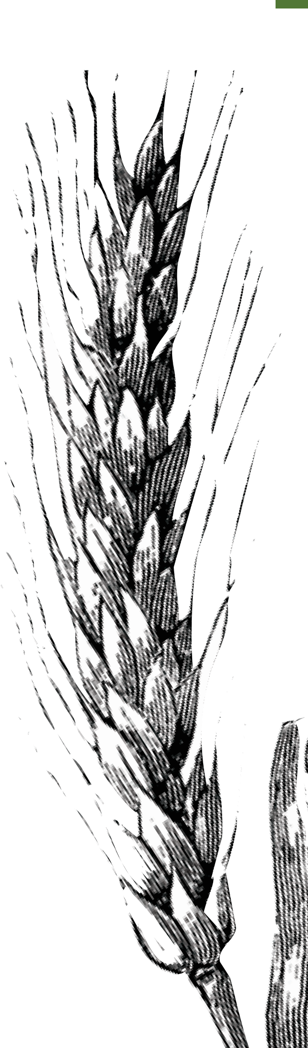
أولهـا المحافظة علـى التنـوع البيولوجي. ثـم الاستخدام أو الاستفـادة المستدامـة لمكونات التنـوع البيولوجي. أما الهـدف الثالث فهـو المشاركة فـي المنافع التـي تنشأ عن الانتفـاع التجاري وأي انتفاع آخر للمـوارد الجينية بطريقة عادلة ومنصفة.

الاتفاقيـة شاملـة في أهدافهـا، كما أنها تتعامـل مع قضية حيويـة للغايـة في مستقبـل البشريـة، وذلـك بكونها تقف صامـدة كأحـد المعالـم الرئيسة في القانـون الدولي. كما أنها تدرك -مـن الوهلة الأولـى- أن المحافظة على التنوع البيولوجـي هو «شـأن مشترك للجنس البشـري» وأنه جزء متكامـل مـن عملية التنميـة. هـذا إضافة إلـى أنها تغطي كل الأنظمـة البيئيـة والأنـواع والمـوارد الجينيـة. وتربـط المجهـودات التقليديـة للمحافظـة على التنـوع البيولوجي بالهدف الاقتصادي لاستعمـال الموارد البيولوجية بصورة مستدامة.

أربعة أنواع فقط تلبي 60 في المئة من الحاجة

ازدادت المـوارد الوراثية النباتية في العالم عما كان عليه الحـال عندمـا لاحـظ الإنسـان البدائي الـذي عاش من الصيد وجمع الثمار منذ نحو من 12 ألف سنة، أن بإمكانه أن يحفـظ البذور من فصل إلـى آخر ليزرعها ثانية. فقد تعلَّـم المزارعـون كيف يحفظـون بـذور المحاصيل التي اعتبـروا أنهـا أيسر تجهيـزاً وحفظاً، أو تلـك التي فهموا أنهـا الأرجح حظاً فـي البقاء عبر المواسـم، أو تلك التي طاب لهم طعمها ببساطة. و نتيجة لذلك، يزيد عدد أنواع النباتـات التي يزرعها الإنسان أو يجمعهـا غذاءً له، على السبعة آلاف نوع. وكثير مـن هذه الأنواع يحتفظ بأهميته في المجتمعات المحلية.

ويقـدر أن 30 محصولاً غذائياً يوفِّـر للإنسان اليوم 95 في المئـة من حاجاته مـن الطاقـة الغذائيـة، وأن أربعة منها فقـط، هي الأرز والقمح والـذرة والبطاطس، توفر أكثر من 60 في المئة من هذه الاحتياجات. ونظراً لأهمية هذا العدد الصغيـر نسبيـاً من المحاصيـل للأمن الغذائـي العالمي، أصبـح صون التنوع ضمـن كل من المحاصيـل الرئيسة ذا أهميـة محورية عملية. وبينما يُعـد عدد أنواع النباتات التي



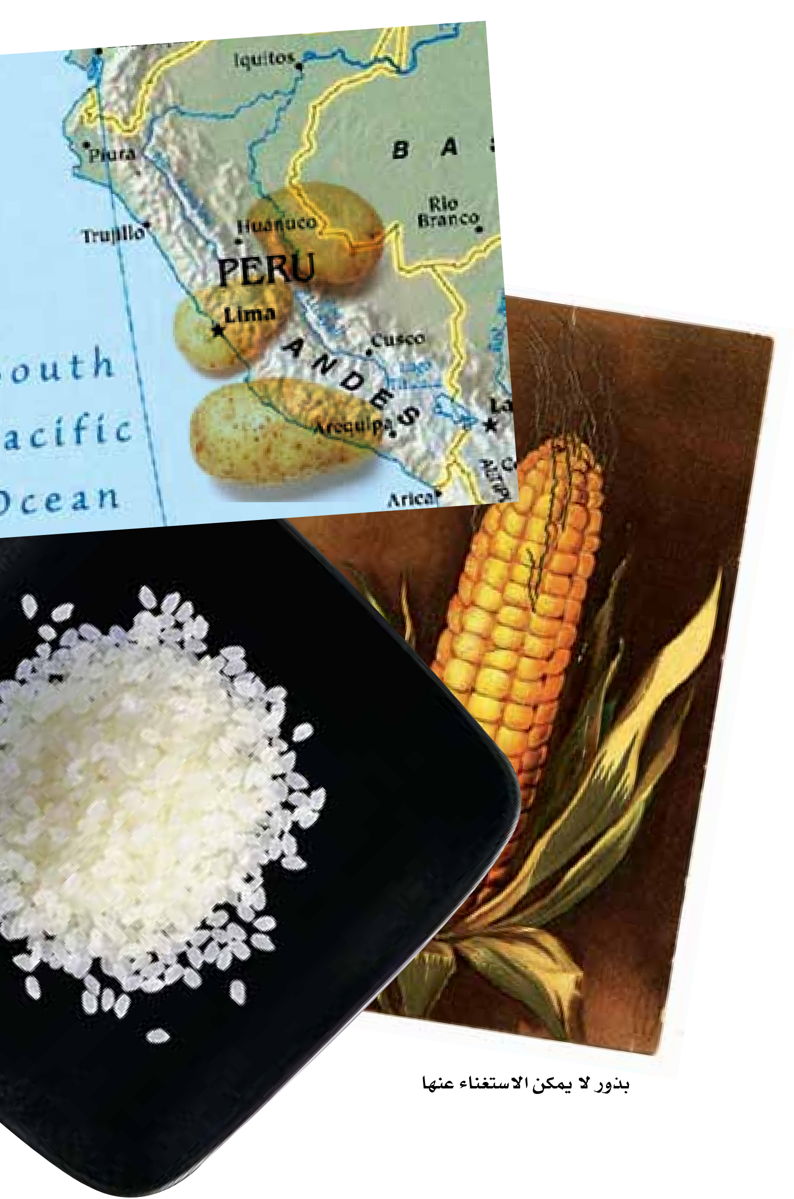
توفـر معظـم الطاقة والبروتين فـي العالم صغيـراً نسبياً، فـإن التنـوع ضمن كل من هـذه الأنواع كثيراً مـا يكون على درجـة كبرى من الغزارة. من ذلك مثـلاً أن عدد الأصناف المختلفـة من نوع الأرز يزيد ،علـى 100,000 صنف. وتزرع المجتمعات المحلية في جبـال الأنديز أكثر من 175 صنفاً مـن أصناف البطاطس التـي تحمل أسماءً محليـة. وهذا التنوع ضمن كل نوع هو الذي يمكّـن مـن زراعـة المحاصيل فـي مناطق العالـم المختلفـة، وفـي ظـروف متباينـة من حيـث نوعية التربـة والظـروف الجوية المحيطة.

التنوع الوراثي النباتي مهدد بما يسمى «الاستنزاف الوراثي» وهو مصطلح وضعه العلماء للتعبير عن فقدان المورثات الفردية

كمـا يمكن للتنـوع الوراثي النباتـي أن يوفِّر سمـات عاليـة القيمـة لازمـة لتحديـات المستقبـل، مثـل تكيـف المحاصيل لتتعايـش مع الظروف المناخية المتغيرة أو لتحمل تفشي الأمراض. وهناك صنف من القمـح التركي الذي جمع وحفـظ مخزوناً عام 1948م وأهمل حتى الثمانينيات من القرن العشرين عندما اكتُشف أنـه يحمـل جينـات تقاوم كثيـراً مـن الفطريـات المسببة للأمراض. ويستخـدم المزارعـون اليـوم هـذه الجينات لتهجيـن أصناف من القمح تقـاوم مجموعة من الأمراض. ويمكـن للنباتـات البريـة القريبة من محاصيلنـا الزراعية -والتـي كثيراً ما توجد على هامشـ الأراضي الزراعية- أن تتضمن جينات تجعلها قادرة على البقاء تحت ظروف جوية متغيـرة. ويمكـن أن تضيف هذه الخصائـص سمات مهمة لأقاربها المزروعة، من قبيل القدرة على التحمل أو مقاومة الصقيع.

الاستنزاف الوراثي.. حلول الجديد محل القديم

ولكن التنوع الوراثي النباتـي مهدد بما يسمى «الاستنزاف الوراثـي»، وهو مصطلح وضعه العلمـاء للتعبير عن فقدان المورثـات الفردية وكذلـك مجموعات المورثـات. ويكمن السبب الرئيس في الاستنزاف الوراثي، في الاستعاضة عن الأصنـاف القديمة في حقول المزارعين بأصناف جديدة، لأن المورثـات الموجـودة فـي الأصنـاف القديمـة ليست موجـودة جميعهـا في الأصنـاف الحديثـة. إضافة لذلك، كثيـراً ما تحدّ الأصناف التجاريـة عندما تدخل في النظم الزراعية التقليدية مـن العدد الكبير للأصناف التي كانت شائعـة الاستخـدام. ومن الأسبـاب الأخـرى للاستنزاف الوراثي ظهور آفات أو أعشـاب طفيلية أو أمراض جديدة، وتدهور البيئـة، والتصحر، وإزالة الأشجـار إما من خلال عمليات إزالة الغابات أو من جراء الحرائق.



بذور لا يمكن الاستغناء عنها

وقد تركَّزت الطرق التقليدية لمكافحة الاستنزاف الوراثي علـى صون البذور في بنـوك للمورثات تختص بالمحاصيل (خـارج مواقعهـا الطبيعيـة). أما اليـوم، فقـد اتضح أن الاستراتيجيـة الأفضل تجمـع بين الصون خـارج المواقع الطبيعيـة والصون على الأرض (في المواقـع الطبيعية) مـن خلال ما يقوم به المزارعون فـي إطار نظمهم البيئية الزراعيـة، أو فـي المنـاطـق المحميـة من خـلال الأقارب البريـة للمحاصيـل، وذلـك للأثـر البيئي الإيجابـي لهذه الطريقة.

وبينما تمثل هذه الطرق في حفظ التنوع الوراثي النباتي أهمية حيوية، فإن الاستخدام المستدام للموارد الوراثية النباتية له أهمية مماثلة. فالتنوع الوراثي النباتي يزيد من الخيارات المتاحة ويوفِّر التأمين ضد سوء الأحوال في المستقبل. لكن استغلال هذه الإمكانات يتطلب القدرة على تحسين الأصناف من خلال تهجين النبات، وكذلك إقامة شراكات وشبكات تشمل جميع أصحاب المصلحة، من المُزارع إلى الباحث إلى مدير بنك المورثات. ويجمع دول العالم اليوم جهد مشترك لهذه الغاية النبيلة بدأ منذ عام 1983م.

«لقد دققنا إلى أبعد الحدود في المستقبل. دققنا في مستويات الإشعاع داخل الجبل، ودققنا في البنية الجيولوجية للمنطقة».

بنوك الجينات النباتية

في عام 1983م، أنشئت «هيئة الموارد الوراثية للأغذية والزراعة» كمنتدى يتناول تحديداً المسائل المتعلقة بالموارد الوراثية النباتية. وساعدت هذه الهيئة على تنسيق سلسلة من المبادرات الدولية الشديدة الأهمية، نبهت المجتمع الدولي إلى تسارع الاستنزاف الوراثي، كما قادت جهود الصون المنسقة على مستوى السياسات. وقد وضعت الهيئة في وقت مبكر مواصفات بنك الجينات ومدوَّنة السلوك الدولية بشأن جمع المادة الوراثية النباتية ونقلها.

ومن اللافت للنظر أن مستوى الاستجابة والقبول والتفاعل في ازدياد. فقد زاد إجمالي عدد المدخلات في المجموعات المخزونة في البنوك الوراثية حول العالم بنسبة 20 في المئة تقريباً منذ 1996م، ووصل إلى 7.4 مليون مدخل. ويقدر أن حوالي 25 – 30 في المئة فقط من هذه المدخلات هي مدخلات فريدة، أما الباقي فهي مدخلات مضاعفة. ومنذ عام 1996م، جُمعت 240,000 مادة نباتية جديدة على الأقل، وأضيفت إلى البنوك الوراثية خارج الموطن الطبيعي. ازداد عدد البنوك الوراثية وحجمها على حد سواء. واليوم ثمة قرابة 1750 بنكاً وراثياً منتشراً حول العالم، منها حوالي 130 بنكاً يحتفظ كل منها بأكثر من 10,000 مدخل. وازداد عدد الحدائق النباتية من قرابة 1500 حديقة إلى ما يربو على 2500، حيث تُعد هذه الحدائق مستودعات مهمة للأنواع البرية قريبة النسب للمحاصيل.

حصون تحمي تنوع الحياة

يُعد «نيوكلاي فافلوف» العالم الروسي الشهير، الرجل الذي كان وراء تأسيس أول بنك للبذور كحافظ لتنوع المحاصيل، وبهدف تهجين النباتات، وذلك في عام 1926م في «سانت بطرسبرغ» في روسيا، في المعهد الذي يسمى الآن باسمه. وقد كان لفافلوف دور كبير في إثراء ووضع الأسس لحفظ الأصول الوراثية النباتية في رحلاته العديدة إلى مختلف بقاع العالم وكتابه «مراكز النشوء للنباتات المزروعة»، يحمل الكثير من رؤاه وأفكاره. إذ قام بأربع وستين رحلة، جمع فيها ما يقارب ستين ألف عينة نباتية، وجمع فريقه العامل معه في المعهد ما يقارب مائتين وخمسين ألف عينة نباتية، وهو بحق، ضمن آخرين، ممن أسسوا لعلم الانتخاب للأصناف أو التهجين، وبنوا على المعارف المتوافرة في ذلك الحين والتي أسسها عالم الوراثة «مانديل».

وكما ذكرنا سابقاً فإن عدد البنوك الوراثية المنتشرة حول العالم يبلغ ما يقارب 1750 بنكاً، وبالرغم من أن الاسم الشائع هو بنوك البذور لأن تخزين البذور هي الطريقة المفضلة لحفظ الأصول الوراثية لحوالي 90 في المئة من ستة ملايين صنف نباتي «خارج مواقعها الطبيعية»، إلا أنه يتم استخدام مصطلح «بنوك الموارد الوراثية» و«بنوك الجينات» إذا ماتم استخدام أي جزء نباتي آخر للحفظ.

ونظراً للتطورات الجديدة، بعد سريان اتفاقية التنوع البيولوجي في عام 1992م، والمعاهدة الدولية بشأن الموارد الوراثية النباتية للأغذية والزراعة في عام



نيوكلاي فافلوف ومعهده

2004م، ومـا أحدثته من تغيير فـي مفهوم ملكية الأصـول الوراثية وتقاسم المنافع في العالم، فإن البنـوك الوراثيـة أصبحـت مهمة وطنيـة لمعظم البلدان، وحقاً سيادياً. حيث تنص هذه الاتفاقات علـى مبـادئ توجيهيـة جديـدة لاقتنـاء التنـوع البيولوجـي وحفظه واستخدامه، وأصبح جمع المادة الوراثيـة أمـراً يجـب أن يكـون مصحوبـاً بالموافقة العلميـة، واكتسـاب المادة الوراثيـة خاضعاً للشروط المتفـق عليها تبادلياً، والمتعددة الأطراف أو اتفاقات النقل الثنائية.

لا شـك فـي أن هذه التطـورات استدعت إعـادة النظر في إجـراءات بنوك الجينات، وأثرت فـي طريقة القيام بعملها الذي عادة ما يكون القصـد الرئيس من إنشائه هو حفظ المـوارد الوراثية بهـدف حفظ السـلالات الزراعية التي يتهددهـا الضياع، وحفـظ الأصول الوراثيـة للأنواع البرية مـن خـلال المورثات النباتية فـي البذور، وحبـوب اللقاح، والأنسجة الحية كالبراعم النامية القمية والطرفية. وتكون الأهداف الرئيسة للبنك هي: جمع الأصول الوراثية للأنواع البريـة والسـلالات الاقتصاديـة، مـع الاهتمـام بالأقارب البريـة لنباتات المحاصيل والأعلاف.وحفظ بعض الأصول الوراثية في المدى الزمنـي القريب سواء فى المعمل أو في حقـول البنك أو في بيئاتها الطبيعية. وكذلك حفظ الأصول الوراثيـة على المدى الزمني البعيد (تخزين)، مثل الحفظ فـي بنـك البـذور، أو مـزارع الأنسجـة، أو تخزيـن الأجنة والجاميطـات (التخزيـن بالتبريد أو في الغـازات الخاملة الخاصة).

ومـن أهـداف البنـك أيضـاً: وضـع الخطـط البحثية الخاصـة بحفـظ الأصـول الوراثية باستخـدام الطرق العلميـة لحفـظ هـذه الأصول وتوفيـر المـواد الوراثية والمعلومات اللازمة لبرامـج التربية المختلفة، وتبادل المعلومـات الخاصـة بالمصـادر الوراثيـة مـع بنـوك الجينات المحلية والأجنبيـة والمنظمات ذوات العلاقة الخاصة بالأصول الوراثية.

وتعمل هذه البنوك ضمـن معايير دولية معدَّة من قبل هيئة المـوارد الوراثيـة للأغذيـة والزراعة في منظمـة الأغذية والزراعة.

بنوك الأصول الوراثية العالمية

ويوجـد أغلبهـا فـي مراكز البحـوث الزراعيـة العالمية (IARCS)، التـي يختـص نشاطهـا فـي جمـع الأصـول الوراثيـة النباتيـة للمحاصيل الزراعية مـن كافة أنحاء العالـم، وذلـك بالتعـاون مـع مراكـز بنـوك الأصـول الوراثيـة النباتية الأخـرى في العالم. وقـد وضعت أهم بنـوك الجينات في العالـم بالنسبـة لمحاصيل الحبوب والأعـلاف فى عـام 2006م، تحـت إشـراف المعاهدة الدوليـة للموارد الوراثيـة النباتية في مجـالات الأغذية والزراعـة، على نحوٍ يضمـن للمُزارعيـن والباحثين في كل مـكان الوصول إلى هذه الموارد الوراثية النباتية وفق الشـروط القياسيـة المطبَّقـة للاستخـدام، والمشارَكة سواسيـةً في الفوائـد المنبثقة عـن استخدامها. وذلك ضمـن اتفاقـات مـع مراكز البحـوث الزراعيـة الدولية تنصـ على حفظ نحـو 600,000 عينة مـن أهم الموارد الوراثيـة النباتية لمحاصيل العالـم الغذائية والزراعية. ففـي المكسيك مثـلاً، يحتفظ المركـز الدولي لتحسين الـذرة والقمـح (CIMMYT) بنحـو 22000 مدخلة ذرة مخزنةً على حرارة تبلغ - 3 درجات مئوية داخل سراديب صممـت خصيصاً لتكفـل صلاحية البذور مـدة 25 إلى 40 سنـة. بالإضافة إلـى مراكز متخصصـة في كل من الفلبين وسوريا وبيرو.

«قبو يوم القيامة»!

فـي شهـر نيسان-أبريـل 2007م كشفـت الحكومـة النرويجيّـة عـن التصميم النهائي لمـا سمته «قبو يوم القيامة» الذي يحـوي عيّنات مـن البـذور المجموعة مـن كلّ أصقاع العالم. ويقـع بناء هذا القبو في جزيرة



Corbis

نائية بالقطب الشمالي، تحسباً لكارثة طبيعية أو وباء أو حرب نووية تأتي على المحاصيل الزراعيّة وعلى البذور.

وقد صمم القبو ليكون قادراً على تحمل كوارث كونية مثل حرب نووية أو كارثة طبيعية. وبدأ بناء مشروع «قبو بذور سفالبارد الدولي» في مارس 2007م، وتم افتتاحه في العام 2008م. وهو يتسع لتخزين ثلاثة ملايين عينة من البذور المختلفة. وفي الوقت الذي ستتحمل الحكومة النرويجية فيه تكاليف المشروع، البالغة خمسة ملايين دولار، فإن جمع العينات وصيانتها ستكون مسؤولية «الصندوق العالمي لتنوع المحاصيل»، وهو صندوق عالمي هدفه ضمان «الحفاظ على تنوع المحاصيل إلى الأبد» ويقول «جيوف هوتين» المسؤول عنه: «ما سيدخل إلى القبو هو عينة من الأنواع المحفوظة حالياً في مجموعات في مختلف أنحاء العالم».

Corbis

البنك الحافظ للتنوع الحيوي

ولأن العديد من بنوك البذور هذه موجود في بلدان إما غير مستقرة سياسياً أو تواجه تهديدات بسبب البيئة الطبيعية، يضيف هوتين: «ما نحاول القيام به هو بناء دعم لهذه البنوك. وبالتالي، فإن عينة من كل مادة جينية في هذه البنوك ستوضع في بنك البذور في سفالبارد».

ويبلـغ عمـق القبـو 120 متـراً، داخـل جبـل فـي جزيـرة «سبتسبورجـن» التي تشـكل إحدى الجـزر الأربع المكونة لأرخبيـل سفالبـارد. ويقـول «د. كاري فاولـر»، المديـر التنفيذي للصندوق العالمي لتنوع المحاصيل، إن الاختيار وقـع علـى منطقة سفالبـارد، التي تبعد عـن اليابسة ألف كيلومتر شمال النرويج، لأنها نائية ومعزولة جداً وأيضاً لكونهـا منطقة مستقرة تصلح لمشروع طويل الأمد من هذا النوع. ويضيف فاولـر: «لقـد دققنا إلـى أبعـد الحدود في المستقبـل. دققنا فـي مستويـات الإشعاع داخل الجبل، ودققنا في البنية الجيولوجية للمنطقـة. كمـا وضعنـا نمـاذج للتغيـرات المناخيـة الحادة المرتقبة خـلال المائتي سنة المقبلة، بما في ذلك ذوبان الصفائح الجليدية فـي القطبين الشمالي والجنوبي، وجرينلانـد، حتـى نضمن أن هـذه المنطقـة ستبقى فوق سطح الماء الناتج عن ذلك الذوبان».

30 محصولاً غذائياً يوفِّر للإنسان اليوم 95% من حاجاته من الطاقة الغذائية أربعة منها فقط توفِّر أكثر من 60% من هذه الحاجات

عند إيداع البذور في القبو، سيتم تخزين العيِّنات في درجات حرارة دون الـ 18 درجة مئوية تحت الصفر. أما المدة التي تحتفـظ بها البـذور المجمـدة بقدرتها على النمـو فيعتمد على نوعهـا. فبعض المحاصيل مثل البازلاء لا يصمد سوى 20-30 عامـاً. وبعضها الآخر، مثل دوار الشمس ومحاصيل الحبـوب يمكنه البقاء لعقـود، وربما لقـرون عديدة. لكن، فـي نهاية المطـاف، ستفقد كل البذور قدرتهـا على النمو، وتمـوت. لكـن قبل حدوث هـذا، سيتم أخذ بضـع بذور من العينـة المخزنة لتزرع في بيئة مناسبة لتؤخذ بذورها ويعاد تخزينهـا في القبو. وهكذا يمكن لمجموعات البذور هذه أن تتجـدد باستمرار. وهو هدف المشـروع. وعندما يبدأ بنك البـذور في العمل في سفالبارد، فإن المنشأة سيتم تشغيلها بأدنى تدخل بشري ممكن.

ويقـول د. فاولر: «سيذهب أحد الأشخاص إلى الداخل مرة سنويـاً ليتأكـد من أن كل شيء على ما يـرام، لكن لن يكون هنـاك موظفون دائمـون». ويضيـف: «إذا صممـت منشأة لتستخدم في أسـوأ السيناريوهات، فإنه لا يسعك أن تعتمد حينئذ على تدخل بشري مكثف».

النرويجيون ليسوا وحدهم الواعـون ذلك. فالأخبار تتوالى كل يـوم حول مشاريـع ضخمة في هذا المجـال في الصين والبرازيـل وماليزيـا وتركيا للحفاظ على المـوارد الوراثية النباتيه الوطنية.

بنك الألفية: مليار بذرة

وفي بريطانيا توصل القائمـون على «البنك الغذائي»، وهي مبـادرة من الحدائق النباتية الملكية فى كيو، إلى الحصول على البذرة رقـم مليون. وقد جمّعت في هذا البنك مختلف أنواع البذور والنباتات والأصول من كلّ أصقاع العالم.



Corbis

البنك الغذائي في بريطانيا

وحقـق البنك هدفه الأول في عام 2009م، وذلك بخزن 10 فـي المئة مـن السـلالات النباتيّة في العالـم. أو ما يقارب الثلاثيـن ألف نوع. ويسعى إلى تخزيـن 25 في المئة إذا ما توافرت له الموارد المالية الكافية.

وتأتـي كل هـذه الجهود العالميـة المختلفه لحمايـة التنوع الوراثـي الـذي يمثل البيـت المليء بالكنوز، الـذي يواجه تهديـداً بالزوال. وهـو ما يستدعي الحاجـة إلى بذل جهود خاصـة لصونـه مـن الداخـل والخـارج، والحفـاظ علـى استدامته واستمراريته لمصلحة الجميع.

زات العام

2010

في نهاية كل عام، تختار المعاهد والمجلات العلمية لائحة من المبتكرات والاختراعات التي ترى أنها كانت الأفضل خلال السنة المنصرمة. وقد تختلف هذه اللوائح باختلاف واضعيها. ولهذا، اخترنا هنا أن نورد ما حظي بأكبر قدر من الاتفاق على أنه كان من أهم منجزات العام 2010م ومبتكراته.



1 - في الهندسة

اعتبر «برج خليفة» الذي تم افتتاحه في دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة خلال العام الماضي، الإنجاز الأبرز على صعيدي فن البناء والهندسة دون منافس قريب له في هذا العام. فإضافة إلى الرقم القياسي في ارتفاع هذا البرج، الأعلى في العالم بارتفاع يصل إلى 2716.5 قدم، وضعت مصادر متخصصة في هذا المجال، الحلول التي وضعها المهندس «بيل بايكر» الذي صمم هذا البناء بالتعاون مع المعماري «أدريان سميث»، لمواجهة تحديات مثل ضغط الرياح، وثقل كتلة البرج، بأنها كانت من التطور إلى درجة أنها ستغيِّر الكثير في مجال بناء ناطحات السحاب في العالم.

2 - في الطب

وتحديداً في المجال المسمى «التقنية الحيوية» أو «التقنية العضوية»، اعتبرت مجلات عديدة اليد الصناعية التي أنتجتها شركة «روبوتيسيست» أهم إنجاز في العام 2010م. وتقوم هذه اليد بكل الوظائف التي تقوم بها اليد الطبيعية مثل الإمساك بالأشياء وتحسسها وتحريكها كيفما شاء صاحبها. ويتم وصل موصلاتها الإلكترونية من عند المعصم بالأعصاب الطبيعية في ذراع الإنسان لتلقي الأوامر من عضلات الساعد. ويتوقع لها أن تشكِّل حلاً كاملاً للآلاف الذين يخسرون أيديهم أو أصابعهم نتيجة حوادث العمل، أو المواليد الذين يولدون بعاهات في أيديهم. غير أن ثمنها لا يزال مرتفعاً في السنة الأولى على إنتاجها: بين 50 و80 ألف دولار.



3 - الزراعة

معظم الأراضي القاحلة في العالم تحتوي على الماء اللازم للحياة النباتية، ولكن على أعماق تصل إلى عدة أقدام، بحيث تموت النبتة قبل أن تصل جذورها إلى هذه المياه. ولكن العلماء في شركة «غروازيس» ابتكروا علبة تسمح باحتضان الشجرة لفترة سنة أو سنتين إلى أن تصل جذورها إلى الطبقات الرطبة في الأرض. ولا تحتاج هذه العلبة إلا لتعبئتها مرة واحدة بالماء، ثم يتولى سطحها المصنوع من مادة باردة أكثر من الجو المحيط بها، بتكثيف رطوبة الهواء وصب نقاطه على المخزون الذي يكون قد نقص فيه. ويمكن للمزارعين استخدام هذه العلبة أكثر من خمس أو ست مرات على مدى سنوات عشر.



4 - الإلكترونيات

صوَّت الكثيرون للجهاز الذي ابتكرته شركة «إنتل» ويسمح بربط لاسلكي ما بين شاشة الكمبيوتر المحمول أو الكمبيوتر الشخصي وشاشة التلفزيون. ويتم الربط لمرة واحدة فقط، ولا يحتاج لاحقاً إلى أية برمجة. ويرى بعض المحللين أن التصويت لمثل هذا الابتكار هو فعلاً تصويت لمبدأ دمج الإلكترونيات من جهة، وأيضاً لمبدأ تطور التلفزيون والإنترنت سوية، وتقريبهما من بعضهما البعض.

2011

ومن الأحداث والتطورات العلمية المرتقبة خلال العام الجاري 2011م، نختار الباقة الآتية:



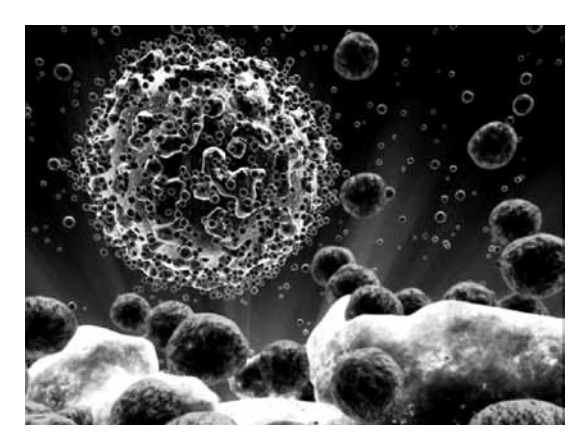
1 المكوك الفضائي الأمريكي يقوم بآخر رحلة له في الخامس والعشرين من شهر فبراير، بعد أربعين سنة من الخدمة. والبعض يتحدث عن رحلة إضافية ما بعد الأخيرة تكون في أواسط شهر يونيو.

2 خلال الصيف، ستتسلم وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» من شركة «سبايس إكس» المركبة الفضائية الجديدة دراغون التي ستحل محل المكوك.

3 في شهر أغسطس، سيتم إطلاق مركبة فضائية غير مأهولة، لتصل عام 2016م إلى مدار المشتري بهدف دراسة محتوى غلافه الجوي من الأوكسجين. وقبل ذلك، في شهر مارس ستكون المركبة «ماسنجر» قد وصلت إلى محيط كوكب عطارد، أقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الشمس، لتصوير سطحه بالكامل.

4 الصين ستمنع خلال هذا العام التدخين في كل المباني العامة. ومعلوم أن ربع عدد سكان الصين (أي حوالي 300 مليون شخص) هم من المدخنين. وأن التدخين يقتل نحو مليون منهم سنوياً.

5 في نهاية العام 2011م، ستعلن الشركة الدوائية «مايماتيكس» عن نتائج المرحلة الأولى من اختباراتها للقاح ضد الفيروس المسبب لنقص المناعة المكتسبة في جسم الإنسان، بعد تجربته على البشر. وكان اللقاح الجديد قد أخضع خلال العام الماضي 2010م للتجربة على الحيوانات، وحقق نجاحاً بنسبة 100%.



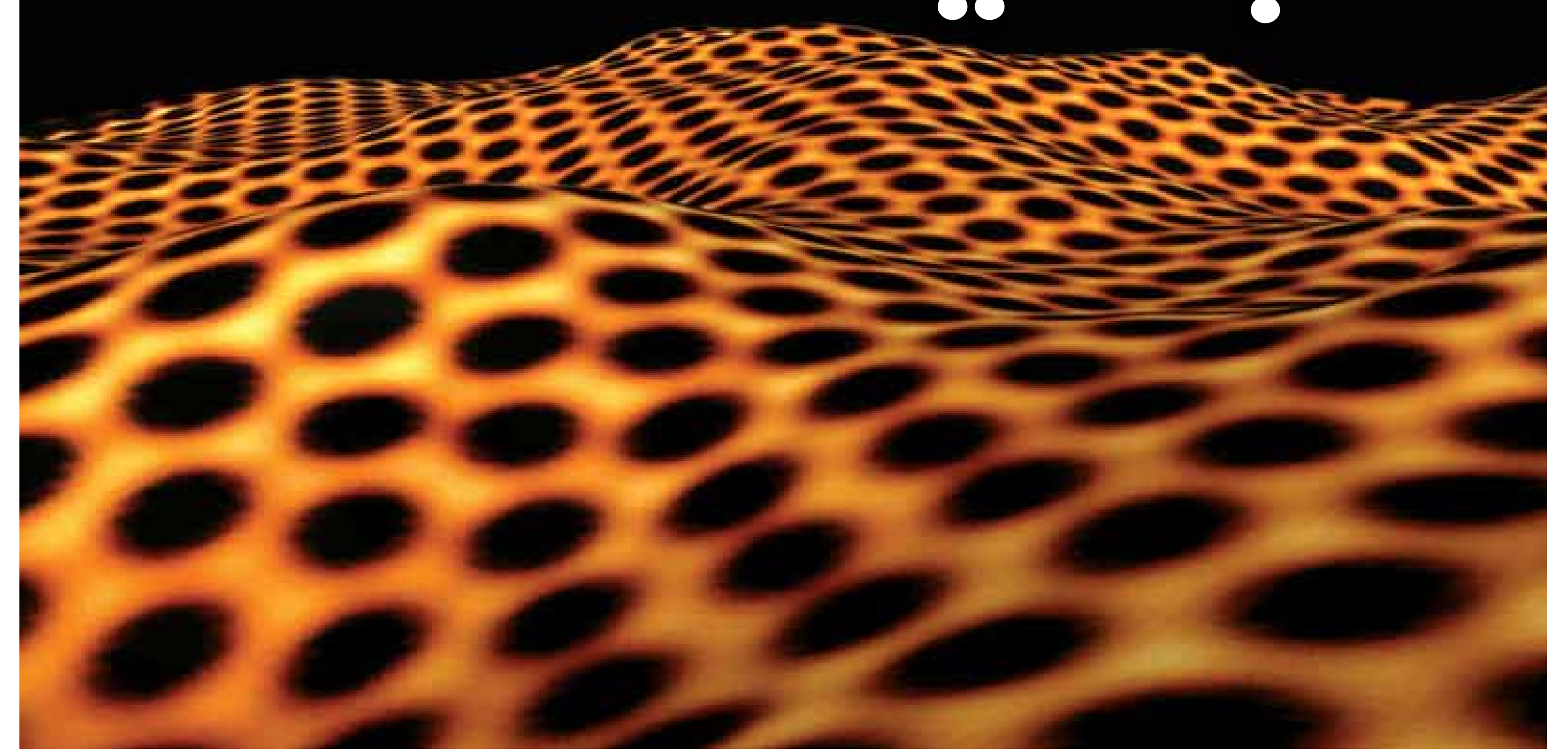
6 جهاز التحكم عن بعد بجهاز التلفزيون سيبدأ بالخروج من البيوت هذا العام. الذي سيشهد إنزال أجهزة جديدة مزودة بكاميرا فيديو ثلاثية الأبعاد تقرأ إشارات اليد عن بعد، وتحولها إلى أوامر يفهمها التلفزيون.

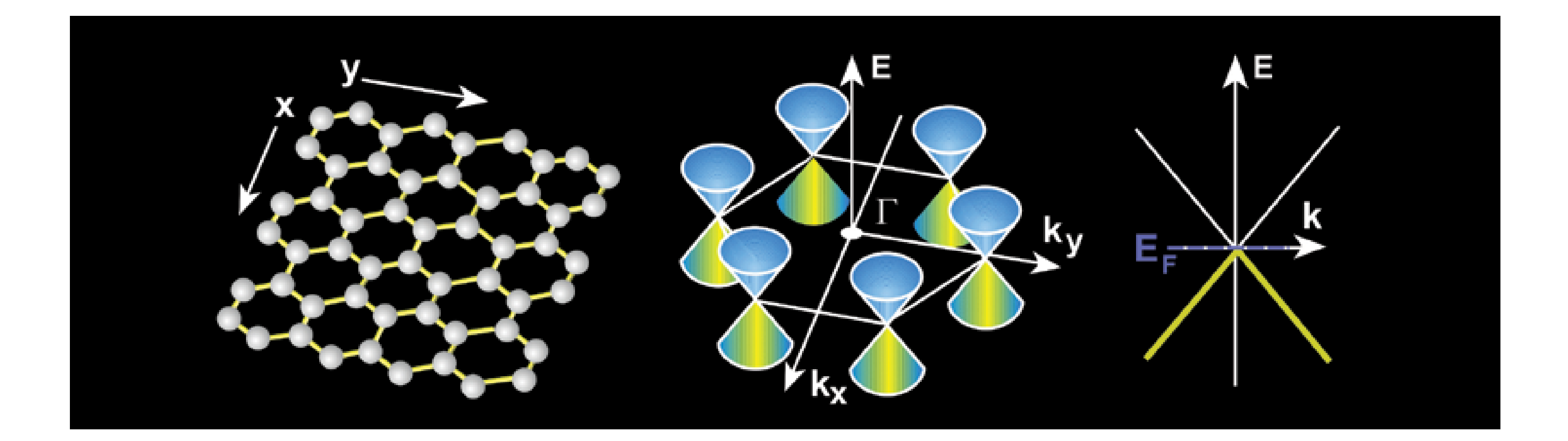
7 وفيما يشبه عودة العلم إلى التدقيق في ماضيه، سيقوم فريق من العلماء خلال العام الجاري بتحديد حقيقة ما يمثله الكيلوغرام الواحد. ومعلوم أن الكيلو قد تحدد انطلاقاً من وزن سبيكة من البلاتين والإيريديوم محفوظة اليوم في خزنة قريباً من العاصمة الفرنسية باريس.

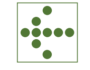
نال أندريه جيم وقسطنطين نوفوسيلوف جائزة نوبل في الفيزياء في شهر أكتوبر 2010م، تقديراً من الأكاديمية السويدية للعلوم لجهودهما في تجارب علمية كانت رائدة على مادة جديدة ثنائية الأبعاد تدعى الجرافين. فاضل التركي يعرفنا على هذه المادة، ماهيتها وأهميتها التي حملت للعالمين جائزة نوبل الفيزياء. والتي يرى البعض أن لها دوراً مستقبلياً، بحيث بات يتحدث عن عصر «الجرافين» الآتي.

بوابة عصر الكربون

مادة الجرافين الجديدة







في السعي إلى تعريف ماهية مادة الجرافين، نلقي نظرة على الجرافايت أولاً.

الجرافايت مادة ليست بغريبة علينا. إنه معدن يوجد في الطبيعة كبلورات من عنصر الكربون، وهو ما نطلق عليه في لغتنا اليومية اسم الرصاص في أقلام الرصاص مثلاً. (يجب أن ننتبه أن كلمة رصاص هنا ليست الكلمة العلمية التي نطلقها على عنصر الرصاص). ومادة الجرافايت مادة ثلاثية الأبعاد هي والمواد التي تتبلور من عناصر وجزيئات الكربون كالماس مثلاً. وفي الواقع، كل المواد من حولنا هي مواد ذات ثلاثة أبعاد. إذ لا يوجد في الطبيعة مادة كربونية مسطحة - ثنائية الأبعاد مثل الورقة التي نكتب عليها مثلاً.

لقد كان من الصعب تحضير مادة بلورية ثنائية الأبعاد، أي شريحة من الكربون بطول وعرض ولا ارتفاع. لقد صرَّح بذلك عالمان هما لاندو وبييرلز قبل سبعين عاماً، وقالا إن ذلك مستحيل بسبب عدم استقرار المادة حرارياً ولأنها غير موجودة في الطبيعة.

وكتبت مجلة «الفيزياء اليوم»، ذات مرة، أنه من الصعب إنتاج شريحة بلورية ثنائية الأبعاد، وذلك لعدم استقرارها ومحاولتها العودة إلى شكل من الأشكال ثلاثية الأبعاد، أكثر استقراراً في الطبيعة كما هو الحال في مادة الجرافايت. لكن العلماء يستطيعون تطويع الطبيعة بجعل هذه الشريحة الثنائية الأبعاد غير المستقرة، محاطة بما يمنع إعادة تشكلها بوضعها فيما يشبه «الشطيرة»، أو جعلها ملتصقة كمادة تغطي مادة أخرى تلتصق بها، أو بتوفير حرارة مناسبة لها، مما يبعدها عن البحث عن حالة استقرار تغير حالتها من ثنائية أبعاد إلى ثلاثية.

هكذا كان الحال، حتى تمكن جيم و نوفوسيلوف تحضير مادة ليست موجودة في الطبيعة هي الجرافين. كم هو مدهش أن يقدم هذان الباحثان على استخدام شريط لاصق، متوافر في كل مكان، وينتزعان من قطعة جرافايت، طبقة ثنائية الأبعاد تبقى مستقرة على هذه الهيئة. إن هذا الشريط اللاصق هو عبارة عن مادة عازلة من ثاني أكسيد السليكون، ضعيفة التأثير على الجرافين المنتزع وتجعله مستقراً ذا خصائص كهربائية عجيبة ومفيدة.

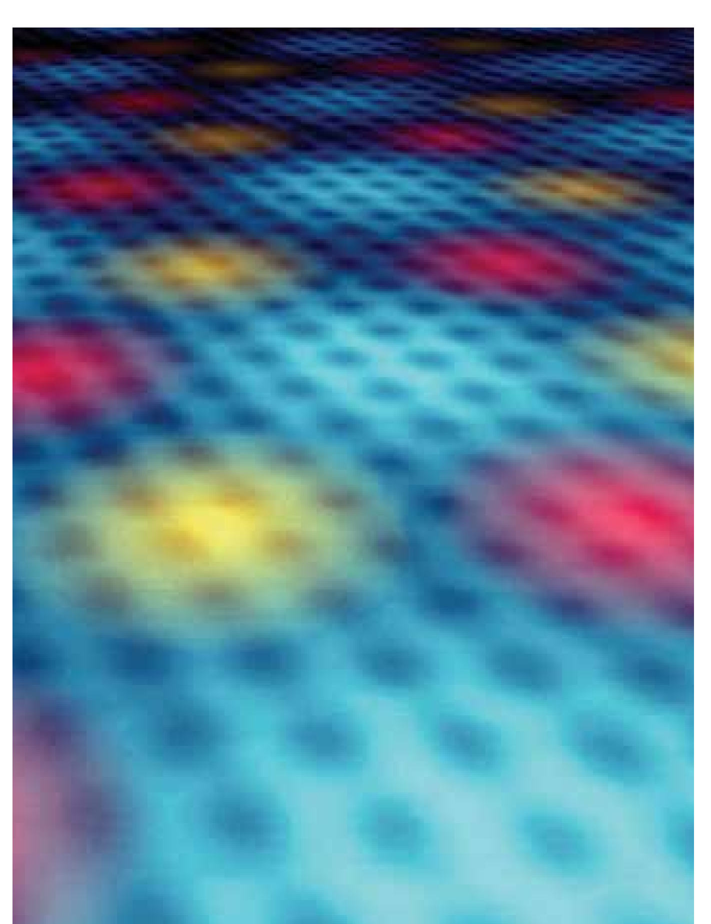
لقد تمكَّن الباحثان إذن من تشكيل مادة ثنائية الأبعاد من بلورات الكربون على شكل شبكة من الذرات الكربونية المترابطة ذات ارتفاع مكون من ذرة واحدة - ولهذا نطلق عليها معنى ثنائية الأبعاد. ويعرَّف الجرافين على أنه طبقة واحدة مسطحة من ذرات الكربون مشكلة في شبكة مماثلة لسداسيات خلية النحل، وهي اللبنة الأساسية التي تبنى منها المواد الكربونية من مختلف الأبعاد. ولكي نتخيل سمك شريحة الجرافين الواحدة، نشير إلى أن ثلاثة ملايين شريحة من الجرافين فوق بعضها البعض سيكون سمكها حوالي الميليمتر الواحد. ألا يبدو أننا في مجال النانوتكنولوجيا؟

أهمية المادة مادة الجرافين

ما الذي يجعل هذا الحدث العلمي مثيراً للاهتمام؟ إن فكرة ذكية جعلتنا نستخلص شريحة جرافين مستقرة وهي مادة ليست موجودة في الطبيعة، ثم ماذا؟



العالِمان الفائزان بجائزة نوبل للفيزياء



من حق القارئ أن يسأل مثل هذا السؤال المهم، وخصوصاً أن جديد العلم قد يتغلغل في جنبات نظرية بعيدة كل البعد عن الواقع الملموس.

يقـول جيم في حـوار مع مجلة «ساينتفيـك أمريكان» إن هـذا الكشف يهدينا إلى عالم جديد مـن المواد لم نكن نتصـور وجوده. كل تصوراتنا عن المــادة كانت تفترض أنهـا ثلاثية أبعاد. أما الآن، فنحن نـدرك تماماً إمكانية وجـود مـواد ثنائيـة الأبعـاد، وذلـك حينمـا تمكنـا من صناعـة مادة ذات طـول وعرضـ وارتفاع بمقـدار ذرة واحـدة من الكربـون وحسب. إن الجرافيـن مادة أصلب من الألماس وأقسـى منه. وفي نفس الوقت، يمكن مطّها مثـل مادة المطـاط. إن لها من الخصائصـ ما يجعلها متفوقـة على أكثر المواد المعروفـة، وأكثر فائدة. مثلاً، نجدها أفضل توصيلاً للكهربـاء والحرارة من النحاس، ويمكـن أن نصنـع منها أشباه الموصـلات التي نصنعها مــن السليكـون، فهي أسـرع منـه بكثير. إن هــذه المــادة –الجرافيـن– أشبـه في كثافتهـا كمادة صلبـة، بالغــازات! ونحن نعـرف أن ذرات الغــازات أكثـر بعداً عن ذرات السوائـل والجوامـد. إن ذلك يجعل من الجرافيـن مادة شفافـة بنسبة سبعة وتسعين في المئة».

لقد كان من الصعب تحضير مادة بلورية ثنائية الأبعاد، أي شريحة من الكربون بطول وعرض ولا ارتفاع

بعبـارة أخـرى، إنهـا تفتـح أمامنـا مجـالاً واسعـاً مـن الاستخدامـات والإمكانـات، مـا جعل البعضـ يتنبأ بعصر ربما يطلق عليه اسم «عصر الكربون».

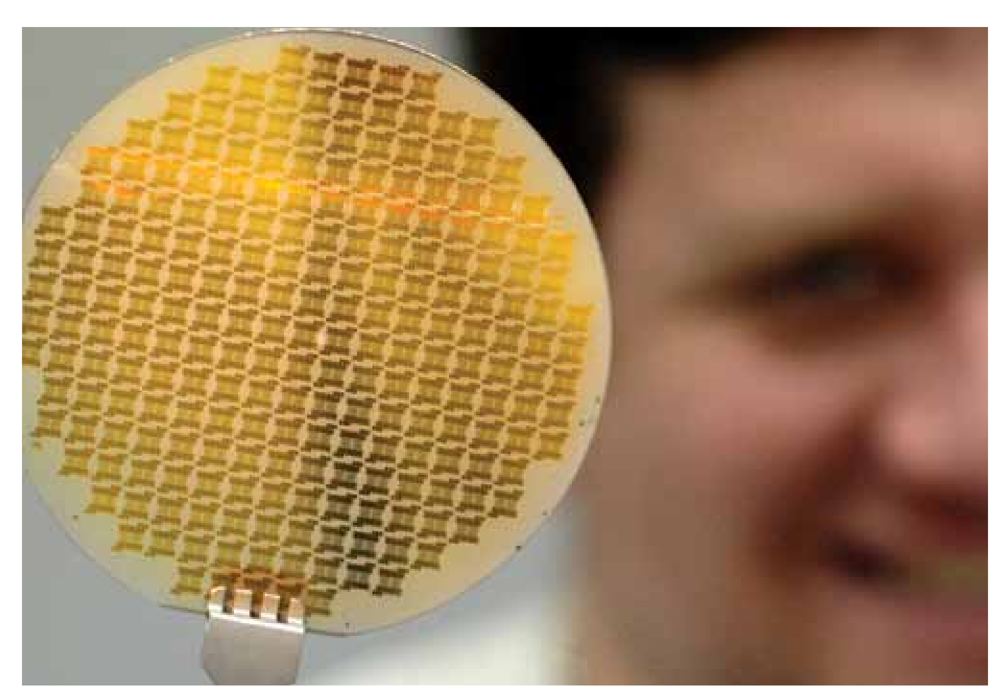
ما الذي جعلها تستحق جائزة نوبل؟

أحـد أهم الأسباب التـي منحت على أساسهـا جائزة نوبل للعالمَيـن جيـم وقسطنطيـن، هـي إيجـاد مـادة مستقرة ثنائيـة الأبعاد في الطبيعة. إضافة إلى هذا الكم الهائل من المواصفـات التي تفتح عالماً من التطبيقات، وتمهد لمجال جديـد فـي الفيزيـاء يستحق كثيـراً من الاهتمـام والجهد والعمـل ويعـد بالكثير. ويقـول قسطنطيـن نوفوسيلوف إن الجرافين هي مـادة بمثابة منجم ذهب للفيزيائيين، يمكن لهم أن يدرسوها ويستكشفوها ويستخرجوا منها التطبيقات المفيدة لأجيال قادمة.

العالمان.. من هما؟

قسطنَطيـن نوفوسيلـوف، هو بريطاني مـن أصل روسي. عـرف بسبـب عمله مع أندريـه جيم علـى الجرافين وهو عضو فـي فريق «ميسوسكـوب» في جامعـة مانشستر في بريطانيـا. حصـل قسطنطيـن علـى دبلوم فـي الفيزيـاء مـن موسكو، ثـم التحق بجامعة نجمغن فـي هولندا حيث حصل على الدكتوراة. التحق بالعمل بعدها مع مرشده في الدكتـوراة أندريـه جيم، وعمل معه فـي جامعة مانشستر منذ 2001م. وقـدَّم نوفوسيلوف عدداً كبيـراً من الأوراق العلمية تتعلق بالتوصيل الفائق. وكان قد أسهم في اختراع شريـط لاصق أطلق عليـه اسم «شريط غيكـو اللاصق»، يعتمد على تقنيـة شعيرات نانوية تمكن من تعليق الأشياء علـى الجدران والأسقـف مثل رجل العنكبـوت. ويُعد هذا اللاصـق العجيب في طور مبكر مـن الأبحاث ويعد بكثير مـن التطبيقـات. ولكـن لنتذكـر، أن أهـم إنجازاته كان عمله مـع أستاذه على مـادة الجرافين وكشـف مميزاتها وتطبيقاتها.







أما أستـاذه أندريه جين، فأصله روسـي أيضاً. حصل على الدكتوراة في فيزياء المعادن من الأكاديمية الروسية للعلوم. وكان قـد لقي صعوبـات قبلها، إذ فشـل مرتين في امتحان دخول معهد تقني مما أدى إلى أن يقدم أوراقه للمعهد نفسه الـذي درس فيه فيما بعد تلميـذه قسطنطين. وحتى بعد أن حـاز على الدكتوراة، لم يكن سعيـداً حينئذ بدراسة فيزياء الجوامـد. لكنـه بعدما أحرز تقدمـاً علمياً، وكشفـاً أوصله إلـى جائزة نوبل وجوائز أخرى كثيرة، تغير انطباعه تماماً. اشتغـل بعد تخرجه في كوبنهاجن كباحـث، ثم عُين بعدها فـي جامعة نجمغـن. واشتغل على التوصيـل الفائق في علم الجوامـد المسمـى «ميسوسايـنس». انتقل بعـده إلى جامعة مانشستـر عام 2001م مع زميلـه قسطنطين، وعين أندريه حينئـذ مديـراً لمركـز ميسوسايـنس والنانوتكنولوجي في الجامعة.

اشتغـل أندريـه مـع قسطنطيـن فـي تطوير شريـط غيكو اللاصـق -المذكـور سابقـاً- والـذي يظـن أنه قـد يمكن الإنسـان في المستقبل من المشي علـى الجدران والأسقف مثـل الزواحـف. وكان أندريه قـد شارك أيضـاً في البحث الذي استطاع أن يطيّر ضفدعاً في المجال المغناطيسي.

بعدهـا، راحـا يعملان على اكتشـاف الجرافيـن. ولم يكن لـدى أندريـه وقسطنطيـن الوقـت الكافـي ولا الرغبـة في تقديـم الجرافين لبراءة اختراع، إذ لـم يتح لهما من يهتم بتصنيعه.

ولـم تكن جائزة نوبـل هي أولى الجوائز التـي حصل عليها أندريـه. فقد حصل قبلها على جائـزة نوبل أخرى مشاركة مع مايكل بيري مكافأة لتجربة تطيير الضفدع مغناطيسياً. وحصـل هو وقسطنطيـن على عدة جوائـز لجهودهما التي بذلاها في تجاربهما على الجرافين.

من أين نأتي بالجرافين؟

أقدم صـور ميكروسكوبيـة لجزيئـات الجرافايت كانت أخـذت عـام 1948م. وظهـر بعدهـا شـيء قريـب من الاهتمـام بالجرافيـن يعود إلى عـام 1962م ولكنه كان يعنى بدراسـة مادة مكوّنة من عـدة طبقات من شرائح الجرافيـن. ولكـن أقـدم أشـكال المـادة القريبـة من الجرافيـن، كان قد عرف في عـام 1859م وهو «أكسيد الجرافايـت». وتمـت دراسته بعد ذلـك بالتفصيل فيما يعـرف بورق أكسيـد الجرافايت الذي يحمـل في طياته الجرافيـن مادة أساسية. ولكن لم يكن بالإمكان إنتاجه عمليـاً حتـى عام 2004م علـى أيدي جيـم وقسطنطين وزملائهما. وكان تحضيره في البداية مكلفاً جداً، حيث إن شريحة جرافين بسمك مقطع من شعرة إنسان كانت تكلف حوالي 1000 دولار أمريكي.

فـي عـام 2004م، قام هـذان العالمـان بتحضيـره يدوياً، باستخـدام شريط لاصق، حيث يقوم المـرء تكراراً بلصق الشريـط ونزعه حتـى يتمكن من عمل شريحـة رقيقة جداً من الجرافايت. ثم ينقع هذا في الأسيتون ويوضع في نهاية الأمـر على رقاقـة من السليكـون. وبعد ذلك تبيـن أنه من الأفضـل التخلي عن النقـع في سائل الأسيتـون وتم تطوير هذه التقنية التي يطلق عليها اسم تقنية الرسم وذلك لأنها تشابـه الرسم بقلـم الرصاص -الجرافايـت- وترك طبقة رقيقة من أثره على الورق.



هناك عدة طرق أخرى لتحضيره أيضاً، منها تسخين كربايد السليكون أو النيكل إلى درجات عالية، واستخدام ركائز معدنية يبنى عليها الجرافين. ومن الطرق الأخرى أيضاً، وهي من أقدم الطرق المعروفة، تقليص أكسيد الجرافايت إلى رقائق من الجرافين. وهناك طريقة إذابة المعادن مع الكربون في درجات حرارة معينة تنتج لنا الجرافين. وبالإضافة إلى طرق أخرى، هناك طريقة استخراجه من سكر المائدة، حيث يوضع السكروز أو ما شابه من المواد مع النحاس أو النيكل على حرارة 800 درجة مئوية، في ضغط منخفض، ويعرض لغاز الهيدروجين. بهذه الطريقة ينتج الجرافين بكميات صناعية في عملية من عشر دقائق.

يذكر جيم في أكثر من مناسبة، أن عقبة واحدة تكمن أمامنا تقريباً، هي تصنيعه بكميات صناعية توفره بكلفة قليلة ليتمكن المهتمون والمصنعون من الاستفادة منه ومن خصائصه في كل التطبيقات التي تتردد على الأذهان. وتشيع بين محضري الجرافين طريقة الرسم المذكورة، وهي مكلفة ومتعبة ولكن مع مرور الوقت يتجه هؤلاء إلى تجاوز هذه الطريقة اليدوية، إلى طرق التبخير، والطرق الأخرى التي بدأت تظهر وأصبحت أكثر إقناعاً وإنتاجاً وفاعلية.

ثوب المستقبل من الجرافين

يتوقع المهتمون بالجرافين، مستقبلاً كان من تصورات الخيال العلمي. فهم يرون أنه سيغير حياتنا عما هي عليه اليوم. وسيوفر أجهزة شفافة لا مرئية بالغة الصغر، قادرة وسريعة، وستتنوع التطبيقات وتتطور أفكار تطبيقية لم تكن ممكنة بسبب عدم استعداد التكنولوجيا لاحتضانها سابقاً. وليس ذلك ببعيد، فقد بدأت بوادر تحقيق ذلك ممكنة في مراكز الأبحاث والجامعات وبدأت تطرق أبواب الصناعة عملياً.

بميزات الجرافين هذه، سيصبح بالإمكان صناعة دوائر كهربائية بالغة الصغر، أصغر بكثير من دوائر السليكون الكهربائية، وأسرع منها بكثير. وقد قام فريق جامعة مانشستر بصناعة ترانزستور من الجرافين ارتفاعه نانومتر واحد وعرضه عشر ذرات كربونية. إن هذا في تصور قسطنطين أصغر ما يمكن صناعته من ترانزستورات حسب قانون مور في تحديد سرعة معالجات الحاسوب.

وفي الوقت الذي تصنع في «إنتل» معالجات تكنولوجية في حجم 32 نانومتر (وحدة قياس تساوي 1 من مليار جزء من المتر)، فإنه حسب رأي الباحثين، من الصعب الذهاب إلى أصغر من ذلك كثيراً في السنوات القادمة. والمعروف أن تقليل مسافة انتقال الإشارات الكهربائية - الإلكترونية، يزيد من سرعة معالجات أشباه موصلات السليكون. وبتمكن العلماء من صناعة ترانزستور بمادة الجرافين بالحجم المذكور، فإن ذلك يعد بسرعات تتجاوز 100 مرة من أسرع معالجات السليكون المعروفة اليوم، إن لم تصل إلى 1000 مرة ضعف من ذلك.

يقول لين، وهو أحد الباحثين في مجال تصنيع معالجات الحاسوب المبنية على الجرافين، إنهم تمكنوا من صناعة معالج وصلت سرعته إلى 26 جيجاهرتز، أسرع بأضعاف مما يتوفر اليوم في السوق. و ذكر أن هناك المزيد من العمل من أجل زيادة فعالية استخدام الجرافين بخصائصه التي يتعرفون إليها يوماً بعد يوم ليصل إلى أسرع من ذلك بكثير. فالجرافين يوفِّر لهم قدرة على تقوية الإشارات الإلكترونية، ونقلها بسرعة فائقة أكثر بكثير من الدوائر المعدنية والسليكونية.

أما في مجال تخزين المعلومات، فقد قدمت جامعة رايس عام 2008م، ذاكرة صغيرة مكثفة من الجرافين لتخزين معلومات هائلة الحجم. ذاكرة التخزين هذه مكونة من عشر طبقات من الجرافين -أي بارتفاع عشر ذرات كربون- وتقوم بحفظ المعلومات بطريقة ميكانيكية مثل طريقة حفظ معلومات الكتب بالحبر الإلكتروني. وبذلك، لا نحتاج إلى كهرباء ولا طاقة لاستخراج المعلومات. فهي محفوظة، يمكن استرجاعها ميكانيكياً ما لم نبدلها ونغيرها. ونحن بذلك نسترجع معلومات بلا بذل أي نوع من الطاقة، تقريباً. ويذكر تور الذي عمل على إنجاز هذه الذاكرة من الجرافين، أنه جرب ظروف عمل هذه الذاكرة في درجات حرارة عالية وإشعاع، ووجد أنها تصلح للاستخدام في البيئات ذات الظروف الصعبة فضلاً عن البيئات المعتادة. ويتوقع تور أن يكون العمر

الافتراضي لمثل هذه الذاكرات أطول بكثير مما تمتلكه ذاكرات الفلاش المتداولة اليوم.

أما مركز تكساس لطاقة الجرافين، فقد تمكن من استخدام هذه المادة الجديدة في صناعة مكثفات لتخزين الطاقة الكهربائية مثل البطاريات وتقنيات جديدة لتوصيل الطاقة. ويقول راوف، أحد الباحثين في فريق تكساس، إن بطاريات الجرافين، ستتخطى بسهولة أفضل ما تقدم بطاريات اليوم من الأداء بدرجة ضعفين على الأقل. وزيادة على ذلك، فإن هذه البطاريات يمكن إعادة تدويرها بدل التخلص منها بالطريقة المعهودة مع بطاريات اليوم المستهلكة.

وحديثاً، تمكن فريق من الولايات المتحدة ومن جامعة داليان للتكنولوجيا في الصين من تصنيع بطاريات بالغة الصغر من الجرافين، يتم شحنها في ثوانٍ معدودات.

يتوقع المهتمون بالجرافين، مستقبلاً كان من تصورات الخيال العلمي. فهم يرون أنه سيغير حياتنا عما هي عليه اليوم

وتقدم بعض الشركات أنابيب «نانوية» في أقمشة تزود الأجهزة الإلكترونية بالكهرباء وتشحنها، تلبس كالملابس العادية. وهي في طور الانتقال إلى مادة الجرافين الأقل كلفة وأكثر تطويعاً في المستقبل القريب. وهكذا يستطيع كل منا أن يشحن جهاز الأيبود أو هاتفه وأجهزته الإلكترونية الأخرى بترك أي منها في جيب قميصه أو بنطاله. هذا ما يتصوره ليانغبنغ حول ما يطلق عليه اسم «الأجهزة الملبوسة». فسيصبح بإمكان المرء أن يوصل أجهزته بملابسه التي تحوي الجرافين المشحون بالطاقة، وسيحتاج إلى شحن ملابسه بالكهرباء مساءً، استعداداً لليوم التالي.

هكذا سيكون أمامنا جيش من الإلكترونيات الخفيفة المزروعة في ملابسنا، أو تلك سهلة التعليق بها، من أجهزة تراقب صحتنا وتجمع المعلومات وتحضرها لها، وشاشات ملبوسة. وتحافظ ملابس الطاقة على خصائص الجرافين الكربونية حتى بعد الغسيل. ويمكن أن تستخدم كخلايا شمسية ومخازن للطاقة. ويقول ليانغبنغ والفريق الذي عمل على ذلك باستخدام الأنابيب النانوية، إنها ستكون أقل كلفة وأفضل أداء وأسهل على التصنيع فيما لو تحولوا من التقنية التي جربوها إلى تقنية مادة الجرافين.

ويعكف الباحثون اليوم على دراسة وسائل جديدة لإنتاج كميات وفيرة من الجرافين بأقل ما يمكن من الكلفة، للبدء



في استخدامها في حياتنا العامة. ويقول فريق في جامعة كامبردج إن بإمكان مادة الجرافين أن تسهم في جعل الخلايا الشمسية ومصابيح أشباه الموصلات (LED) أكثر كفاءة وأقل كلفة. إنهم لا يرون أن الجيل القادم من شاشات اللمس بعيداً عنا؛ شاشات مرنة مطواعة للتشكيل تعمل باللمس. هذا بالإضافة إلى أجهزة كشف الصور وأجهزة الاستشعار والتحسس وتخزين الهيدروجين وصناعة أجهزة الليزر فائقة السرعة.

ويذكر أندريه جيم أن الجرافين قد يوفر للعاملين في «سيرن» (المصادم الهيدروني الكبير) بالقرب من جينيف ما لم يكونوا يحلمون به، وهي مادة تنقل الإلكترون عبر شبكة ثنائية البعد ذات مقاومة كهربائية تساوي الصفر. إن ذلك يجعل من الجرافين مادة ناقلة للطاقة بلا مقاومة، وبهذا يكون الجرافين قد دخل عالمي ما فوق وما تحت الحجم الذري.

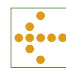
مستقبل أبحاث الجرافين

في المجتمع العلمي، صدر حتى الآن أكثر من 30,000 ورقة علمية تهتم بالجرافين. لقد اشتغل عليها الباحثون كشفاً عن ميزاتها وخصائصها وتحضيرها بطرق رخيصة مما يوفرها لكل الطموحات المتصورة. وكان معظم ما كتب من دراسات حول خصائص الجرافين، ما يقول أندريه، يتعلق بالتوصيل والكهرباء. أما إذا التفت الباحثون إلى غير هذه الخصائص الكهربائية، فإن هناك عاصفة جديدة من الأفكار التي تستحق البحث وتأتي بكثير من الجديد الواعد على الصعيد النظري والتطبيقي.

ها هي المعرفة تتضخم وتتضح بسرعة كبيرة عن مادة الجرافين، كيف ننتجها ونستخدمها. وكل ما ننتظره الآن هو إنتاجها بكميات أقل كلفة ووفرة عالية. وإذا حدث ذلك، فسنشرع في قلب ورقة من تاريخ الإنسانية التقني، ونتوجه إلى عصر جديد يعتمد استخدام مادة مرنة قوية، وفي الوقت نفسه تتشكل كما نشاء.

قصة ابتكار

المكتبــة العـامة



يعتبـر الكثيـرون وجـود المكتبـات العامـة فـي مدينتهـم أمـراً بديهيـاً، فتفوتهـم حكاية هذه الصـروح التـي تعدها المجتمعات من العوامـل الأساسية المساعدة على نشـر العلم والثقافة في صفوف أبنائها.

لقـد عـرف العالـم القديم المكتبات الكبرى، ولكـن الانتفاع منها كان حكراً علـى العلماء والحكام، مثل مكتبة الإسكندرية. وفي زمن الإمبراطورية الرومانية أنشئت في الغرف الجافة من الحمامات مكتبات كان يحـق لـرواد الحمام فقط أن يطالعوا مـا فيها. أما المكتبة العامة بمفهومها المتعارف عليه اليوم، كصرح مفتوح لعامة الناس حيث يمكنهم مطالعة محتوياتها، فقد كان ظهورها على أيدي العرب بدءاً مـن القـرن الثامـن الميـلادي، من خـلال ما عرف بـدور العلوم، التي أنشئت في بغـداد أولاً، ثم راحت تنتشـر فـي بـلاد الشام وشمال إفريقيـا. وكانت مفتوحة لـكل طالب علم وقراءة، وبعضهـا وضع نظاماً لإعارة الكتب، وامتنع بعضها عن ذلك.

والمدهش أن نحـو سبعـة قرون من الزمن مرت قبـل أن تظهر أولى المكتبات العامـة في أوروبا، وكان ذلـك عام 1452م في مدينـة كاسينا الإيطالية، وبعد ذلك بقرن ونصف القرن تقريباً وتحديداً عام 1598م وصل مفهوم المكتبة العامة إلى لينكولنشاير في إنجلترا. وفي القرن التالي ظهر عدد آخر من المكتبات العامة في بريطانيا، كما ظهرت المكتبات العامـة الثـلاث الأولى فـي أمريكا في كل من بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا. وفي حيـن أن بعض الدول مثل المكسيك عرفت فـي القرن نفسه ظهور أول مكتبة عامة، فـإن بلدانـاً كانت أكثر تطوراً منها مثل فرنسا لـم تظهر فيها أول مكتبة عامة إلا في عام 1737م، وفي مدينة سوليو الصغيرة وليس في العاصمة.



فـي أواخـر القرن الثامن عشر، طرأ تحول مهم على عالم المكتبات العامة، فقد ارتفعت أسعـار الكتـب آنذاك بشكل حاد (وصل ثمن الكتاب المتوسط في لندن إلى جنيه ذهبي)، مما أدى إلى تهافت العامة على هذه المكتبات، التي لم تعد قادرة على الاستمرار والنمو بجهـود فرديـة، فدخلت الحكومـات أينما كان في العالم على خـط رعايتها وتمويلها من عائـدات الضرائـب. وخـلال القرنين الماضيين أصبح وجود مكتبـة عامة شرطاً لا غنى عنـه فـي أية مدينـة في العالم، ورعايتها واجباً حكوميـاً، وإن احتاج الكثير منها إلى دعم مؤسسـات أهليـة أو «جمعيـات أصدقاء» يجمعون التبرعات لهـا. وحتى عقود قليلة خلت، كانـت المكتبـات تنمو بغذاء واحد، ضم المزيد من الإصدارات الجديدة إلى مجموعتها. وعندمـا كانـت تضيق بمحتوياتها، كانت تفتح فروعاً لها في مدن أو بلدات مجاورة، مثل مكتبة بوسطن التي فتحت أكثر من عشرين فرعاً لها في أنحاء ولاية ماساتشوستس.

وبخـلاف مـا يراه البعض أثـراً سلبياً للتقنيـة الرقمية على الكتـاب المطبوع، أمدت هـذه التقنية المكتبات العامة بـدم جديد. فبسرعة، استوعبت هذه المكتبات التقنية الجديـدة، ووفـرت لمرتاديهـا أجهـزة كمبيوتـر وخدمة إنترنـت مفتوحـة ومجانية، وأضافـت إلـى مهمتها الأساسية مهمة جديـدة: «ردم الهوة بين التقليدي والرقمي». ففي العام 2006م، كان 72.5% من فروع المكتبات العامة في أمريكا، الأماكن الوحيدة التي توفر خدمة إنترنت مجانية. وفـي العـام 2008م، كان 73.4% مـن هذه المكتبـات يقدِّم لمرتاديـه تدريباً تقنياً علـى استخدام أجهزة الكمبيوتـر وبرامجها المختلفة. الأمر الذي يشير إلى المسافة التي قطعها مفهوم المكتبة العامة منذ أن كان حق الانتفاع منها محصوراً في مرتادي الحمامات في روما.

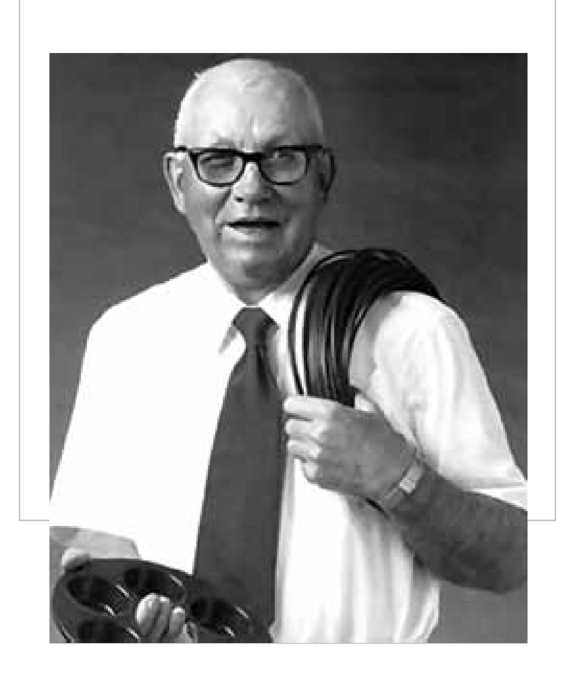
قصة مبتكر

روي بلنكيـــــــت

ولـد روي بلنكيت فـي العام 1910م بولايـة أوهايـو الأمريكية. وبعـد أن أتم دراسته الثانوية، التحق بجامعة مانشستر ليدرس الكيمياء، وحصل على درجة البكالوريوس في العام 1932م، ثم على درجة الماجستير في نفس التخصص من جامعة أوهايو في العام 1933م، ثم الدكتوراة في العام 1936م.

بعد حصوله على الدكتوراة، بدأ بلنكيت العمل في شركة «دوبون» لأبحاث الكيماويات بولاية نيوجيرسي الأمريكيـة. حيث كلفته الشركة بواحد مـن مشروعاتها الخاصة بتطوير منتجات جديدة تستخدم في صناعة التبريد. ومثل كثير من قصص الابتكار، فقد قاده خطأ غير مقصود إلى اكتشاف مهم.

كان ذلك في أحد أيام ربيع العام 1938م، عندما كان بلنكيت يختبر التفاعلات الكيميائية لغاز «تترافلورو إيثيلين»، لكن إحدى عبوات الغاز المضغوط لم تستطع أن تطلق محتواها حين فتح بلنكيت ومساعده جاك ريبوك صمامها. ترك الاثنان العبوة جانباً وأكملا العمل المطلوب. لكن ريبوك تنبه لاحقاً إلى أن وزن العبوة أثقل مـن أن تكون فارغة. ولهذا اقترح على بلنكيت أن يقوم بفحصها ليرى ماذا حلَّ بالغاز داخلها. ورغم احتمال انفجار العبوة، إلا أن الفضول العلمي دفع بلنكيت إلى الموافقة على هذا الاقتراح. وكانت دهشته عارمة، حين فتح العبوة ليجد أن الغاز بداخلها قد تحول إلى مسحوق أبيض. وباختبار خواص هذا المسحوق، وجد أن حبيباته شديدة النعومة، وله درجة ذوبان عالية للغاية. كما أنه خامل ولا يتفاعل مع غيره من المواد.



بدأ بلنكيت بحثه لمعرفة السبب الذي أدى إلى تحول الغاز إلى هذا المسحوق. فاكتشف أن جزيئات الغاز قد «تبلمرت»، أي ارتبطت ببعضها، وكونت مركباً جديداً هو «بولي تترافلورو إيثيلين». وجاءت خواص هذا المركب المثيرة للاهتمام، نتيجة للطريقة التي كونت بها ذرات الفلور ما يشبه الدرع الواقي الذي يحمي بقية هيكله. واستمرت أبحاث بلنكيت على هذا المركب، حتى تتضح كل خواصه أمامه، ويصل إلى طريقة لتحويل غاز «تترافلورو إيثيلين» إلى «البولي تترافلورو إيثيلين» في المعمل.

في العام 1941م توصل بلنكيت إلى طريقة تحضير مركبه معملياً، وسجل لهذه الطريقة براءة اختراع تحمل اسمه. وكان مـن الضروري أن يحصل المركب على اسم تجاري، لما يحمله من إمكانات واعدة لدخوله في العديد من الصناعات. وتم اختيار اسم «تفلون» ليكون الاسم الذي يحمله هذا المركب الجديد في الأوساط الصناعية والتجارية. وسرعان ما أصبح مادة أساسية في تصنيع المعدات الثقيلة والآلات الضخمة والمركبات العسكرية. لكن العصر الذهبي للتفلون بدأ حين وجد استخدامه الأشهر، كسطح غير قابل للالتصاق في أواني الطهو المختلفة. وكان أول من توصَّل إلى هذا الاستخدام، المهندس الفرنسي مارك جريجوار الذي صمم أول مقلاة مغطاة بسطح غير لاصق، تحت الاسم التجاري «تيفال».

في العام 1975م تقاعد بلينكت من عمله في شركة دوبون. وقبيل تقاعده بسنة، تم تسجيل اسمه على «لائحة مشاهير الصناعات البلاستيكية». وفي العام 1985م، تم إدراج اسمه ضمن «مشاهير المخترعين». وعندما توفي في العام 1994م، اعترفت الأوساط الأكاديمية والصناعية بأن الرجل كان من أبرز علماء الكيمياء في القرن العشرين.

اطلب العلم

العلوم في عقد السبعة بلايين نسمة

خلال العام الجاري 2011م، سيبلغ عدد سكان العالم سبعة بلايين نسمة، حسبما أعلنت المصادر المتخصصة في الأمم المتحدة. وهو ضعفا ما كان عليه عدد سكان العالم قبل 40 سنة فقط.

ولو ألقينا نظرة على ما كانت عليه أحوال العلوم (وبالتالي التعليم) خلال العقود الأخيرة، لوجدنا أن معظمه كان مبنياً على أساس يولي النوعية الجيدة والأكثر تطوراً، أهمية تلك التي كانت (ولا تزال) تُعلَّق على الكم. حتى كادت مفاهيم مثل «الابتكار» و«التطوير» أن تنحصر في إطار التقنيات التي تجعل حياة الفرد أسهل مما كانت عليه، والمنتجات من حوله قادرة أكثر من سابقاتها على تأدية الوظائف المطلوبة منها. فما من سنة إلا وحملت إلينا طرازاً جديداً من كل ما نستخدمه في حياتنا، بدءاً بجهاز التلفزيون، وصولاً إلى الأدوية. ولكن إلى متى يمكن أن يستمر غرق العلم والعلوم في الأجزاء والتفاصيل؟

خلال السنوات الماضية (أو ربما العقود القليلة الماضية)، عندما كانت البشرية تسير صوب رقم السبعة بلايين نسمة. أطلَّت قضايا جديدة برأسها لتشغل رؤوس السياسين والعلماء سوية وعلى حد سواء.

التغير المناخي، المجاعات المحتملة، الفقر، التلوث، الإفراط في استهلاك الطاقة، عواقب تضخم المدن على الصعد البيئية والاجتماعية، أزمات المياه، الأمية، الأحوال الصحية...إلخ. ومثل هذه القضايا التي ما كانت لتظهر قبل أكثر من نصف قرن، صارت ذات ضغط متصاعد على حكومات العالم وعلمائه، تفرض عليهم البحث عن حلول. ومما لا شك فيه أن اليوم الذي سيعلن فيه عن وصول عدد سكان العالم إلى سبعة بلايين نسمة، سيشكل محطة (إعلامياً على الأقل)، تزيد من ضغط مثل هذه القضايا.

والسؤال هو: كيف السبيل إلى المواجهة وإيجاد الحلول؟

الحاجة هي أم الابتكار والاختراع. وستفرض هذه الحاجات الجديدة نفسها على العلوم والتعليم أكثر من أي وقت مضى. فعلم الأرصاد الجوية مثلاً، الذي لم يكن يثير اهتمامات الكثيرين كتخصص جامعي قبل نصف قرن، لأن مجال التوظيف فيه كان شبه منحصر في المطارات، صار في السنوات الأخيرة علماً متشعباً، تتعطش إلى خريجيه الجامعات ومراكز الأبحاث ومؤسسات عديدة.

وقس على ذلك باقي المجالات والتحديات، مثل إدارة المياه، توفير الطاقة، التلوث البيئي، تهديد أجناس حية بالانقراض، الزراعة وتطويرها لإطعام سبعة بلايين شخص.. كلها تحظى باهتمام ملحوظ في يومنا. ولكن من المرجح أنها ستتطلب اهتماماً مضاعفاً عدة مرات خلال العقد المقبل. وتتفرع عن العلوم الخاصة بهذه المجالات علوم وتخصصات كثيرة، يرجح كثيرون أن تغير هيئة التعليم الجامعي في العالم. وما البرامج والتخصصات الجديدة التي يتضاعف عددها في جامعات العالم عاماً بعد عام، إلا مؤشر لما سيكون عليه التعليم العالمي خلال السنوات المقبلة، وأيضاً لما ستكون عليه فرص العمل المفتوحة وفي أية مجالات.

وبإلقاء نظرة استعادية شاملة على مسيرة العلم والتعليم كما كانت خلال العقود القليلة الماضية، وما ستكون عليه خلال السنوات المقبلة، يمكننا أن نوجز هذه المسيرة بالقول إن العلم والتعليم يعودان إلى التطلع صوب المسائل الكبرى، بعدما غرقا لفترة في الاهتمام بالمنجزات التطويرية الصغيرة، أو ربما يصح القول، إنها يعودان إلى إصلاح ما أفسده التركيز الفائق على الإنجازات التطويرية الصغيرة.

الدكتورة علياء الزيني

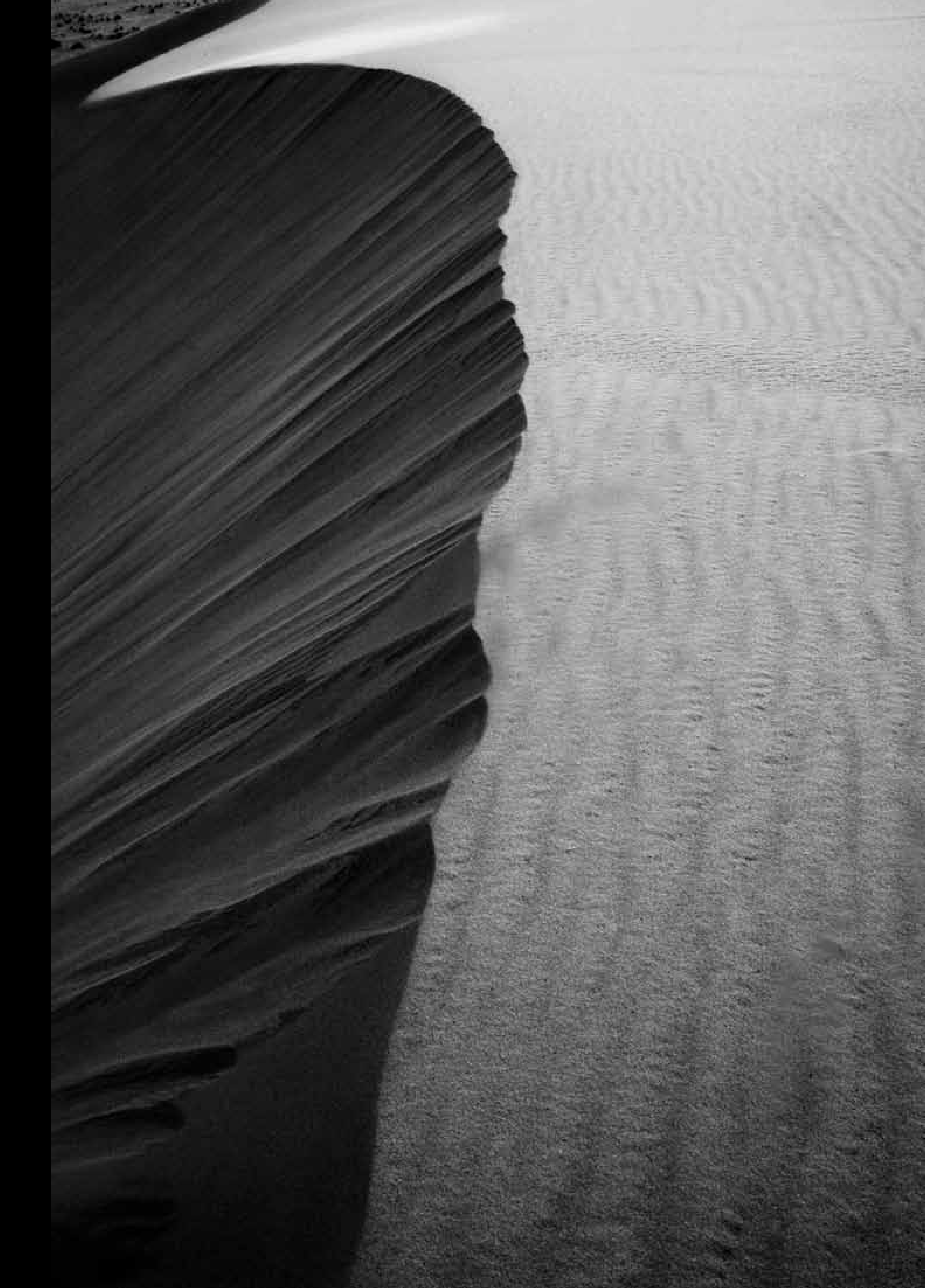
الملف المصوّر
أروى غوّاص

ترسم الريح حركة
الطير كما تشكّل
منحنيات الصخور،
فتتشابه!
وعلى الرمال تعزف
لحناً شجيّاً
وتعيد عزفه.
وما الموج.. من أرقّه
حتى أعنفه إلا
أوتار الرّيح
ودفوفها.
القي ذراعيك للريح
أيتها الفتاة
وإن هي أخذت منك
سترتك المزخرفة
لا بأس، تجدين
زخارفها غداً
منقوشة على صخر.
...يا للريح!

ك.ح.













أروى غواص

مصوِّرة سعودية تلقَّت دورات تدريبية عديدة، وشاركت في أكثر من 20 معرضاً في مختلف أرجاء المملكة، إضافة إلى بعض المعارض العالمية في المغرب وبلجيكا وكندا، وهي عضوة في «جماعة التصوير الضوئي» بالأحساء و«نساء فوتو» في القطيف، والعديد من المنتديات المتخصصة في التصوير الضوئي.

لوّن حياتك

وطّن نفسك للمفاجأة، حلوة كانت أو ضد ذلك. ابتسم للوردة، تلك التي لم تأتِ إلى شرفتك عبثاً. وتناول كأس مشروبك المفضَّل، كما لو كنتَ تحضر حفلَ تخرجك. قدر ما تطيق، استمتع بهذي الحياة؛ لأن الوقت أقصر من أن نمضّيه حزناً، أو على دكّة انتظار.

كم طفلاً، يشعر الآن بصداقتك المخلّصة له، يعاملك كند. يشكو إليكَ غياب حلواه، ويحكي لك للمرَّة الأربعين، نكتته المائتة ضحكاً. كم عاملاً في مدينتك، يشعر أنك أخوه الذي جاء من بلاده البعيدة، تمسح عنه عرق روحه، وتتودّد إليه بالسؤال عن عائلته وبنيه المنتظرين لهفة تمتد من وراء البحارِ، إلى عمق الصحراء هذه.

تجيء المواسم، وترحل. تترك عليك ضغطها، وشغلها. إن خرجت من أتون الصيف وسفراته وخططه. جاءك رمضان بعبادته وتسوقه وأماسيه. سيحلّ بك العيد. وستأتي الدراسة من جديد. سيجيء الحج، وتكون له أفكارك التي تريد. وطّن نفسكَ أنك عائش بسعادة كل موسم يعبر. لا يحزنك الخريف، ولا يبللك الشتاء.

تحتاج الحياة لمن يعاملها بحنكة جَد، وبسمة طفل، وحنوّ أم، وقسوة أب، ومشورة أخ. لكل وقت ما يريده، لا ما يفرضه، ولكل فرصة انتهازتها.

تمور من أمامنا الحياة، تأخذ، لكنها أيضاً تعطي. لا تنظر إلى الذين رحلوا، قدر أن تبسم للذين يجيئون. لا تعوّد كفك التلويح للمغادرينَ، قدر أن تمرّسه على مصافحة الآتين.

لم يعد الأمر ترك القلق؛ أصبح العالم أكثر بؤساً من أن يعطيك رفاهية اختيار كهذه. بل أن تعرف كيف تروّض هذا القلق، كيف تحكي له حكايا الثقة حتى ينام. ولم تعد المسألة أن تبدأ الحياة. بل أن يتأخر الموت، ذاك الذي يقتنصنا بكل نشرة إخبارية وطريق سريع.

لوِّن حياتك، اصبغ دروبها بورديّة الفرح، وسماويّة البهجة، واخضرار المروج. هب حيطان منزلك ألواناً، ولو قاتمة. المهمّ ألاَّ تعتاد روتينيّة بياض النهار، واسوداد الليل. بل اغرق في خضرة الأشجار وزرقة المياه وصفاء السماء وفضيّة القمر.

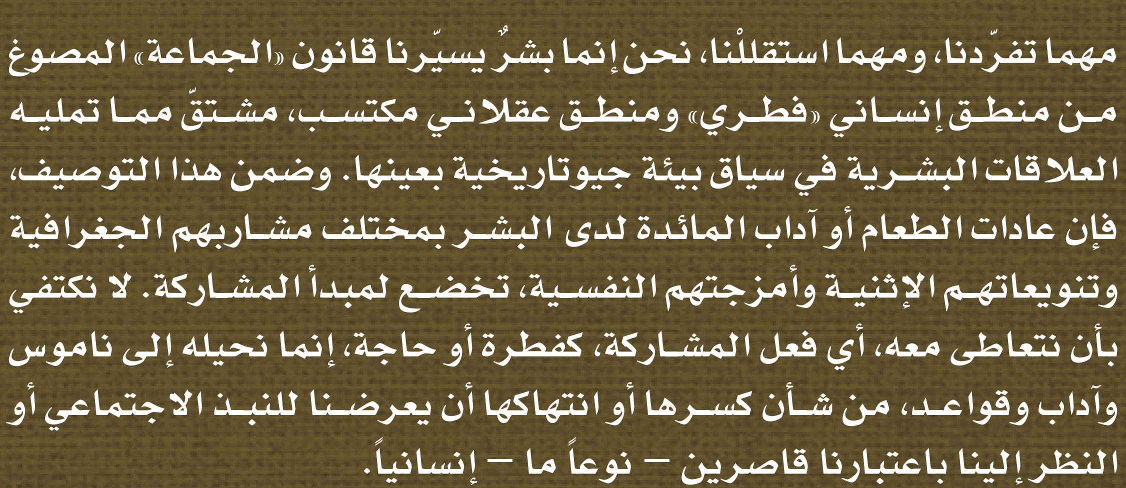
صادق من استطعت. تبسم لكل عابر. اجعل من إشارات المرور الكئيبة، مواقيت استذكارٍ، لأولئك الذين ستدوّخهم اليوم بتذكرٍ، أو سلامٍ، أو رسالة حلوةٍ، أو هدية مفاجأة.

وظِّف ملكة البهجةِ أكثرَ وأكثرَ في عوالمك اليومية. ابتسم حتى لصورتك في مرايا العرض، وواجهات محلات الشوارع. حلّ قهوتكَ، مهما تكن مرارتها. وانظر: هل زادت نجوم السماء هذه الليلة واحدة.

لا شيء يمكنه خنقكَ، ما لم تكن رقبتك قريبة من قبضات القلق. العالم الذي يموت اليوم فيه من ضحايا القلق والكآبة، ثلاثة أضعاف ما كان يموت سابقاً، يحتاج لبسمات أوسع. لقلوب أكثر انشراحاً وبهجة وسروراً. تنفق اليابان وحدها 3 مليارات دولار لأجل أن تكافح القلق والانتحار كلّ عام. ماذا تقول البلدان الأخرى إذن. افرح يا صديقي، وغنّ للحياة. الحياة الآتية كصفحة بيضاء. ممتدة البراءة. هات ألوانك، وتعال نرسم قوسَ قزح.



عادات المائدة..
انتصار الثقافة والعُرْف على الجوع



مهما تفرّدنا، ومهما استقللْنا، نحن إنما بشرٌ يسيّرنا قانون «الجماعة» المصوغ من منطق إنساني «فطري» ومنطق عقلاني مكتسب، مشتقّ مما تمليه العلاقات البشرية في سياق بيئة جيوتاريخية بعينها. وضمن هذا التوصيف، فإن عادات الطعام أو آداب المائدة لدى البشر بمختلف مشاربهم الجغرافية وتنويعاتهم الإثنية وأمزجتهم النفسية، تخضع لمبدأ المشاركة. لا نكتفي بأن نتعاطى معه، أي فعل المشاركة، كفطرة أو حاجة، إنما نحيله إلى ناموس وآداب وقواعد، من شأن كسرها أو انتهاكها أن يعرضنا للنبذ الاجتماعي أو النظر إلينا باعتبارنا قاصرين – نوعاً ما – إنسانياً.

ولأن آداب المائدة ليست واحدة، وغير مرشحة للعولمة في المستقبل المنظور، وتختلف ليس فقط بين ثقافة وأخرى، بل أحياناً ما بين بلدة وأخرى مجاورة لها، أو حتى ضمن القرية الواحدة، فإن حزامة حبايب تتناول هنا نماذج من هذه الآداب، فتعرض لنا تاريخها، وتغلغل جذورها في مفاهيم اجتماعية لا تمت بصلة مباشرة إلى الطعام بحد ذاته. ففي النهاية، ليس المهم ما نأكل، وإنما كيف نأكل، ومع من نأكل..



تشكِّل مشاركة وجبة طعام مع آخرين، ضمن قواعد مرعيّة، واحدة من أوضح صيغ التعبير عن سمة الوجود البشري، وهو تعبير يفصلنا عن «الاقتتال» الشرس بين الكائنات الأخرى على الطعام.

في البدء، كان الطعام فريسة تُنهش، لكنّ الفطرة الإنسانية التي تخففت مع التاريخ والتشذيب القسري من ربقة الجوع والنهم، حوّلت الطعام إلى حاجة، فاشتهاء، فمشاركة في اقتسام الحاجة والاشتهاء، ثم ارتقتْ به إلى متعة للعين واللسان، وما لفّ لفّهما من حواس.

لم يعد يسدّ جوع البشر ما هو متاح، وحتى ضمن المتاح. فإنّ للطعام طقساً في الإعداد والتوضيب على مراحل، تخطّى كثيراً طقس «الصيد» البدائي؛ ويصل إلى ذروته في الطبخ أو الطهو، وما يقترن بذلك من إضافات من تبهير وتنكيه (من النكهة) وتزيين، في عملية منتخبة تجعل الطهو فعلاً إنسانياً خالصاً. لذا، لا يبدو من المستهجن أن يذهب عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي ستروس في دراسته المرجعية «أصول آداب المائدة»، إلى الزعم بأن الطهو يشكل الأساس الأول للتطور الثقافي البشري.

في محاولتهم لاقتفاء جذور وجبة الطعام الإنسانية، كفعل أكل أكثر منه كطعام، يخلص المؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا إلى أن مشاركة البشر فيما بينهم الطعام، من خلال الجلوس معاً في حيز بعينه، على مائدة أو خلافها، حتّى وإن ضمت الـ«معاً» أشخاصاً غرباء تماماً، والخضوع الطوعي لأصول وقواعد بعينها، ضمن منظومة من «العادات» أو «الآداب»، هو ما يدخل في صلب التواصل الاجتماعي ويعدّ أساس التطور الإنساني. هذه المنظومة يُشار لها بـ«آداب المائدة»، وهي ليست معنية بماذا نأكل أو نشرب، وإنما كيف نأكل ما نأكل وكيف نشرب ما نشرب في إطار الجماعة البشرية، التي منها نبدأ وإليها نؤول. إن الطعام لم يعد حاجة وفقط، وإنما هو انتماء ثقافي وحضاري، ومشاركة الطعام، في إطار سلوكيات بعينها، هو تعبير عن هذا الانتماء.

رفاق الخبز

إن الجماعة، لا الفرد، هي الأساس الذي قامت عليه البشرية. وليس صدفة أن تكون كلمة «جماعة» باللغة الإنجليزية «company» مشتقة من اللغة اللاتينية حيث تعني «خبز مع»، أي «أولئك الذين يتقاسمون الخبز

فيما بينهم». وهكذا، لا يبدو من قبيل الارتجال أن يقترن الطعام والشراب منذ عصور غابرة بالمشاركة الجماعية. بل لقد رصد علماء الأنثروبولوجيا أنه حتى في الثقافات القبلية الأكثر بدائية ما إن «يكسر» الناس «الخبز» مع الغرباء أو يتناول الشراب معهم، حتى تنشأ علاقة مسالمة فيما بينهم. ومع تطور العلاقة، التي تبدأ بكسرة الخبز أو الشراب، فإنه يصبح لزاماً على الناس، رفاق الخبز، حماية بعضهم بعضاً في حال تعرض أي منهم إلى خطر ما. فالطعام، أو بالأحرى وجبة الطعام المشتركة، هي أساس السلم بين الشعوب. (قد يبدو لافتاً هنا أن نسترجع في أذهاننا العصرية بعض الصور التلفزيونية للمفاوضات بين أطراف متناحرة أو متخاصمة، إذ يجلسون على مائدة طويلة – لا يمكن أن تكون مستديرة بالتأكيد – بحيث يكون الخصوم المتحاورون وجهاً لوجه، في نقاش لا يخلو من احتدام وقد ينتهي إلى طريق مسدود، ومع ذلك نرى على الطاولة ماء وعصائر وفاكهة وموالح وحلويات خفيفة. قد لا تعمل هذه الأطعمة والمشروبات على إحلال السلام لكنّها في تلك اللحظة، لحظة المفاوضات العقيمة ربما، تكون كافية لتبريد الخلاف والخصومة نوعاً ما!).

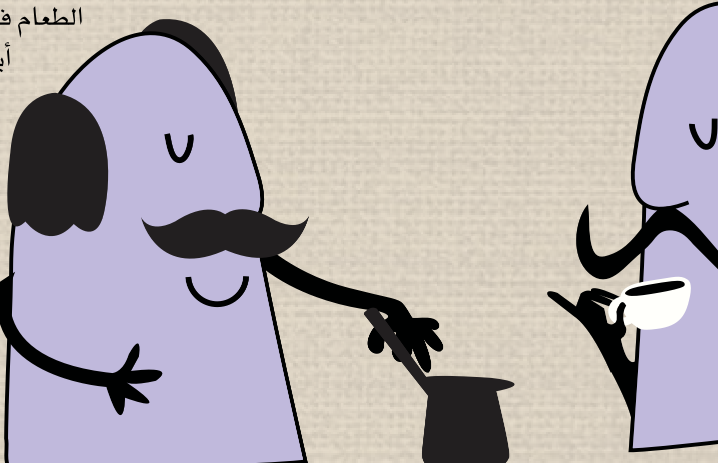
ففي كل الثقافات والمجتمعات، قديمها وحديثها، لا يبدو من الحكمة أو الحصافة بمكان رفض ما يُقدم للمرء من طعام أو شراب. فالعُرف والأدب يقتضيان أن نأكل ما يُقدَّم لنا كضيوف، والعُرف والأدب يقتضيان من المضيف «إكرام الضيف» أولاً. ولعل هذا العُرف يتجلى في أجل صوره في الثقافة العربية البدوية، التي تضع مبدأ «ثلاثة أيام» كحد أدنى يُكرم فيه الضيف «الغريب»، زائراً عابراً كان أم مستجيراً أم مطلوباً! بل إنه من العيب، كل العيب، أن تسأل شخصاً عن سبب زيارته أو حاجته، أو تجعله يفتح فمه بالكلام قبل أن تقدم له القهوة المحيية المرحبة، كأنك تقول له من خلالها: «أنت في وسطنا بأمان!» فإذا ما رفض الضيف قهوة مضيفه، عُدّت تلك إهانة ما بعدها إهانة!

الغذاء كطقس اجتماعي

من هنا، فإن أساس رقي المجتمعات الإنسانية يقاس بحجم القوانين التي تحكم علاقات الأفراد فيما بينهم ضمن وحدة الجماعة. والطعام أو مشاركة الطعام هو أحد هذه القوانين إن لم تكن أولها وأهمها. ذلك أن اقتسام الطعام وتوزيعه وفق أسس معينة كفيل بإحلال السلم والوئام، ومن دون هذه القوانين فإن الطعام من نصيب الأقوى جسدياً والأشرس، والأسرع في الوصول إلى اللقمة، وهذا ما يعني بالضرورة استثناء الأطفال والنساء وكبار السن، ومن في حكمهم من الضعفاء، وتركهم جوعى، والجوع يولد القهر، والقهر يولد العنف والعنف يقود إلى تفكك المجتمع. لكن المهم في مبدأ الرفقة هنا هو أن المشاركة في الأكل تغدو رمزاً لكل أنواع العلاقات، كما تدل على قبول قيم ثقافية بعينها، غير معنية بالأكل كمكوّنات أو كغذاء وإنما كطقس اجتماعي و«شعيرة» تفاعلية.

أنتَ تأكل، إذن أنتَ تعيش. أنتَ تأكل مع الجماعة، وفق قانون هذه الجماعة، إذن أنتَ تعيش بشكل أفضل وأرقى. فالأكل مع الجماعة يعكس انسجاماً موضوعيّاً وانتماءً، حتى وإن كان آنياً. أضف إلى ذلك أن طريقة الأكل التي تحددها ثقافة مجتمعية ما تضيء هوية المجتمع، بقدر ما تعكس مبادئه وأنماطه الفكرية والجمالية. والأكل الجماعي، بأنماطه القبلية ضمن ثقافة بدائية أو بأنماطه المدنية ضمن ثقافة مدينية متحضرة، يقتضي الاحترام، كمبدأ رئيس: احترام الطعام واحترام الجهد المبذول في طهوه وإعداده واحترام الناس الذين نأكل برفقتهم.

ولما كان الأكل عادة متكررة في اليوم، وعادة دورية كولائم ومآدب واحتفاليات، فإن ممارستها ضمن الأصول المحددة يعني إرساء ثقافة الأكل وإحالة التقاليد الاجتماعية أثناء الطعام في هذا الخصوص إلى ما يشبه طبيعة ثانية. أيا ما تكون عليه الحال، فإن آداب المائدة تظل في عرف التقاليد لا الأخلاق؛ والتقاليد تظل أقوى وأوقع تأثيراً من الأخلاق، ذلك أن التقاليد صنيعة اتفاق عام على كيفية التصرف في ظروف معينة، والتقاليد تستحيل مع تطور المجتمعات إلى ما يشبه إطاراً عاماً للسلوك المقبول، بحيث يمكن استخدامها لحماية السلطة والتمييز الطبقي، وهي مسألة قطعاً غير مرتبطة بالأخلاق.



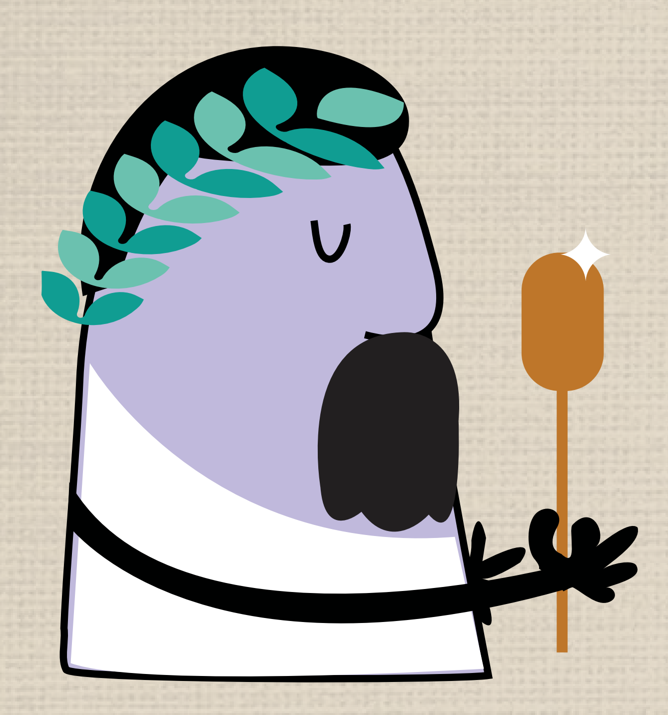
«تثوير» المائدة

يمكن القول إن آداب المائدة وُضعت منذ أن بسط الإنسان الطعام على «مائدته»، علماً بأن المائدة هنا هي مصطلح مجازي يشير إلى تجمع أشخاص حول وجبة طعام ولا تعني المائدة بالتوصيف المتعارف عليه، أي الطاولة. ولم تكن هذه الآداب لتتبلور في صيغة أكثر تعقيداً، تسم المبادئ التي يقوم عليها «إتيكيت» المائدة العصري، إلا باختراع أدوات المائدة.

لم تكن «آداب المائدة» لتتطور وتتهذب إلا من خلال اختراعين مهمين: أدوات المائدة ومائدة الطعام نفسها

نستطيع أن نتخيل أن السكين هي الفاصل الحاسم ما بين حقبة نهش الفريسة بالأيدي، وبين تقطيعها في خطوة أولى نوعية قطعها الإنسان نحو التحضّر. لكن وجود السكين على الطاولة أنذر باحتمال اندلاع العنف، وهو احتمال يُفترض أن آداب المائدة وجدت في الأساس لإقصائه أو على الأقل لتحييده. لذا شهدت سكين الطعام تهذيباً مع تقليص احتمالاتها «القاتلة» من خلال تصغير حجمها مع الوقت وتدوير رؤوسها فلا تكون مدببة وتخفيف «شرشرة» حوافها، اللهم في سكاكين معينة تستخدم لقطع الديك الرومي مثلاً أو لتقطيع لحم «الستيك»! (ويقال هنا إن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، الذي كان مفتوناً بالطعام وتوضيبه على مائدته، كان أول من أمر بأن تكون سكاكين المائدة ذات نهايات مدورة، وذلك في العام 1669م، وهو ما جعل تناول الطعام في حضرة السكاكين أقل مدعاة لعنف محتمل). من هذا المبدأ نفسه، تتفق معظم ثقافات العالم الراهنة على أنه لا يجوز أبداً تسديد السكين، في وجه رفاق المائدة، وتحريكها في وجوههم أثناء الكلام أو الأكل. وعند وضع السكين على الطاولة، يجب أن يكون حدها إلى الداخل لا باتجاه الخارج، ويفضل التقليل من استخدام السكين في الأكل قدر الإمكان، والاستعاضة عنها بالملعقة أو الشوكة للتقطيع. كذلك، من غير المقبول إمساك السكين بقبضة اليد بصورة عمودية، فذلك علامة على التحفز للهجوم، وهذه بحد ذاتها جريمة من جرائم «آداب المائدة»!

لم تكن «آداب المائدة» لتتطور وتتهذب إلا من خلال اختراعين أساسيين: أدوات المائدة ومائدة الطعام نفسها. يعتقد أن السكين والشوكة وُجدتا منذ الأزل، لكنهما كانتا تستخدمان لكل الأغراض المتخيلة، التي سهّلت الوجود البشري الأول، ولم تكونا أداتي أكل. قد تكون أول أداة استخدمها الإنسان في الأكل هي أداة شبيهة بالملعقة، حيث تشير التنقيبات الأثرية إلى أن الإنسان الأول عرف صيغة قريبة من الملعقة في العصر الحجري القديم!



واستخدم الرومان والإغريق ملاعق من البرونز والفضة، كما عثر في قبور المصريين القدماء على ملاعق من الخشب والحجارة والعاج. وأثناء العصور الوسطى في أوروبا، استخدم الأثرياء ملاعق كبيرة مصنوعة من الفضة المطروقة، فيما اكتفى الفقراء بملاعق مصنوعة من الخشب والعظام. وعلى الرغم من أن السكين اختراع سابق للملعقة، إلا أنها ظلت لقرون أداة تقطيع، ولم توضع على المائدة، في شكلها المهذب إلا في القرن السابع عشر. وفيما يتعلق بأطباق الطعام، فعلى الرغم من أن الحضارات البشرية ابتكرت أطباقاً من المعدن والخشب والخزف، فعرفها الإغريق والرومان والأشوريون والمصريون وكذلك قدماء المكسيك والبيرو والمايا والإنكا والصينيون، إلا أن الثابت أن الطبق ظل لقرون أداة طعام جماعية، يغرف منه الجميع على المائدة، ولم يكتسب قيمته كأداة طعام للاستخدام الفردي، إلا لاحقاً.

الشوكة ورحلتها عبر العالم

هنا، قد تكون شوكة الطعام أداة الطعام الأكثر ثورية في هذا السياق، على اعتبار أن السكين وإن سبقتها إلا أنها ظلت مقترنة بالتقطيع أكثر منه بتناول الطعام. كذلك فإن ملعقة الطعام ظلت محصورة بتناول أطعمة معينة كالشوربة، كما كانت للسكب وتوزيع الطعام أكثر منه لتناوله بها، على غرار «الكفكيرة» أو «المغرفة» المستخدمة حالياً، وظل الناس يعتمدون على أيديهم في تناول اللحوم وأنواع الأطعمة «الصلبة». وبالتالي، قد تكون الشوكة هي أداة المائدة الأولى التي أسبغت على الطعام تجربة فردية، وقدراً أكبر من الخصوصية في إطار التجربة الجماعية الأكبر للأكل.



تمتدّ جذور شوكة المطبخ إلى زمن الإغريق، حيث كانت كبيرة، بطرفين طويلين مدببين. وكانت تستخدم مع السكين لتيسير عملية تقطيع اللحم. وعرف الرومان الشوكة واستخدموها في القرن الثاني للميلاد. وبحلول القرن السابع، ظهرت الشوكة في بلاد الشام ومنطقة «الشرق الأوسط» عموماً. ومن القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر للميلاد، شاع استخدام شوكة الطعام في مدينة بيزنطة اليونانية، وفي القرن الحادي عشر انتقلت الشوكة إلى إيطاليا، لكن الإيطاليين لم يفتنوا بأداة الطعام الجديدة، فتأخر استخدامها، ولم تصبح رائجة إلا في القرن السادس عشر. في العام 1533 ميلادية، سافرت الشوكة من إيطاليا إلى فرنسا حين تزوجت الإيطالية كاترينا دي ميديشي (أو «كاترين دي ميديسي»، كما تعرف بالفرنسية) بملك فرنسا المستقبلي هنري الثاني. لكن الفرنسيين لم يتقبلوا الشوكة على مائدتهم بسرعة. ومع مطلع القرن السابع عشر، وصلت الشوكة إلى إنجلترا على يد رجل إنجليزي يدعى توماس كوريت، بعد أن شاهدها أثناء سفره إلى إيطاليا. غير أن الإنجليز استخفوا بها، متسائلين باستهجان: «لماذا يستخدم الفرد الشوكة للأكل بينما أعطاه الله يديه لهذا الغرض؟!» لكن الشوكة تسللت إلى موائد الأثرياء ببطء، متخلية عن وظيفتها المساعدة للسكين في المطبخ متحولة إلى أداة أكل رئيسة، ومقترنة مع الوقت بالحصافة والكياسة ومنتهى الذوق. ذلك أن المرء بات ينهض من على المائدة بيدين وأصابع نظيفة، لم تعلق بها بقايا لحم أو شحم! ومع انتقال الشوكة إلى الطبقات الوسطى، احتلت هذه الأداة الصغيرة، بسيطة التصميم متعددة الأشكال والأحجام والاستخدامات، صدارة التعليمات الدقيقة الخاصة بـ«إتيكيت» المائدة.

والحديث عن أدوات الطعام يقودنا إلى عادة لا تزال سائدة في العديد من المجتمعات، من بينها المجتمعات العربية

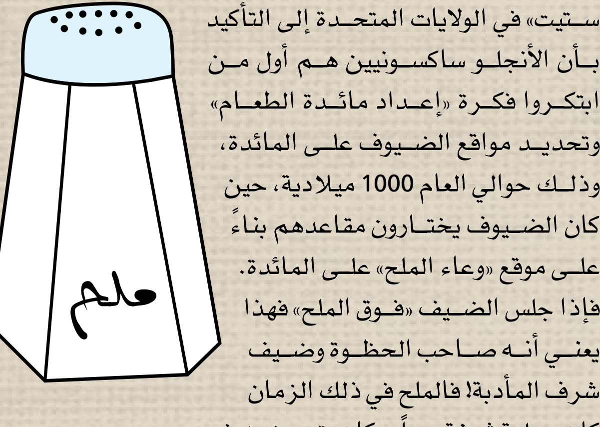
البدوية، وهي الأكل باستخدام أصابع اليد. وعلى الرغم مما تبدو عليه هذه العادة من بدائية وارتجال، إلا أنها محكومة في واقع الأمر بقوانين شائكة؛ إذ لا يجب استخدام سوى اليد اليمني في الأكل (في تقليد صارم يتقاسمه الهنود، الذين لا يمسون الطعام باليد اليسرى أبداً)، ولا بد من تناول اللقمة بالأصابع لا بكفة اليد، كما لا يجب دفع الطعام في الفم دفعاً، وإدخال كل أصابع اليد في الفم، فهذا سلوك ينم عن شره. وللعلم فإن الأكل باستخدام أصابع اليد تقليد شائع على مدى عصور البشرية، فقد مارسه الإغريق والرومان لأكثر من ألف عام، حين كانوا يأكلون وهم شبه مستلقين على الأرائك، مستخدمين في ذلك كلتا اليدين.

معظم الثقافات تقتضي من الضيف الحضور في الموعد، وفي الغرب الأوروبي، يتخذ الالتزام بالمواعيد طابع القداسة

«فوق الملح» و«تحت الملح»

يختلف الدارسون في الاتفاق على تاريخ بعينه يشكل منعطفاً واضحاً في اختراع «إتيكيت المائدة»، أي كيفية ترتيب المائدة وإعدادها وتحديد صيغة جلوس الضيوف عليها. المؤكد أن الإنسان عرف المائدة منذ أن عمّر البسيطة، عبر لوح حجري وضع عليه رجل الكهف فريسته الأولى، ثم تطور هذا اللوح الحجري إلى لوح خشبي، تم رفعه عن الأرض بقوائم أو أرجل، ضمن مراحل تطورية لعب فيها الإغريق والرومان والمصريون القدماء دوراً مشهوداً لهم به. ومن الأرض، جلس الإنسان على حجارة صغيرة كمقاعد، فأرائك تتسع لأكثر من شخص، فكراسي مفردة، تؤمن للفرد خصوصية أكبر.

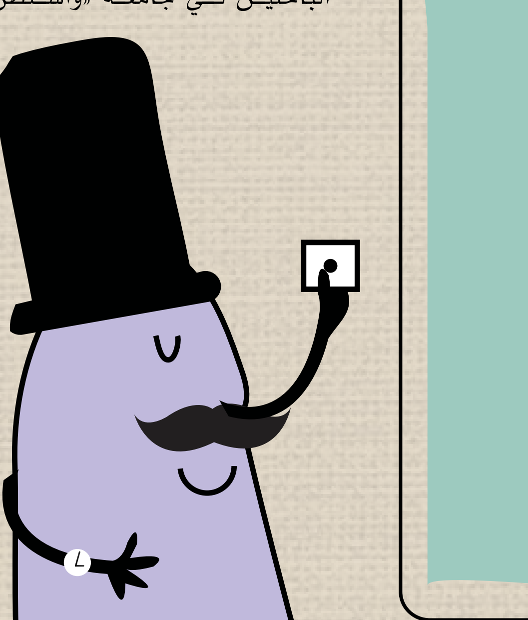
لكن «إتيكيت المائدة» مسألة أخرى. في هذا الطرح، ينبري فريق من الباحثين في جامعة «واشنطن ستيت» في الولايات المتحدة إلى التأكيد بأن الأنجلو ساكسونيين هم أول من ابتكروا فكرة «إعداد مائدة الطعام» وتحديد مواقع الضيوف على المائدة، وذلك حوالي العام 1000 ميلادية، حين كان الضيوف يختارون مقاعدهم بناءً على موقع «وعاء الملح» على المائدة. فإذا جلس الضيف «فوق الملح» فهذا يعني أنه صاحب الحظوة وضيف شرف المأدبة! فالملح في ذلك الزمان كان سلعة ثمينة جداً، وكان يتم وضعه في وعاء من الزجاج أو الفضة بزخارف ونقوش مميزة كرمز على بذخ أهل البيت، وكلما كان الوعاء كبيراً، دلّ على أن مخزونهم من الملح الثمين فائض! وكانت مكانة الضيف الاجتماعية تُقيّم ببساطة من خلال حجم المسافة بينه وبين وعاء الملح على المائدة، فكلما جلس الضيف بالقرب من الوعاء دلَّ ذلك على مكانته الرفيعة، علماً بأن وعاء الملح يكون موضوعاً في منتصف المائدة، حيث يُقال بأن فلاناً الفلاني يجلس «فوق الملح»، أي بالقرب منه، فإذا جلس في مكان بعيد قيل إنه يجلس «تحت الملح»! قد لا يكون الملح معياراً لمخطط الجلوس على المائدة في يومنا هذا، لكن قطعاً ثمة تراتبية يتم التخطيط لها بحذر عند توضيب مائدة طعام رسمية لضيوف كبار! إلى ذلك، يقال بأنّ الأنجلو ساكسونيين هم أول من قام بوضع ملاءات وأغطية على الطاولات الخشبية لتغطيتها. وبالإضافة إلى «وعاء الملح»، وزع الأنجلو ساكسونيون على المائدة الأكواب وسلال الخبز وأطباق التقديم.

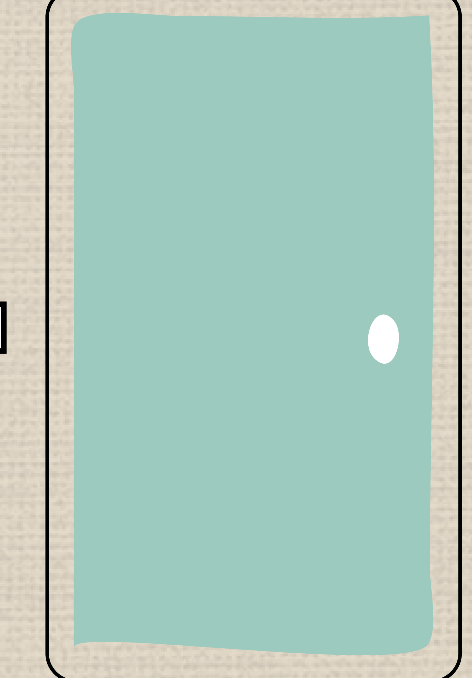


ماذا يفعل أهل روما؟

«إذا كنت في روما فافعلْ كما يفعل أهل روما»، هذا هو المبدأ العريض الذي يحكم قاعدة الضيافة، ويحدد إطار العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة، أو العشيرة العائلية، على مائدة الطعام، كما يرسم العلاقة بين الضيف والمضيف. فماذا يفعل أهل روما؟

معظم الثقافات تقتضي من الضيف الحضور في الموعد الموحد، وفي الغرب الأوروبي، يتخذ التزام المواعيد طابع القداسة، من شأن كسرها أن يعرضك لطائلة الاستهجان ووصمك بعار التخلف الحضاري! وإذا كان البعض يروم الحضور على مأدبة أو تلبية دعوة عشاء مبكراً، لتوطيد الألفة مع مضيفه، قبل أن يأكل من خبزه، فإنه في بلد مثل تنزانيا، من غير اللائق أن تدقّ باب مضيفك أبكر من الموعد المحدد، بل يفضل أن تصل متأخراً عن موعدك من 15 إلى 30 دقيقة، كي لا تبدو كالمتهافت على الطعام.





وهناك مسألة التراتبية التي يجب أخذها بعين الاعتبار، فيما يتعلق بـ«من يأكل أولاً» و«من يجلس أين»؛ ففي المجتمعات القروية والبدوية التي تفترش الأرض مائدةً لها (مثل العديد من الدول العربية إلى جانب أفغانستان وباكستان) فإن الضيوف يجلسون دائماً في أبعد نقطة عن الباب، في إشارة رمزية إلى الرغبة باستبقائهم في قلب المكان، وقلب الوليمة، فلا يكونون على مسافة قريبة من المغادرة، أو موقع يوحي بالنبذ والتطريف (من الطرف). وفي حال لم يكن ثمة ضيوف على المأدبة، فإن كبار العائلة، كالجد والجدة، يجلسون في أبعد نقطة عن الباب.

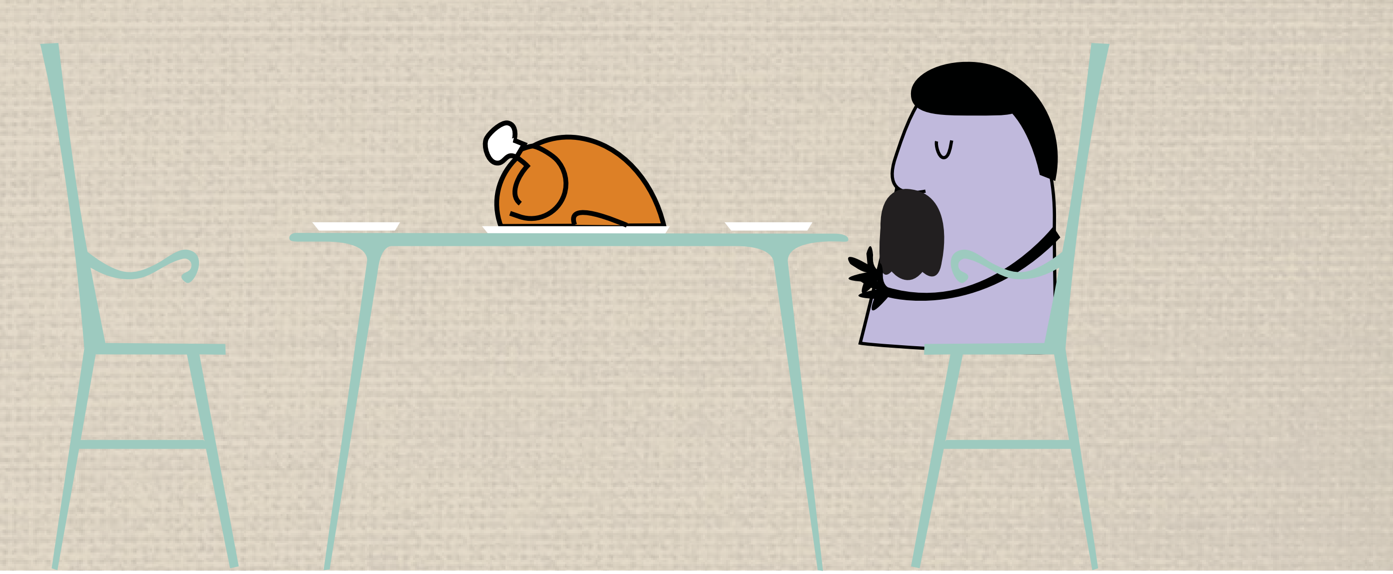
إن المتعارف عليه في معظم المجتمعات أن العائلة لا تستهل الأكل إلا عند اكتمال جلوس أفرادها على المائدة

أما في الغرب الحديث، ثمة ميل متزايد نحو إلغاء التراتبية على المائدة، مع اعتماد الطاولة المستديرة أو البيضاوية، يتوزّع عليها أفراد الأسرة دونما إيلاء موقع مميز لفرد دون الآخر، في ترتيب يوحي بالتوحد والتماثل والتعاضد الجماعي، من دون أن يتعارض هذا التضامن مع الفردية والاستقلالية والذاتية المتمثلة في تخصيص طبق وأدوات طعام منفصلة لكل فرد على حدة. إلى ذلك، تكون أدوات المائدة موضوعة على حواف الطاولة الدائرية فتبدو أشبه بسياج يسوِّر المكان ويحده، كأنه يفصل الجماعة عن الجماعات الأخرى، ويحميها من تطفل الغرباء وتجاوزهم! أما أطباق الطعام الرئيسة، فيتم تناقلها من فرد لآخر، بحيث يسكب كل شخص منها في صحنه، فيكون مسار الطبق دائرياً أو بيضاوياً، على نحو يشي بسلاسة العلاقة وانسيابيتها بين أفراد الجماعة الواحدة.

في أوروبا إبان القرون الوسطى، وبعد عقود من اعتماد «المسافة من وعاء الملح» لتحديد موقع الضيف ومكانته، بات الضيوف المميزون يجلسون إلى يمين المضيف، مع تقديم أفضل قطع اللحم لهم، وأندر الفاكهة، وأغلى المشروبات. ولم تدخل عادة جلوس الضيوف معاً في أزواج إلا حوالي العام 1455 ميلادية، حين غدا من اللائق اجتماعياً جلوس «الجنتلمان»، أي السيد، بجوار «الليدي»، أي السيدة، متقاسمين طبقاً وكوباً واحداً. لكن المائدة الغربية تخففت اليوم من كثير صلف وادعاء، وإن ظلت محافظة على تراتبية معينة حين يتعلق الأمر بجلوس الضيوف وخدمتهم، وهي تراتبية معترف بها في معظم ثقافات العالم، لجهة الاحتفاء بالضيف في المقام الأول.

ومن يأكل أولاً؟

وفيما يتعلق بـ«من يأكل أولاً»، فإن المتعارف عليه في معظم المجتمعات أن العائلة لا تستهل الأكل إلا عند اكتمال جلوس أفرادها على المائدة. إن الأمر لا علاقة له هنا بالاحترام بقدر ما يتصل بتعزيز قيمة الجماعة والانتماء والركون إلى هوية العائلة، فالبدء بالأكل مع علمنا أن ثمة فرداً منا ناقص أو غائب، يعني إقصاءً لهذا الفرد، حتى وإن كان إقصاءً لا شعورياً، وبالطبع فإن الاستثناء هو أن يكون الغياب هنا قسرياً، فوق إرادة الجميع. أضف إلى ذلك أن اكتمال جلوس أفراد العائلة على الطاولة يضمن الحد الأدنى من المساواة في توزيع الطعام، ضمن هاجس الإنسان الغريزي كي لا يأخذ الآخر حصته. لكن التاريخ الأنثروبولوجي له كلمة مختلفة في هذا الطرح، كما أن الأولوية لمن يأكل مقترنة بشرط ثقافة الضيافة، الذي يحدّده كل مجتمع بحسب ناموسه الاجتماعي. ففي المجتمعات الإنسانية الغابرة، اقتضى العرف أن تكون اللقمة الأولى من نصيب المضيف كي يثبت لضيفه أن الطعام آمن أو غير مسموم! حتى اليوم، لا تزال بعض الثقافات تتبنى هذا النهج، الذي يشكل ضمانة للمضيف. ففي غينيا الجديدة، يحتفي القبليون من سكان البلاد



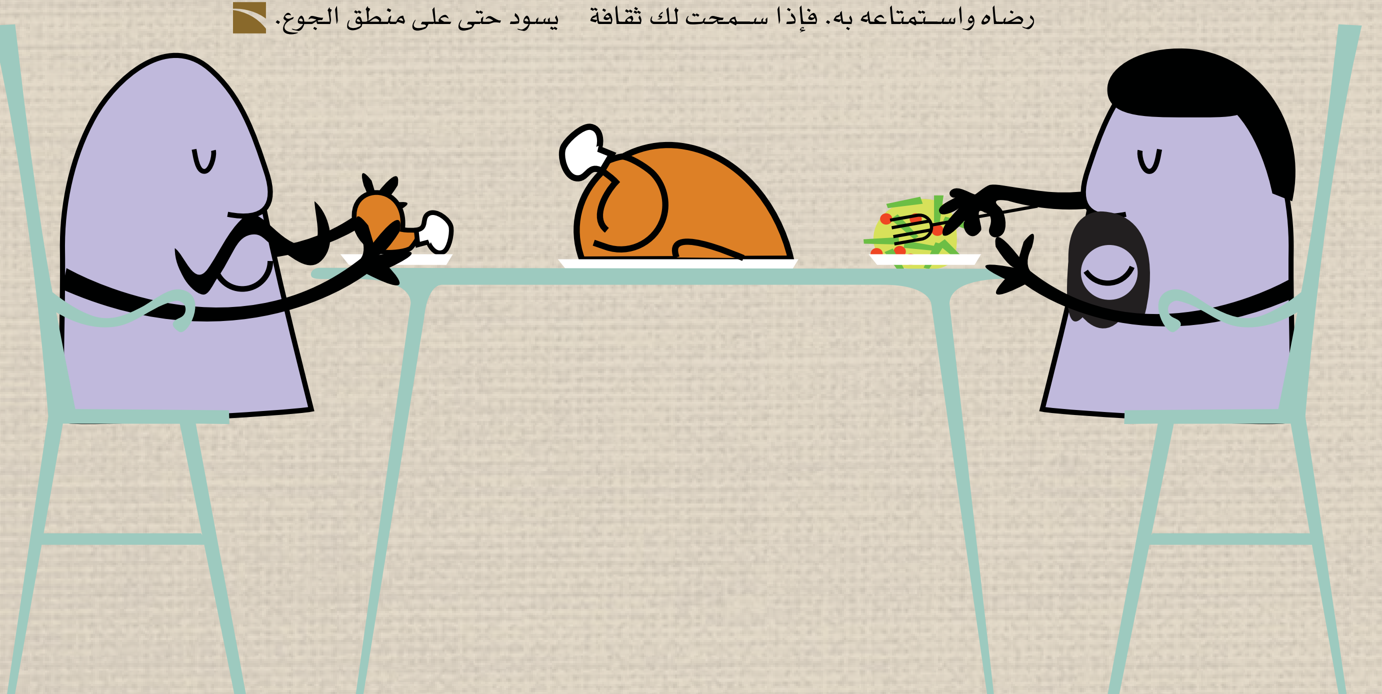
الأصليين بالضيف الغريب بتقديم الماء له، لكن المضيف يقوم أولاً بتناول جرعة قليلة من الماء كي يظهر لضيفه أنه ليس خطيراً. ويمكن الوقوف على عادات وتقاليد مشابهة في العديد من القبائل في إفريقيا، حيث تُناط بزوجة المضيف مسؤولية تناول الجرعة الأولى من أي شراب مبرهنة على خلوه من السم. في أوروبا خلال القرون الوسطى كانت المضيفات هن الملزمات أيضاً بتناول الطعام والشراب أيضاً للتأكيد على أنه آمن.

بين الحاجة والثقافة

تتعدَّد طرائق الضيافة وعادات المائدة اليوم بتعدد الثقافات، فالضيف يأكل أولاً في بعض الثقافات الراهنة، خاصة في العالم الإسلامي، فتُقدّم له الحصة الأفضل والأكبر من الطعام، كما يتم ملء صحنه مرات ومرات، ولا يسمح لطبقه بأن يفرغ لحظة، فيما تخصص اللقمة الأولى لكبار السن في العائلة، بغض الطرف عن وجود الضيوف، في مجتمعات أخرى. وإذا كانت ثقافتنا العربية تقتضي أن يقوم سيد البيت أو الأكبر سناً في العائلة، بخدمة ضيوفه من منطلق «سيّد القوم خادمهم»، فإن الأصغر سناً هم الذين يتولون تقديم الطعام للأكبر سناً أو للأرفع شأناً في المأدبة، بحسب ثقافات أخرى، كالثقافة الصينية مثلاً كما تمليه في هذا الخصوص المبادئ الكونفوشيوسية، التي تشدد على قيمة احترام الكبار في كل الظروف والمناسبات. والأدب الجمّ هو الذي يجعل الياباني لا يمد يده إلى الطعام إلا بعد أن يطلب منه مضيفه ذلك ثلاث مرات على الأقل!

أياً ما كان الطعام، على الضيف أن يأكله، معبراً عن رضاه واستمتاعه به. فإذا سمحت لك ثقافة ما بأن تضيف إلى طعامك الفلفل والشطة والليمون والكاتشب وخلافه على طبقك، إذا كنت في بلد مثل الولايات المتحدة الأميركية أو إحدى دول أميركية اللاتينية لك، فالويل لك والثبور إذا تجرأت وطلبت الكاتشب أو المايونيز في بيت فرنسي، معتد بمطبخه وبوصفاته غير القابلة للإضافة أو التعديل. «كيف سولت لك نفسك أن تتعدى على المذاق الفرنسي المعتبر أيها الدخيل؟!» قد لا تغفر لك هنا الحقيقة أنك «غرّ» إزاء ثقافة الأكل الفرنسية. وقد تجد من المناسب أن تأكل كل ما في صحنك، احتراماً لمضيفك، واعترافا من جانبك بمذاق الأكل الشهي. لكن الأمر يتعدى الاحترام والمذاق في بلد مثل بريطانيا، فالإتيان على ما في طبقك مسألة تعود جذورها إلى حقبة الحرمان المريرة أثناء الحرب العالمية الثانية، من خلال فرض نظام التحصيص في توزيع الطعام الشحيح أصلاً، وهو ما عنى بالتالي التهام ما يتوافر على المائدة، ومسح الأطباق تماماً، لأنه من غير المعروف متى يمكن أن تُملأ هذه الأطباق ثانية! في المقابل، فإن أكل كل ما في طبقك في بيت مضيف صيني، أمر قد يثير حساسية واستياء؛ إذ يعني ذلك في الغالب أن مضيفك لم يقدم لك ما يكفي من الطعام، فأتيت على ما في طبقك كله، ولعلك غادرت المائدة وأنت لم تزل جائعاً!

في النهاية، نحن ما نحن عليه. ونحن أيضاً ما يمليه مجتمعنا علينا، بتقاليده المستوطنة في جبلتنا الإنسانية والقبلية والفكرية، وعادات المائدة جزء لا يتجزأ من هذه الجِبلة. فالطعام حاجة، والأكل ثقافة. وبين الحاجة والثقافة، نحتكم إلى العُرف أولاً، فمنطق العرف يسود حتى على منطق الجوع.



صورة شخصية



كيف يمكن لشخص لم يقطع غير شوط قصير في الدراسة أن يتعلَّم برمجة الحاسب الآلي لينجز سبعة برامج جديدة خلال ربع قرن من الزمن، إضافة إلى ما اكتسبه من مهارات حرفية عديدة؟ شمس علي تجيب عن هذا السؤال من خلال صورة محمد الحمد، المعبِّرة عمَّا يمكن للشغف بالمعرفة والإرادة أن يفعلاه في حياة الإنسان.

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير

محمد الحمد
الإرادة والشغف بالمعرفة

ولد محمد علي طاهر الحمد عام 1379هـ في الأحساء. وبعد أن أصبح في سن الدراسة، ألحقه والده بكتَّاب «المطوع». لكنه لم يستسغ أجواء الكتَّاب، إضافة إلى الوحشة التي تملكت قلبه الغض، نتيجة قيام مغسل للموتى بتعليمهم أثناء غياب معلمهم. وهذا ما دفعه إلى الهرب والتغيب عن المطوع. وكثيراً ما كان والده يحمله بين ذراعيه إليه، لكنه في النهاية استسلم لرغبة ابنه في تركه، وألحقه بالمدرسة، بعد نصيحة أسداها إليه قريب، بيَّن له من خلالها، أهمية أن يتقن الرجل الكتابة. وهكذا التحق الطفل محمد بعد بلوغه التاسعة من العمر بمدرسة عبدالرحمن بن عوف بحي الشعبة بالمبرز، وأظهر طوال سني دراسته تفوقاً لافتاً أبهر معلميه، وكان ترتيبه الأول دائماً.

صياغة الذهب

أحب محمد الصياغة منذ نعومة أظفاره. واستهواه اللعب بعدة الصياغة في بيت خال والده أحمد بوخليل. وساعده على ذلك أن أسرته والجيران كانوا في غالبيتهم يحترفون صياغة الذهب، وكان زقاقهم يبدو أشبه بورشة كبيرة تحتل كل زاوية منها دكاكين الصياغ. ولأن والده الصائغ، نزح من محافظة الأحساء إلى مدينة الثقبة، من أجل لقمة العيش، وحرص على أن يصطحب ابنه معه في العطل الصيفية، أتيحت الفرصة أمام محمد لممارسة الحرفة. وبعد أن أتم دراسته للمرحلة الابتدائية، وفي عطلة عام 1395هـ، ظفر بعمل في محل لبيع الذهب قريب من محل والده. وحاز في وقت قصير ثقة صاحب العمل، ما دفعه أثناء سفره إلى أن يأتمنه على إدارة المحل بمفرده.

وبعد نهاية العطلة عاد محمد إلى الأحساء للدراسة، وليتولى أثناء غياب والده شؤون الأسرة. وفي العطلة التالية، دفعه حس المغامرة للإقدام على أعمال في الصياغة، كانت توكل عادة للأكبر منه سناً والأكثر خبرة. وسرعان ما ظفر بمنصب نائب مدير أحد المصانع بعد فتره وجيزة من ترك النائب السابق للعمل، متجاوزاً بذلك أقرانه.

ومع انتهاء العطلة الصيفية، وبداية المرحلة المتوسطة، أخذ يدرس في الصباح، ويعمل في الصياغة في المساء. مما أثر على دراسته بشكل كبير. وفي النهاية ضحَّى بالدراسة من أجل الصياغة! ويصف محمد قراره ذلك، بأنه «كان قرار فتى غر لم يكن والده أو والدته الأميان يريان للاستمرار في الدراسة أية أهمية بعد إتقانه للقراءة والكتابة». وبعدها بعدة شهور، عمل بائع ذهب في محل أحد أقاربه في الهفوف، حيث كان هو المسؤول الوحيد في المحل، ويعطى نصف المكسب مقابل العمل. بعدها

افتتح محلاً خاصاً به للصياغة في أحد أزقة الشعبة بالمبرز، حيث ترعرع. وكان يصوغ حَلَقاً للأذنين (تسمى تراكي) ويبيعها على محلات بيع الذهب في الهفوف.

النقلة الكبرى

في عام 1397هـ شجعه ابن عمه على مغادرة الأحساء إلى الدمام. ووعده بتوفير رأسمال له كي يتمكن من فتح محل لبيع الذهب خاص به. لكنه لم يتمكن من الوفاء بوعده، وإن كان وقف إلى جانبه وقام بنفسه بعمل ديكور للمحل، لكن الله قيض له من شاركه، وهو رجل أصبح فيما بعد أيضاً جداً لأولاده، ومن هنا انطلق محمد في تجارة الذهب.

البرمجة

في عام 1404هـ تعرف محمد على علم البرمجة عن طريق صديق له تلقى دورة في البرمجة بلغة «البيسك»، كانت نظَّمتها غرفة التجارة. ما شجَّعه على اقتناء كمبيوتر صخر بقيمة 2000 ريال، إضافة إلى شريط «كاترج» يضم لغة البيسك العربية بقيمة 300 ريال، كما اقتنى كتباً لشرح البرمجة بتلك اللغة. وأخذ يقرأ ويحاول تطبيق ما يقرأه عملياً، ويجري التجارب، ويعمد إلى تخزين جميع ذلك في أشرطة «كاسيت». ثم اتخذ له جهاز أقراص مرنة 3.5 قام بشرائه بـ 1000 ريال. والتحق بعدها بمعهد اللغات بالدمام لدراسة اللغة الإنجليزية من المستوى الثالث إلى المستوى السادس (أربع دورات كل منها شهر ونصف الشهر)، إلى جانب اشتغاله على برامج صغيرة لحسابات المحل، ثم اشترى أول كمبيوتر حقيقي مع معالج، وتعلم بذلك التعامل مع نظام دوس (DOS) والبرمجة باللغة الإنجليزية بلغة (GW-BASIC) ثم بلغة (QBASIC) ثم بلغة (VISUAL BASIC) وكل ذلك بمجهود ذاتي.

وفي مرات قليلة جداً، كان يلجأ فيها إلى الاستفسار عن بعض النقاط التي تستعصي عليه، من قريب له تمكن من أخذ دورات في البرمجة ومارسها وأنتج برامج. كما فتحت شبكة الإنترنت لمحمد آفاقاً، فشرع في مطالعة منتديات البرمجة، وأخذ يبحث عبر محرك البحث الذي مكنه من الاطلاع على أمثلة تطبيقية من أصقاع المعمورة. ولم يكن ليعرقله عن المضي في تحقيق هدفه أن يكون المثال الذي يأتي به المحرك أحياناً بلغة «البيسك» التي يفهمها، فيما الشرح بلغة لا يعرفها، مثل اللغة اليابانية أو غيرها.

وبالتدريج تحولت البرمجة إلى هوس حمله على أن يصرف جل وقت فراغه، وجزءاً من أوقات العمل، وبعضاً من أوقات الراحة عليه. فكان يشعر وهو في انغماسه ذلك، وانقطاعه عما حوله بأنه يعيش متعة لا حدود لها، خاصة بعد الانتهاء من البرنامج وتقديمه. وعلى الرغم من أن العائد المادي لم يكن مجزياً مقابل الجهد المبذول، لكن العائد المعنوي في المقابل كان يعني لمحمد الكثير. وهذا ما دفعه إلى أن ينفق بسخاء، على شراء أجهزة الكمبيوتر، والطابعات والكتب المعنية بالبرمجة.

ويؤكد محمد بأن ما منعه عن حضور دورات في البرمجة أنه لم يسمع عن دورات متقدمة في هذا المجال، كما أن الوقت لم يكن ليسعفه. ويؤكد أن البرمجة للحسابات تحتاج أولاً إلى إحساس بالمحاسبة، ومن ثم إلى قراءة كتب محاسبية، والاستفسار من المحاسبين، والقدرة على ابتكار حلول عملية لما يعترض المبرمج من صعوبات فنية.

أول برنامج تجاري

لم يفكر محمد أبداً في إنتاج برامج يستخدمها الآخرون، فقد كانت جميع برامجه للاستخدام الشخصي أو لحسابات صندوق العائلة الذي كان أمين صندوقه. ولكن تحت إلحاح أصحاب ورشة للذهب طلبوا أن يصمم لهم برنامج محاسبة، بعد فشل مبرمج عربي مقيم كانوا قد استعانوا به لهذا الغرض. فقد فشل ذلك المبرمج نتيجة تعقيد حسابات الذهب ومنها تعدد العيارات، واختلاف أنواع الفواتير، لذا انعقدت آمال كبيرة على محمد من أبناء مهنته، خاصة وأنه ابن المهنة، الملم بخفاياها. وصبروا في سبيل الحصول على مبتغاهم على انشغالاته بعمله الأساسي في تجارة الذهب وبأسرته الصغيرة وكذلك الكبيرة، خاصة بعد مرض والده، والذي امتد سنوات طويلة حتى وفاته، فكان محمد بذلك نِعْمَ الابن لأمه، والأخ لأخوته، والعضو الفاعل في المجتمع.

حرص محمد أثناء تصميم برنامجه على أن تكون النسخة شاملة تغطي حاجة المحلات، والورش، ومكاتب الجملة، خاصة وهو المطلع على برامج سبقت في هذا المجال، وقدَّم عام 1410هـ أول نسخة تجريبية، للذين طلبوا منه ذلك. وجاء انطباعهم أنها أفضل مما توقعوا، واستمر محمد يجري عليها إضافات وتعديلات حتى غطت كافة الاحتياجات، بحيث صارت تستخدمها حالياً أكثر من مئة مؤسسة، بعدما مرَّ هذا البرنامج بعدد من مراحل التطوير.

البرامج التي أنجزها خلال ربع قرن

وخلال ربع قرن، أنجز محمد وضع برامج جديدة، هي:

1 - برنامج منال سوفت للذهب - وهو مسجل في وزارة الإعلام
2 - برنامج خاص بالألماس
3 - برنامج خاص بالأسهم
4 - برنامج المحاسبة وإدارة المخزون
5 - برنامج المنال للخياطة الرجالية - مسجل في وزارة الإعلام
6 - برنامج لطباعة استمارة الجوازات - مكتب العمل
7 - برنامج لإدارة الأملاك وهو يختص بالإيجارات

وحتى اليوم، ما زال محمد يمارس البرمجة بين الحين والآخر لإدخال إضافات، أو تعديلات على برامجه المنجزة، وتقديم الدعم الفني لبعض من يتعامل مع برامجه تلك. وبلغ عدد مستخدمي برامجه المئات. وفي مجال الذهب، تبوأ محمد قبل فترة قصيرة فقط منصب رئيس لجنة الذهب في غرفة الشرقية، وما زال يمتلك من الإرادة والطموح الكثير.

أثار الاستطلاع الذي نشرته «القافلة» في عددها الأسبق حول فن الخط العربي ردود فعل متباينة، اشترك معظمها في التطلع إلى الخط العربي الطباعي أو المصمم حديثاً للاستخدام في أجهزة الكمبيوتر وكأنه خصم أو نقيض لفن الخط العربي التقليدي.
وفيما يأتي مساهمتان تسلِّطان الضوء على تصميم الخط العربي. فتتضمَّن الأولى مدخلاً لفهم التحديات التي يشكلها هذا الفن، والثانية تركز على أنماط التعامل مع هذا الفن على مستوى تدريسه ودراسته الجامعية في البلاد العربية.

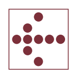
مشتق من فن الخط وليس نقيضه

فن تصميم الحرف العربي



1 ليس بالسهولة التي يتصورها البعض

أحمد عثمان



التصميم الخطي ليس جديداً كممارسة في العالم العربي. إلا أنه جديد فيه كمهنة، كما أن ما كُتب فيه لا يزال في بداياته ولا يزال شحيحاً. حتى إن المصطلح «التصميم الخطّي» الذي نستخدمه هنا غير نهائي، وهو في حال منافسة مع مصطلح بالقدرة التعبيرية ذاتها، هو «التصميم الحروفي». من هنا، فلا عجب أن يكون معظمنا على قلة اطّلاع على هذا الاختصاص. وفي الآن ذاته، فإنّ نظرة إلى الحرف العربي كما يراه مصمّم خطّي كفيلة بإيضاح الكثير عن هذا الحرف.

> هناك ظاهرة مؤسفة يلاحظها المصمّم تتجاوز الخط بتفاصيله التقنيّة، هي ظاهرة انسحاب اللّغات من لواء الأبجدية العربية

ما هو التّصميم الخطّي؟

هناك عنصران جوهريّان في هذه المهنة: أولاً، المصمّم الخطّي يصمّم شكل الحروف، وثانياً، هذه الحروف تُصمّم لكي تنتجها آلة، لا يدٌ بشرية. وواضح من الشق الأول لهذا التعريف أن المصمّم الخطّي متحدّر من الخطاط، أما في الشق الثاني، فهناك بعض التفاصيل التي لا بد من توضيحها.

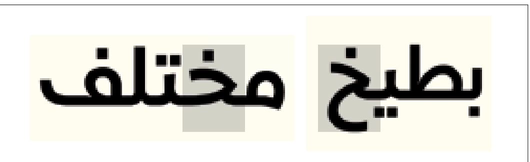
حتى شيوع الكمبيوتر في ثمانينيات القرن الفائت، كان من الضروري القول إنّ الآلة التي ستنتج الخطوط هي آلة طباعيّة. إلا أن الأمر لم يُعد كذلك، إذ إن عدداً كبيراً من الخطوط المصمّمة اليوم تُعد بحيث تُقرأ على شاشة الكمبيوتر، لا حبرًا على ورق. وفي الحالين، يبقى بين المصمم الخطّي والخطّاط فرقٌ مهم، وهو أنّ الأخير يكيّف أشكال حروفه بحسب الحروف التي تسبقها وتليها، وبحسب المساحة المعطاة له، فيما على المصمّم الخطّي أنّ يصمّم شكلًا واحدًا لكلّ حرف، بغضّ النّظر ما إذا كان الحرف هذا مسبوقاً بباءٍ أو لامٍ أو ميم مثلاً. هو فرقٌ أقرب ما يكون إلى الفرق بين الخياطة حسب الطلب وبين تصميم الملابس الجاهزة: في الممارسة الأولى حرّيّة أكثر، ومجالٌ أكثر للتفنّن، وسعرٌ أغلى للقطعة الواحدة، فيما الممارسة الثانية تنضوي على تجريدٍ أكثر، ودراسة أعمق لكل الاحتمالات الواردة، وقدرة أكبر على الوصول إلى الجمهور العريض.

ومن التعريف آنف الذكر، نفهم أنّ التّصميم الخطّي بدأ تلقائيًّا يوم بدأت الطباعة. ذلك ألاّ مفرّ من اختيار خطّ ما لاعتماده في الكتاب المنوي طبعه، والتصميم هو عمليّة الاختيار هذه. من هنا، باستطاعتنا القول إن يوهانس غوتنبرغ، إذ اختار خط الفراكتور الجرماني لكتابه الأوّل، كان أوّل مصمّم خطوط لاتينية، وإن غريغوريوس دي غريغوري من البندقية كان أوّل مصمّم خطوط عربية: إذ إن أوّل كتاب مطبوع بالعربية، تمت طباعته عام 1514م، في إيطاليا، لا في العالم العربي.

150 حرفاً لا 28

أوّل ما نلاحظه من وجهة نظر مصمّم الحروف هو أنّ العربية فيها على الأقل 150 حرفاً، لا 28 حرفاً كما لقّنونا في المدرسة. ذلك أن الخط يجب أن يميّز بين الوضعيّات المختلفة لكل حرف، ما يعني أن الخاء النهائية، كما في كلمة «جوخ»، تُعد حرفاً مستقلاً عن نظيرتها الوسطى، كما في كلمة «مختلف»، وهكذا دواليك. ولمّا كانت هناك أربع أشكال مختلفة لمعظم الحروف حسب وضعيتها، كان عدد حروف العربية بحسب برنامج الخط الآلي حوالي 28 مضروبًا بأربعة.

يُضاف إلى هذه اللائحة أن الألف مع همزة هي غير الألف بلا همزة، وأن الهمزة على النبرة غير الهمزة على الواو، وأن هذه التنويعات جميعًا تأتي هي الأخرى مع وضعياتها الابتدائية والوسطى والنّهائيّة والمنفردة،



كبير

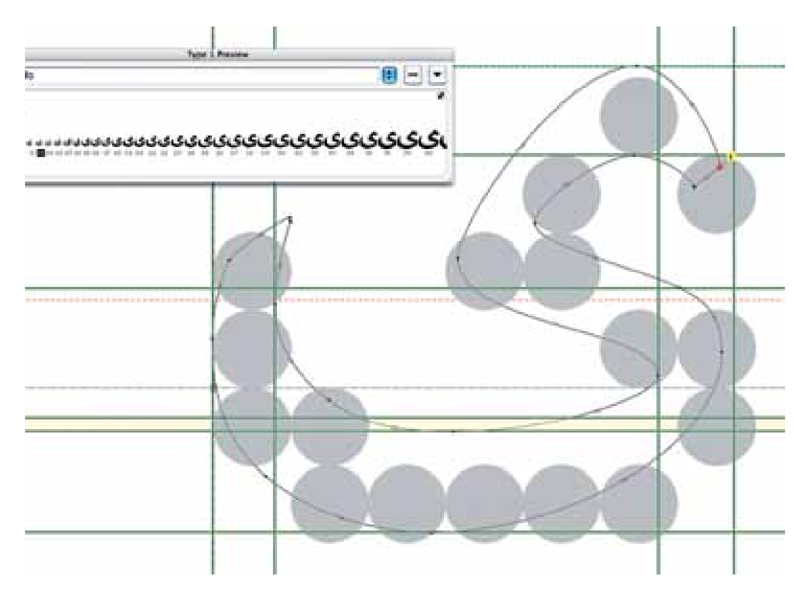
كبير

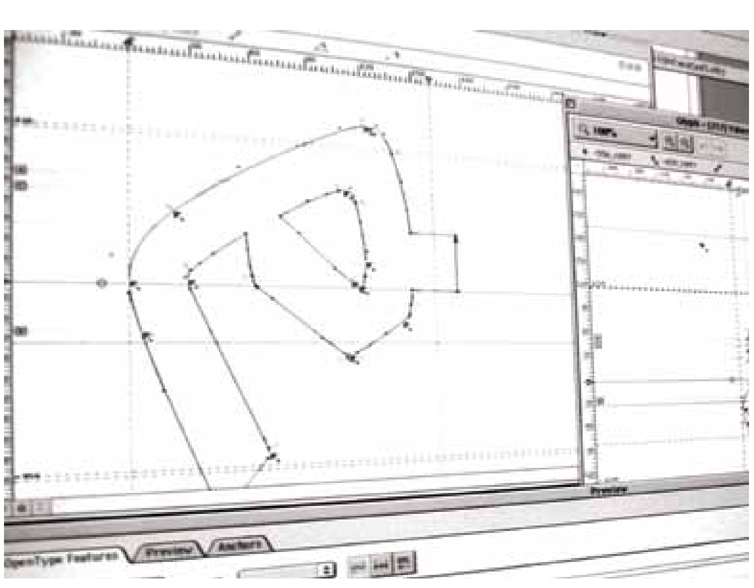
ما يفسّر هذه الطفرة الكبيرة التي يلاحظها كل مصمّم خطوط. والأهمّ من ذلك، أن طريقة التفكير هذه تطرح سؤالًا صعباً على بساطته: هل العربية 28 حرفاً أم 150؟

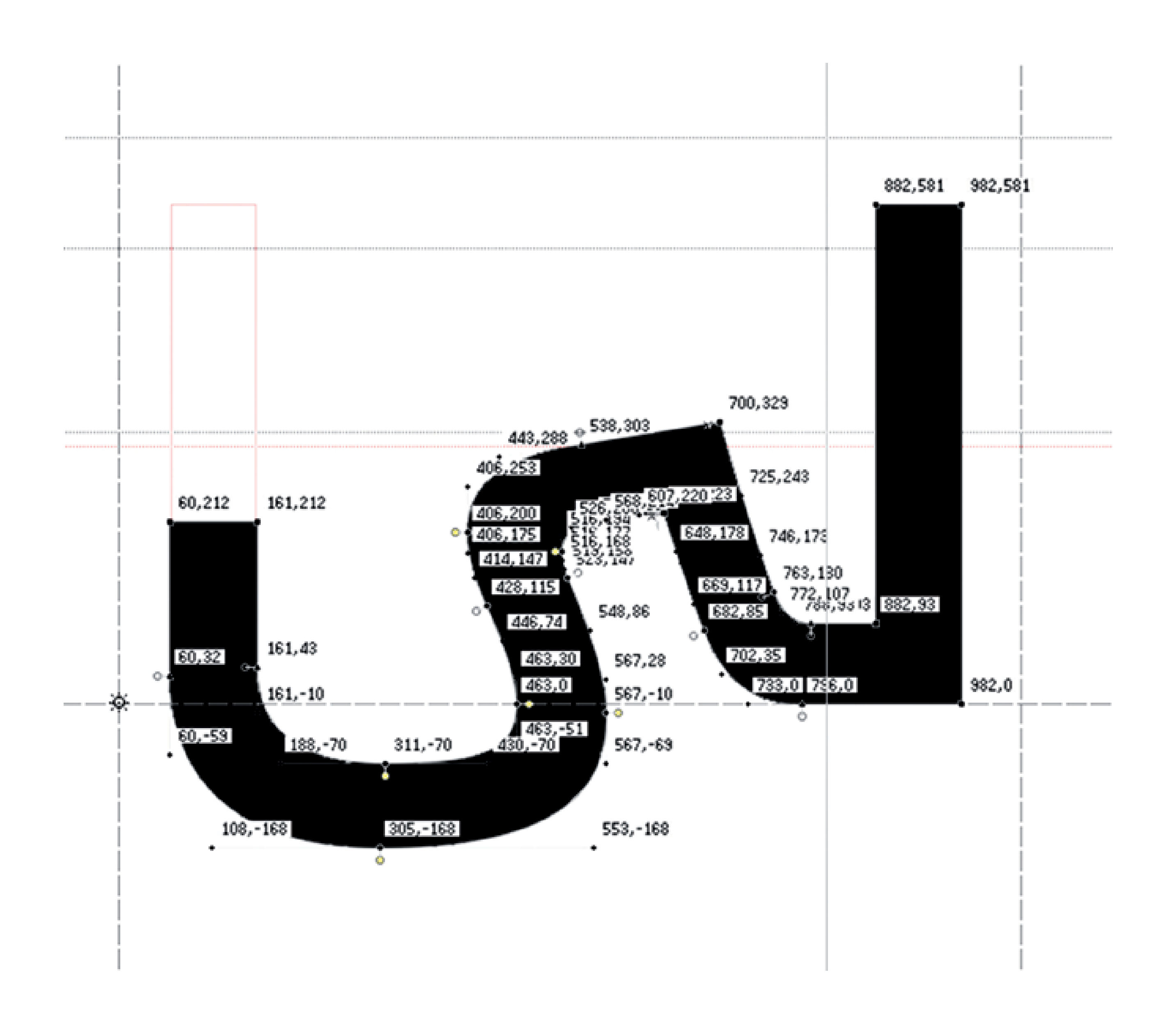
أمرٌ آخر يلاحظه مصمّم الخطوط العربية، هو أن الحرف العربي مفتوحٌ على السماء أكثر من نظيره اللاتيني: معظم الحروف اللاتينيّة هي تنويعات على شكلٍ هندسي ما، غالباً ما يكون الدائرة، وغالباً ما يكون منغلقاً. من هنا مثلًا أحرف الـo، والـb، والـg. حتى أحرف الـh والـm والـe تنطلق من الدائرة، وتبقى محميّةً من السّماء، فيما الأحرف المفتوحة من أعلى هي أقليّة من تسعة أحرف (i j k l u v w x y). من جهة أخرى، الأحرف العربية المفتوحة على السّماء ليست أكثر بكثير، إذ لا تتعدى الأربعة عشر حرفاً (ا ب ت ث د ذ ر ز س ش ك ل ن ي)، لكن الخط الأفقي الذي يجمع بين معظم الأحرف، والذي هو من أكثر معالم الخط العربي تكرّرًا، هو بحد ذاته مفتوحٌ على السماء، وقلّما تخلو كلمة عربيّة منه (هذا، إذا لم يطل أكثر وأكثر بفعل الكشيدة).

تنطلق الأحرف اللاتينيّة، كما سبق وذكرنا، من الدائرة، صعوداً (مثل الـb) وهبوطاً (مثل الـq)، وهذه المركزية تبدو غائبةً بادئ الأمر عن الأحرف العربية، حيث إنها لا تلتزم بهندسة واحدة، وفي الواقع، فإن الأحرف العربية لا تلتزم الهندسة اليوكليدية أساساً.

في المقابل، تتفرع الأحرف العربية، هي الأخرى، صعوداً (ط) وهبوطاً (ر)، من الخط الأفقي آنف الذكر، وهذا يعني أن المركزيّة البنائيّة التي تلعب دورها الدائرة في الأحرف اللاتينية، يلعب دورها الخط الأفقي في الأحرف العربية.







خصوصيات لا بد من أخذها في الحسبان

أحد الأمور التي يعنيها هذا التحليل، هو أن تحديث الخط العربي يجب أن يأخذ، حكماً، منحى مختلفاً عن نظيره اللاتيني، لأنّ المادة التي هي بصدد التحديث مختلفةٌ جوهرياً. هناك عددٌ كبيرٌ من الخطوط العربيّة الجديدة يعوق نفسه بنفسه عندما يحاول إقحام الهندسة اليوكليديّة على أشكال الحروف العربية، بحيث تصبح الميم دائرةً مثلًا، والطاء نصف دائرة، وعندما يحاول توحيد ارتفاعات الحروف بعضها بعضاً، لأن الأمور هذه -ببساطة- ليست جزءًا من طبيعتها. الخط المسكين يبدو في نهاية المطاف مثل الواقف على حبلٍ مشدود، لأنّه يحاول التوفيق بين طبيعته – مركزية الخط الأفقي مثلًا – والمعالم المفروضة عليه على أنّها معالم الخط الحديث.

تحديث الخط العربي يكون بالإنصات إليه على ما هو عليه، والعمل من هناك. ومن هذا المنطلق، فإن أحد المعالم التي يجب المحافظة عليها هو المجواز (ligature)، أي الصيغة التوحيديّة لحرفين مدموغين. وأشهر مثال لمجوازٍ عربي هو اللام-ألف (أي «لا»)، وقد استطاع أن يبقى حتى في أكثر الخطوط العربية ابتعاداً عن الصيغ التقليدية، إلا أن مجاوزَ كثيرة لم تكن محظوظة مثل اللام-ألف، وبالتالي أُلغيت تماماً من الخطوط العربية الجديدة. الفاء-ياء («في») أوفر حظاً من غيرها، فيما اللام-ياء («لي») واللام-ميم الابتدائية («لمـ») والنون-ياء النّهائية («ني») والباء-راء النّهائية («بر»)، وغيرها الكثير، صارت شبه منقرضة.

المجواز في العربية ضرورة، وليس من الكماليّات كما هو الحال في اللاتينيّة، وعندما نقول إنّ الحفاظ عليه من مصلحة الخط العربي إجمالًا، لا نكون مدفوعين في قولنا هذا بشعور من المحافظة المنغلقة، وإنّما بوعيٍ أن قيمة المجواز هي أكثر من قيمةٍ شكليّة. أولًا، هو يوفّر مساحة

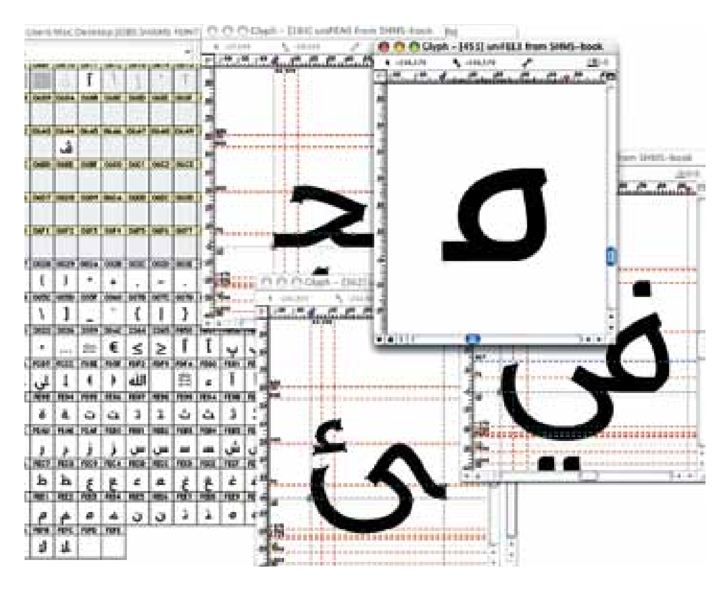
الطباعة، كونه يدمج حرفين معـاً. وثانياً، وهذا أهمّ، فهو يكسر رتابة الخـط الأفقي آنف الذكر، ولعلّ مجواز الياء-راء النّهائيــة هــو أوضح مثـال على هذا الأمــر: الياء سن صاعـدة من الخط الأفقـي، والراء سـن صاعدة وهابطة من الخط الأفقـي في الوقت نفسه، فـإذا تركنا كلمةً مثل «كبيـر» دون مجواز، تكون النتيجة أشبه ما تكون بالشريط الشائك، أمّا إذا استخدمنـا المجواز، ننهي عمليّة التفرّع عنـد حرف الميم، ونُدخـل تنوّعًا فـي الارتفاعات يتجاوز الخط الأفقي.

العربية: أبجدية ولغة

أزمة اللغة العربية تنعكس على الخطوط العربية، إذ إنّ الجيّدة منها نادرة بشكل محرج، وهي تُعد على أصابع اليد

هناك ظاهــرة مؤسفة يلاحظها المصمّم تتجــاوز الخـط بتفاصيلـه التقنيّـة، هــي ظاهرة انسحاب اللغات من لواء الأبجدية العربيـة، وهــذه الظاهــرة يلاحظهـا المصمّـم بشكلٍ عكسـي: بعض حجيرات الأحــرف تحتوي حروفـاً غريبــة الشكل، تشبـه العربيــة وليسـت بالعربية، كحرف الرّاء ذي ثلاث نقاط، أو النون بلا نقطة. ولـدى الاستفسـار عـن هـذه الأحــرف، يفهـم المصمّــم أن عـدداً مـن الشعـوب غيـر العربيـة اختـار الأبجديـة العربية ليكتب بهـا لغته هـو، وأنّه كان لا بـد من إضافـة بعض الأحرف بحيث تصبح الأبجدية قادرة علـى احتواء جميع الأصوات في هـذه اللّغات. وهو أمـر ينم عن ثقـة بالأبجدية العربية، وعلـى قدرتها على استيعـاب، أو استضافـة، لغـات أخرى. وهذا مـا تقابله استضافة الأبجديّة اللاتينيّة للّغـة البولنديّة أو التشيكيّة أو الفلبينية مثلًا، ويعكس بطبيعة الحال شعوراً من طرف هذه الشعوب بالرّغبة في التّماهي مع الأبجدية المعتمدة، والثقافة التي تمثّلها هذه اللغة.

الفارسية والأوردو لا تـزالان تعتمدان الأبجدية العربية، إلا أن الأمــر بات يقتصر عليهما تقريبـاً. إذ يعرف الجميع أن التركية كانت تعتمـد الأبجدية العربية يومـاً، وأنها تحولت بيـن ليلـة وضحاها نحـو الأبجديـة اللاتينية. مـا لا يعرفه الجميـع هـو أن التركيـة ليسـت الوحيـدة بيـن اللّغات في مسارها هـذا، وأن الأذرية والكرديـة والسواحيلية جميعها في طريقها إلـى التخلي عن الأبجدية العربيــة واستبدالها باللاتينيـة. وإذا ما عدنا إلى الفكـرة القائلة بأن الأبجدية المعتمدة هــي إحدى المؤشرات على الميـول الثقافية لدى الشعـوب، نجـد أن الأمــر هذا يعكـس أزمة ثقـة بالعربية. طبعـاً، قد يقول قائـل إن الشعوب لا تختـار أبجدياتها، وإن هـذا الأمر إنما تقوم به قياداتها، لكننا لا ننسى أن الشعوب تؤثر وتتأثر بقياداتهـا، وأن الاتجاه، في نهاية المطاف، هو بعيد عن الأبجدية العربية، لا نحوها.



ما العمل؟

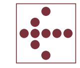
أزمـة اللغـة العربية تنعكس علـى الخطوط العربيــة، إذ إنّ الجيّدة منها نادرة بشكل محرج، وهي تُعدّ على أصابع اليد. فضلًا عن ذلك، فإن القلّة الجيّدة هذه تندرج جميعها تحت عنـوان النّسخي، وهو خطٌّ قد جاوز مـن العمر الألف سنة. من هنـا لا نستطيع أن نلوم المصمّـم الصوري (graphic designer) إذا مـا دفعـه مللـه إلـى وضع النّسخـي الجيّد جانباً، واستبداله بخطٍّ غير مدروس إنّما جديد وممتع.

فـي جميع الأحـوال، لا داعي لليأس، لسببٍ بسيـط هو أنّ التّصميـم الخطّـي العربـي لا يزال فـي بداياتـه، لا سيّما فـي بيئته الطبيعيــة (أي العالم العربي)، حيـث أخيراً بدأ بالظهـور جيلٌ مـن المصمّمين الخطيّين العـرب. ولا يزال هؤلاء بدورهم بالعشرات إذا ما جمعناهم من المحيط إلى الخليـج، لكنّهـم فاعلون في هذا المجـال، وواعون لدورهم الرّيادي في زيادة عدد الخطوط الجيّدة في السوق.

يبقــى أنّ نعيـد تعـداد بعـض الصّفـات التـي يبحـث عنها السـوق، أي المعالـم التي تجعل من الخط خطـاً «جيداً»: أن يكون مقروءاً، وواضحاً، ومجـدّداً بذكاء، أي بنظرة انتقائية للعناصـر التي يجب أن ينسفها، وتلـك التي يجب أن يحافظ عليهـا (كالمجــاوز مثـلًا). هذا، وعلـى المستـوى النظري للأمـور، يكون مفيـداً أن نتبنّى في قراءتنـا التحليلية للخط التمييز المعتمد في الخطوط اللاتينية بين خطوط النصوص وخطـوط العناوين، حيث تتيح الأخيرة مجالًا أوسع للابتكار، والتزاماً أقل بالمقروئيـة، فيما الأولى أكثر صرامة وتشدداً، مـن دون أن ينفي ذلـك ضرورة التّجديد فيهـا. بالعكس، إذ لكونها تستعمل على نطاق أوسع، ولكون التوازن فيها أدق بين المحافظـة والتجديد، سـوف تكون هذه الخطـوط الاختبار الحقيقي للخطوط العربية الجديدة.

2 دراسته وتدريسه جامعياً...
بين الحلول السهلة والطموح المبدع

يارا نمّور



شهد تصميم الحرف العربي في السنوات الخمس الأخيرة انطلاقة قوية، حين أخذت جامعات البلاد العربية، واحدة بعد الأخرى، تُدرج على مناهجها، مادة تصميم الحرف العربي مادةً أساسيةً في شهادات التصميم البصري. ويعترف هذا المسار أخيراً بأنك إذا أردتَ أن يتخذ التصميم الغرافيكي العربي مظهراً يعبّر عن روح العصر، فلا بد لك من الأداة الأساسية لهذا الغرض: التصميم العصري لعائلات الحروف.

حين تدرس التصميم الغرافيكي، فإنك في العموم تخط السطر الأساس، وتضع الخط الأعلى لكتابتك، وأطر الصعود والهبوط في الكتابة، وهكذا. ثم تأخذ في رسم أشكال تشبه الخط العربي، بين هذه الخطوط والحدود. لكن ثمة نقاشاً حاداً في شأن هذا النهج، ولم يحن الوقت بعد حتى تَتّخذ موقفاً نهائياً في هذا النقاش.

والخطوة الأولى التي يخطوها الطلاب، في هذا الصدد، هي أن يعوّدوا عيونهم على أشكال الحروف، فيأخذون في كتابة الأبجدية من جديد، وكأنهم في مرحلة المبتدئين، من الألف إلى الياء. لكنهم يصادفون في طريقهم هذا متاعب في إدارة المهمة. ويزداد الأمر سوءاً، حين يحاولون ترتيب الحروف، ترتيباً سليماً. إنه لأمرٌ لا يصدَّق! وقد يصادفون متاعب أخرى وهم يحاولون كتابة أشكال الحروف على الخطوط وفي الارتفاع المنشود. فيُبقون الحروف التي يُفترَض أن تنزل تحت خط الأساس، معلّقة في الهواء، أو يكتبون الحروف بشكلها الذي تتخذه في وسط الكلمة، بدلاً من شكلها في آخرها. فقد يكتبون لك حرف «ت» تحت السطر مثلاً! إن هذه مشكلات حقيقية نصادفها حين يكون الطالب في صدد مشروعه الأول في تصميم الحروف. لذا تجدهم يهربون إلى «مخرجين سهلين» يلجأون إليهما، حلاً عملياً لمشكلتهم. لكن ثمة مخرجاً ثالثاً في معالجة الخط العربي، لا يُغري سوى الطلاب القلة الطموحين.

المخرج السهل الأول هو وضع إطار موحّد يستوعب أشكال كل الحروف، كما يتصورونها. وقد يكون هذا المخرج أسلوباً أساسياً لمعالجة الأمر عند تصميمك أول عائلة حروف تصممها في أية لغة. لكن اعتماد هذا النهج في اللغة العربية، يجعل معظم الحروف هجينة غير مقروءة، لا سيما لدى القارئ الذي ألِف في العموم الحروف العربية، مثلما قرأها في أنماط الخط العربي. في هذه الحال، يرسم الطلاب حروفهم، ثم يركّبونها على برنامج يتخذونه من الشبكة الدولية «الإنترنت»، من موقع (http://fontstruct.com)، ويكون مصمّماً للحروف اللاتينية، التي صُمِّمَت على قياسٍ

KHAJAG
APELIAN

«بوجور» هو حرف تجريبي من تصميم خاجاكز أبيليان، الذي صممه انطلاقاً مستطيلات ممدودة سلفاً، بحيث تستخرج الروف بالتركيز على أطرها العامة، وتتحدد من خلال القطع المعاكس ليلاقي المستطيل



يمكن للطلاب عن دراستهم تصميم الحروف أن يخرجوا بحلول متوقعه. وهنا استخرج أحدهم أشكال الحروف من مساحة قائمة مستخدماً مصدراً واحداً للضوء ومصراع آلة تصوير مفتوح

موحد نظري. ويجعل هذا حروفهم قابلة للاستعمال تماماً، بصفتها بنطاً جاهزاً، فيشعرون بالرضا في تجربتهم الأولى هذه مع التصميم. كذلك تشكّل هذه التجربة، تنبيهاً لعيونهم ولفتاً لانتباههم إلى وفرة الاحتمالات والإمكانات، التي تنتظرهم، والتي لم يستكشفوها بعد، بالمقارنة مع عائلات الحروف اللاتينية، التي تجاوزت هذه المرحلة من التجربة.

ويجدر القول إن القارئ العربي العادي لم يختبر كفاية بعد ملاحظة العلاقة بين تصميم الحرف وتنويعاته العديدة التي يحضنها في أشكاله، مع إن هذه الملاحظة أخذت تحظى باهتمام وحيّز جيدين في قنوات الإعلام اليوم. وفي هذا المجال، يحمل الحرف إلى القارئ شريحة واحدة من شحنته الغنية، هي شريحة المضمون، لكنه لا يحمل الشريحة الأخرى، المتعلقة بالجهة البصرية لتصميم الحرف نفسه.

الخطوة الأولى التي يخطوها الطلاب، في هذا الصدد، هي أن يعوّدوا عيونهم على أشكال الحروف، فيأخذون في كتابة الأبجدية من جديد

أما المخرج السهل الثاني الذي يلجأ إليه المبتدئ في دراسة تصميم الخط العربي، فهو مسايرة حساسيته الشخصية في الكتابة اليدوية. إذ يحاول الطلاب أن يؤسسوا تصميم حروفهم على ما اعتادوه حين يكتبون باليد طول السنين – وينطوي هذا على رجحان الطابع الشخصي. لكن هذا المسلك يخبئ أيضاً كثيراً من المفاجآت والنتائج غير المتوقعة. وأحد هذه الحلول المفاجئة، رسم حروف بواسطة مساحة سوداء، واستخدام مصباح ضوء أبيض، ومصراع عدسة تصوير مفتوح.

لكن المخرج الثالث، وهو الأكثر مدعاة للاطمئنان، ويستغرق وقتاً أطول، ومزيداً من التأني والصبر: هو مخرج فن الخط العربي. يبدأ الطلاب بدراسة نظرية وعملية لواحد من أساسيات الخطوط العربية، وفي الغالب النسخي. فيأخذون

مجموعة محدودة من الأحرف والزخارف المصممة بالإحساس نفسه لإظهار الفن التشكيلي للخط، ومطوية إضافيه ترويجاً للخط نفسه، يمكن عرضها مفتوحة أو طيها لإرسالها بالبريد



الحرف المصمم جيداً يجمع مواصفات فن الخط، والشكل شبه الموحد لحروفه بشكل ينساب سلساً امام العين وتسهل قراءته.

في تدريب يدهم على اتباع أقرب مسار إلى أصول الخط العربي. ومع قلة الكتب – المراجع المتوافرة في هذا الأمر، يمكنهم أن يكتسبوا فهماً مقبولاً للبنية الخاصة بكل حرف. ونتيجة لذلك، تنشأ عائلة حروف عربية جديدة، تشتمل على صفات الخط العربي التقليدي، وعلى صفات الخط العصري، شبه الموحّد القياس، الذي يدخل عين القارئ بلطف ولا يسبب لها مشكلات قراءة حقيقية.

وأظن أن المعالجة الأنسب للمشكلة، لا بد من أن تعتمد معرفة أفضل لفن الخط العربي التقليدي الأصيل.

وحتى لا أبدو «أصولية» في هذا المجال، أنا أعتقد بصدق ألاّ بد من الاهتمام بالجذور الأولى في تصميم عائلات الحروف العربية، لا من أجل إنشاء خطاط محترف، إذ إن هذا يستغرق سنوات طويلة من الجهد الصبور والدؤوب، بل من أجل تعويد اليد على عبقرية مسار الخط العربي وحروفه، لتصير كتابته طبيعة ثانية عند المصمم.

أضيف إلى هذا أن الحركة الجديدة التي أعادت الروح إلى تصميم الخط العربي، وهو مسألة أُهملت طويلاً، ستنشئ –إن شاء الله– جيلاً جديداً من المصممين، يمسكون بيد القارئ العربي، ليأخذوه إلى طرق مكتَشَفة، في قراءة الحروف العربية.

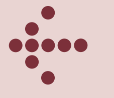
ديوان الأمس

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

ديوان اليوم

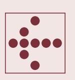


الهجاء.. سحر الشعر



يستضيف ديوان الأمس.. ديوان اليوم في هذا العدد، الشاعر السعودي علي العقيلي، الذي يقرأ لنا فن الهجاء، ليس من الزاوية الباردة أو التحليلية المألوفة في زمننا، بل على الضوء الذي كان يحيط بهذا الفن قديماً، وتحديداً بعض المختارات التي انتقاها لنا، قبل أن يعود بنا إلى الشعر المعاصر في قصيدة له بعنوان «استِشقَاء».

الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير



كانت العرب من زمن الجاهلية ترى أن في الشعر ضرباً من الكهانة، وأن السحر والشعر يسيلان من ثقب واحد تسقيه قوة خفية، لما فيه من التقول والرجم بالغيب، وتحوير الباطل حقاً، والحق باطلاً، ثم عمدوا إلى الهجاء فجعلوه خاصة أخا السحر، لما كان الشاعر المفلق يمارسه من طقوس إذا أراد الهجاء، كأن يلبس حلة ويقلبها، أو يحلق رأسه إلا ذؤابتين، أو يدهن بالزيت شقاً منه ويترك شقاً، أو أن ينتعل فردتي حذائه متخالفتين أو يمشي بنعل واحد، بزعمهم أنه يستمد من الجن تمتمات الأذى فيجعلها في شعره للإضرار بالمهجو! هذا من جهة الشاعر، أما من جهة الشعر، فشعر الهجاء شبيه بالسحر من حيث يظهر تارة ويخفى تارات، ومن حيث أذاه وضرره بالمهجو، فمن ذلك يقول النجاشي:

قُبيِّلَةٌ لا يغدرونَ بذمة
ولا يظلمونَ النَّاسَ حبةَ خَردل!

وهذا من أخبث الكلام، إذ يقول إنهم أهل جبن وعجز ومذلة!

أما من جهة المهجو، ففيه من الضرر والأذى ما إن نفس الشريف لتجهده حتى تناله قلاقلَ عصبية شديدة بسبب الهجاء لربما أسلمته لاعتزال الناس أو حتى يشدّ عن مرابعه كلها. وتصور على ذلك حال الزبرقان التميمي يوم هجاه الحطيئة فما انتسم إلا في المدينة النبوية شاكياً، ولولا صرامة عمر، لربما كان للأمير النجدي شأن آخر مع هذا الحطيئة. ثم انظر إلى فعل قول جرير في النميريين:

فغضَّ الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

انظر إلى التأثير النفسي الشديد الذي تركه هذا البيت في النميريين حتى يروي أبو عبيدة أنه: صار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر!

وما كانت تبرد حشاشة بعض المهجوين حتى وإن قتل الهاجي! والتاريخ في هذا سافح طافح بدماء الشعراء الهجاة ليس طرفة في أولهم ولا أبو الطيب في آخرهم. لذلك، كان خيراً وأبقى أن يتقي الأشراف الشعراء بإكرامهم كما كانوا يفعلون مع الأعشى خشية من أن يلوي لسانه في الهجاء.

كما اعتقدوا أن لكل شاعر شيطاناً يمج في فِيه الشعر، وفي ذلك أخبار متفرقة واسعة، منها أنهم إذا أسروا شاعراً، عقدوا لسانه على نسعة، حتى لا ينطلق شيطانه على لسانه مشنعاً، لاعتقادهم أن الإبل متصلة بالجن، وأن النسعة وهو حبل مظفور لرحل الناقة ولقيادتها، يظفر شيطانه أيضاً، يتهدد عبد يغوث القحطاني الحارثي فيقول:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشر تيم؛ أطلقوا عن لسانيا!

والشعراء أنفسهم كثيراً ما أكدوا هذا، يقول حسان بن ثابت:

ولي صاحب من بني الشيصبان
فطوراً أقول وطوراً هوه!

وبنو الشيصبان هنا حي من الجن كفانا الله بني الشيصبان، والشيصبان أيضاً ذكر النمل، فلعل هؤلاء الشيصبانيين يدبون في روع الشاعر مثل النمل بما يملون وينفثون والله أعلم.

ويقول جرير:

إني ليلقى علي الشعر مكتهل
من الشياطين إبليسُ الأباليس!

ويرد الفرزدق أن شيطانه هو هو شيطان جرير، إلا أنه من فم الفرزدق أخبث!

والأعشى من أكثرهم ذكراً لاعتضاده بالجن حين الشعر، ويزيد أن شيطانه «مسحل السكران بن جندل» رفيق له وخليل له، وأنهما متفاهمان متفقان يقول:

وما كنت ذا قول ولكن حسبتني
إذا مسحل يبري لي القول أنطق
خليلان فيما بيننا من مودة
شريكان جني وإنسٌ موفق!

ويفتديه بنفسه فيقول:

حباني أخي الجني نفسي فداؤه
بأفيح جياش العشيات مرجم

أما أبو النجم فيؤمن بتفوق الذكر، فيقول:

إني وكلّ شاعر من البَشر
شيطانه أنْثى وشَيطاني ذكر

وقال آخر:

إني وإن كنتُ صغير السِّنّ
وكان في العين نُبُوٌّ عنِّي
فإنّ شيطاني كبير الجنِّ
يذهب بي في الشعر كل فن

ويرى المعري أن الشعر رقي إبليس، ولعله أخذه من جرير حين تمنى أن يكون في حضرة عمر بن عبدالعزيز فاقراً لا شاعراً فقال: رأيت أميراً يعطي الفقراء ويمنع الشعراء:

ديوان الإنس ديوان الجن

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقيا

أما جوشن الكلابي، فهو وإن أثبت الشعر للجن، إلا أنه يرى أن أبياته أجود وشعره أفوق، قال لأبيه وهو على فراش موته:

فأقسم لو بقيت لقلت قولاً
أفوق به قوافي كلَّ جني!

ومثل جوشن الجاحظ، لا يختلف في إثبات شاعرية الجن، إلا أنه يرى أن شعرها ضعيف ثقيل مكرور، ويورد على ذلك بالبيت الذي زعموا أن الجن قالته حينما قتلت حرب بن أمية والد أبي سفيان:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ
وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ!

حيث لا يستطيع أحد أن ينشده «ثلاث مرات متصلة لا يتعتع فيها، والجن يستطيع أن ينشد أثقل شعر في الأرض وأشقه عشر مرات ولا يتعتع!» وهذه من طخطخات الجاحظ -رحمه الله- وإلا أترك للقارئ الكريم الحكم في هذا.

والمعري يخالف الجاحظ في هذا هازئاً، ويرى أن الشعر كله للجن، وأن لها فيه آلاف البحور، بينما ما فتئنا نحن البشر ندندن على خمسة عشر بحراً!

وفي رأيي، والله أعلم بالصواب، أن الجن خلق لهم عاطفة وشجن هما أشد وأقوى منهما في الناس، وأن غالب شعرهم رجز وارتجال، أما اتصالهم بالشاعر، فلا حاجة للمبالغة في المصاحبة والمناشدة والمنادمة كما فعل الشعراء الأقدمون حتى أورثوها المتأخرين، فالأمر بسيط جداً، من حيث أن لكل إنسان قريناً يلازمه في حياته كلها ليغويه ويرديه، وهو حاضر معه كل شأن وحال حتى حالة الشعر مؤيداً له في كل شر، وليس من غرض شعري فيه التحريض والفحشاء والفتنة والقذف والظلم كغرض الهجاء، فكان طبيعياً أن تبرز هذه المشاهد الشعرية في أشنع ما يكون إضراراً بالمهجوين، ثم يدعي الشاعر من بعد ذلك أنه مختص بمارد هجاء يضر ويؤذي!

ولا تنتهي الشواهد لو تتبعناها لإثبات أنهم كلهم في هذا الأمر يختلقون ويتقولون ويبالغون فيه لوجوه ثلاثة:

أولاً: مال أصحابهم من الجن كلهم أشراف؟ أولي جاه وسيادة وريادة من رؤساء الجن، هنا دليل لطيف على هذا الاختلاق، هو في حضور العقلية العربية في هذه السالفة، التي لا تعترف بمواهب الفقراء والمغمورين إلا ما ندر كما كان مع عنترة العبسي، فكان لزاماً أن يدعي الشاعر أن أقرانه ليسوا كغيرهم، بل أكابر الجن في جنسها، وأصحاب شرف وجاه وقوة وسؤدد من شيوخ الجن إلى بني الشنقناق وبني الشيصبان والطرطعان!!

ثانياً: ما رووه من وشائج القربى بين شياطين هؤلاء الشعراء، فللمخبّل شيطانة اسمها بنت عمرو، وخالها هو مسحل، شيطان الأعشى، ومسحل خاله هُميم، شيطان آخر للفرزدق!!

بنت عَمْرٍو وخالها مسحل الخير
وخالي هُميمُ صاحب عَمْرو

فكل الثلاثة من أقذع خلق الله هجاء! وحينما يظهر أن بين شياطينهم رحماً وقرابة، تكون دواعي خوف الهجاء واجتنابه في الناس أكثر.

وثالثاً: شيء آخر على هذا الاختلاق، هي أسماء هؤلاء الأقران التي تنعكس من طبيعة كل شاعر وخصائص جيله وعصره، رقة وجزالة، بداوة وحضارة، فهادر بن مادر اسم شيطان النابغة الذبياني، ولافظ بن لاحظ شيطان امرئ القيس، وهبيد بن الصلادم شيطان عبيد بن الأبرص (هبيد على وزن عبيد، كأنما شيطانه حبشي استعرب)، ثم ترق الأسماء في العصور اللاحقة، فشيطان أبو نواس اسمه حسين الدنان، والبحتري طوق بن مالك، وأما العالم الشاعر ابن دريد فاسم شيطانه أبو زاجية، أما شيطان المتنبي فكأنما كان من أعراب الكوفة واسمه حارثة بن المغلّس!

وأخيراً، فلعل النبي (صلى الله عليه وسلم) كان ينزع عن حسان أن يتقول في هجائه قريشاً فرية وباطلاً حين يقول: اهجهم، وجبريل معك! فأي قرين هنالك إذا حضر جبريل الأمين؟

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات
على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات
يلطمهن بالخمر النساء!

وهذا كله قبل فتح مكة بزمن، فلما كان الفتح أغارت خيل المسلمين من أربعة مواضع فيها كداء، مثيرة النقع وهو الغبار، وخرجت نساء مكة يضربن الخيول بالخمر، فتبسم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يقول لأبي بكر حوله: كيف يقول حسان، فيقول الصديق يقول يا رسول الله:

تظل جيادنا متمطرات   تلطمهن بالخمر النساء

قال: صدق!

وصدق (صلى الله عليه وآله وسلم)، والحمدلله رب العالمين.

اسْتِـشْـقَـاء!



شِعر: علي العقيلي

عَادَ إليْها بَعْد خَمْس سنينْ .. فوَجدها مُجْدِباً عَقيماً ، وَ قَدْ عَاثَ فِيها الجَراد! فَتَولّى إلى السّماء..

الإهداء: إلى كل من ترك الزرع!

متى تُمْطِرين؟ متى تُمْطرينْ؟!
متى تُمْطِرين؟ متى تُمْطرينْ؟!
سِنينْ ..
وريحُكِ أسْواطُها لا تلينْ!
تسوقُ الغمائمَ .. صَوْبَ الحنينْ!
سِنين..
و أسْيافُكِ الزّرقُ تشْحذُها السّاريات..
تَثُجُّ بها مِن نحورِ الغَمامْ؛
فَـتُـرْغي الرُّعودا!
و حينَ يفوحُ النجيع..
يطوفُ عَلى كُل كُوخ ..
فَـتَـلْوي الأنوفُ الرّقابْ
رقابَ الغريبينَ مثلي
إلى المشْرِقَـيْنِ - لأنّك في الشّرق
شَرقْ!
فَتُلقِي الدفاترْ..
وَ فيها الجواهِرُ فيها المحاضرْ ..
و فيها السرائرُ فيها الضفائرُ فيها
الغدائرْ!
و فيها الضَمائرْ!
ونَسْبِقُ أنْفَاسَنا للسَتائرْ!
نزيحُ المساءْ ..
لَعلّ الصباحْ!
متى ما يشاءْ..
سيولِجُ أفراسَهُ البيضَ فينا ..

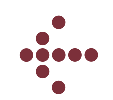
مِنَ الشرقِ حيثُ
انكفاء الرياحْ ..
و أنظارنا مُرسَلاتْ!
إلى السّارياتْ..
سِنينْ!
لصَوْب الحنين!!
*
وبينَ تنائي المهَاجِرِ حتى طُعون
الخناجِرْ
تُسَجّي جِراحاتِنا بالجفونْ!
ومِنْ غَصْغصَاتِ الحناجِر حَتى نَـزيفِ
المحاجِرْ..
تُسَافرُ أرواحُنا في الشُجونْ!
سفَائِنُ زهْرٍ مُلِئْنَ شَكايا!
لتدْفُقَ أحْلامَنا في السِّيولْ!
وَ تَخضَّر في الأمْنياتِ الحُقولْ!
و سُمْرُ الأناملِ .. بِيضُ المناجِلِ ..
لصُفْرِ السنابلْ!
و نسمعُ مِنْ دونِهِنّ
تنادي الصّبايا..
«تأخرّتِ يا هِنْدُ هيّا .. إلى الحَقْلِ هَيّا..»
و تلحَقُ هِندْ ..
و يجتازُها فوقَ سِرْبُ حمامْ!
و تهمِسُ سَلمى بأذْنِ سُعَاد..
فتضْحكُ كِلتاهُمَا كالربيع..

ويمضينَ ..
ثمَّ تمورُ الجَداوِلُ فوق الحقولْ ..
لتَنْبُت فينَا الخطايَا ..
كما ينْبتُ الياسمين!!
*
فجئناكَ يا برْقُ يا شرقُ ياشوقُ
أينَ المناجلُ ، أينَ السنابلُ ..
أيْنَ الحنينْ؟!
وَ أيْن حَديثُ البناتِ؟ صَريمُ النباتِ؟
أماني السِّنين!
«لكَ الموتُ!»
لا حيَّ في الأرض إلا السّرابْ ..
و وعْدُ الصّدى لِلردى بالنّدى!
ألا إنّ وعْد النّدى لايموتْ!
*
متى تُمْطِرين؟ متى تُمْطرينْ؟!
متى تُمْطِرين؟ متى تُمْطرينْ؟!
سَرى الليلُ ياهِنْدُ بالأغنياتْ!
ومُنْشِدهُنّ الشّجيُّ الحزينْ ..
عَلى النّارِ يُعْمِلُ فيها عَصَاهْ!
وَتَرْشُقُهُ النّار بالذكْرَياتْ ..
وتَبْكيه!
دُموعُ الّلهيبِ الشّررْ!
ومِنْ مُقْلتيْهِ يسيلُ الدُّخانْ..
ليكْويه..
صلاءُ العيون النظرْ!
وَلوْ تَشْعرين..
يحِجُّ لأطْرافِهِ الزمهريرا!
و يجمعه الشيحُ .. تَنْثُره الريحُ لكنْ ..
يُحِبُّكِ يا هنْدُ حتى يُوافيكِ طين!
يُحِبُّكِ يا هِنْدُ .. «إنّا نُحِبُّكِ!»
«إني أحبُّكِ!»
لَوْ عاثَ فيكِ الجَرادْ..
تظلينَ أرْضي!
وَ لَوْ أبْدل القَحْطُ
سنبلك الغضّ خَمْطاً..
سَتبقينَ بعْضي!
أُحِبُّكِ.. مَاذا تشائينَ؟
أنْ ينْفُقَ العمرُ فيكِ انتظَارا؟
رَبِحْتِ الخلودَ و أوْقَدتِ نارا ..
على كُلّ بابْ ..
سَأطْرُقُهُ في الزمانِ الجميلْ..
فَلا تَسْألي الماءَ غيْري.. ولا تَنْظري
للسماءْ..
فَعَيْنَايَ بالغيْثِ ثَجّاجَتان
و كُلُّ رُموشي عُذوقْ!
وصَدري المُعَصْفَرْ ..
جَـرينٌ و بيْدَرْ!!
أُحِبُّكِ!!
وَكنتِ تمَنيْنَ ظِلّي.. فَجِئْتُكِ كُلّي!
فَماذا العُقُوقْ!
أحبُكِ يا أرْضُ لكِنْ ..
مَتى تَزْرعيني؟
مَتى تُزْهِر الوَعْدَ أهزوجَةُ اليَاسمين
عَلى كُلّ نَايْ؟
مَتى تَنْثُرُ العِطْرَ معزوفَةُ الفايولين
عَلى كُلّ آيْ؟!
مَتى تَضْرميني؟! متى تطْحنيني؟!
متى!
«لكَ الموتُ»
لا حيَّ في الأرض إلا السرابْ..
يموتُ عَلى دَرْبِهِ الظّامئونَ
ويبقى!
و وعْدُ الصّدى لِلردى بالنّدى!
ألا إنّ وعْد النّدى
لايموتْ!

ديوان الأمس ديوان اليوم

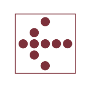


يوسا.. آخر الفائزين بجائزة نوبل
«الأدب للوقاية من التعاسة»



بخلاف السنوات القليلة الماضية حين منحت جوائز نوبل للآداب لروائيين فاجأت أسماؤهم الكثيرين -بغض النظر عن مسألة استحقاق هؤلاء للجائزة- كانت جائزة هذا العام من نصيب الكاتب البيروفي ماريو بارغاس يوسا، «المرشح» منذ سنوات طويلة، والذي حظي منذ ما قبل ذلك بكثير بمكانة عالمية، وترجمت أعماله إلى كل اللغات الكبرى، بما فيها العربية منذ أكثر من عِقد أو عقدين.
رانيا منير تلخص هنا الخطوط الكبرى في سيرة هذا الأديب البيروفي، وتتوقف بشكل خاص أمام رؤيته الخاصة للأدب ودوره في الحياة، والقضايا التي تمحورت عليها معظم أعماله، قبل أن تختار لنا مقتطفات من روايته «التيس».

رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير



في نصيحة قدَّمها لروائي شاب يتمنى أن يكتب أدباً جيداً لا يموت حتى بموت كاتبه قال ماريو بارغاس يوسا:

«إن الجوائز والاعتراف العام، ومبيعات الكتب، والسمعة الاجتماعية للكاتب، لها مسار من نوعها، مسار تعسفي إلى أبعد الحدود. فهي تتجنب، بعناد أحياناً، من يستحقها بجدارة كبيرة وتحاصر من يستحقها أقل، وتثقل عليه، وهكذا يمكن، لمن يعتقد أن النجاح والشهرة هما الحافز الجوهري لميوله الأدبية، أن يرى انهيار حلمه وإحباطه، لأنه يخلط بين الميل الأدبي والميل إلى بريق الشهرة والمنافع المادية التي يوفرها الأدب لبعض الكُتّاب (وهم محدودون). والأمران مختلفان. ربما كانت السمة الأساسية للميل الأدبي، هي أن من يمتلكه، يعيش ممارسة هذا الميل، باعتباره مكافأته الأفضل، وبأنه أكبر، بل أكبر بكثير، من كل المكافآت الأخرى التي يمكن له أن ينالها، كنتيجة لثمرات ميله. وهذا أحد الأمور المؤكدة لدي، بين أمور كثيرة أخرى غير مؤكدة، حول الميل الأدبي، فالكاتب يشعر في أعماقه، بأن الكتابة هي أفضل ما حدث، وما يمكن أن يحدث له. لأن الكتابة في نظره، هي أفضل طريقة ممكنة للعيش، بصرف النظر عن النتائج الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية التي يمكن له أن يحققها، من خلال ما يكتبه.. أظن أن من يدخل الأدب، بحماسة، ويكون مستعداً لأن يكرس وقته وطاقته وجهده لهذا الميل، هو وحده من سيكون في وضع يمكنه من أن يصير كاتباً حقاً، وأن يكتب عملاً يعيش بعده».

وهكذا وبعد سنوات طوال من تجاهل نوبل لهذا الأديب البيروفي الذي كان لا يكتب ليعيش بل يعيش ليكتب؛ وعدم اكتراثه بالحصول على الجوائز طالما أنه يكتب ما يؤمن به، ها هو الآن يطل علينا في عقده السابع بشعره الفضي وأناقته اللافتة والكاريزما التي تتمتع بها عادة الشخصيات السياسية المشهورة؛ ليعلن أن نيله لجائزة نوبل يُعد اعترافاً بأهمية أدب أمريكا اللاتينية واللغة الإسبانية التي حصلت على نوع من المواطنة في العالم، وتأتي كذلك تأكيداً على قدرة هذه البلاد على إنتاج الفنانين والموسيقيين والرسامين والمفكرين والروائيين، وليس فقط الكوارث والطغاة والثوريين..

نشأته

ولد ماريو بارغاس يوسا في 28 مارس 1936م، من عائلة متوسطة في مدينة المقاطعات البيروفية أريكويبا. انفصل والداه قبل ولادته بأشهر، فعاش في بوليفيا مع عائلة أمه التي أخفت عنه طلاقها من أبيه، وأخبرته بأنه توفي. إذ كان انفصال الوالدين في ذلك الوقت يُعد فضيحة كبرى.

وبعد حصول جده على وظيفة دبلوماسية في المدينة الساحلية للبيرو عادت العائلة إلى البيرو ودخل ماريو المدرسة الابتدائية. في العاشرة من عمره انتقل للعيش في ليما وهناك قابل والده الذي عاد ليعيش معهما مجدداً في حي متوسط من أحياء ليما حيث قضى سنوات مراهقته.

كان ماريو يحب القراءة والأدب ولكن والده رأى في ذلك مضيعة للوقت، فقرر إرسال ابنه ذي الأربعة عشر عاماً إلى مدرسة عسكرية، ليتعلم الانضباط والالتزام فينضج ويتخلى عن أوهامه. إذ كان يرى أن من يعيش في بلد كالبيرو ليس بإمكانه أن يحلم بأن يصبح كاتباً، وإنما ينبغي له أن يفكر كيف سيجني عيشه. ولكن يوسا تابع القراءة والكتابة بنهم أشد. وقبل تخرجه بعام بدأ العمل كصحافي هاوٍ لجريدة محلية. وشهد في ذلك الحين الأداء المسرحي لأول عمل له.



سنة 1953م بدأ بدراسة القانون والأدب في الجامعة الوطنية في سان ماركوس، وهي أقدم جامعة في الأمريكيتين. وبعد سنتين تزوج بامرأة تكبره بسنوات عشر، وكان حينئذ في التاسعة عشرة من عمره، لكن هذا الزواج الذي اقتبس منه روايته الكوميدية «العمة جوليا والكاتب» 1977م، لم يدم أكثر من بضع سنوات، وانتهى بالطلاق ليتزوج بعدها من قريبة له، وهي باتريشيا يوسا التي أنجبت له ثلاثة أطفال. وما زالت ترافقه مسيرة حياته حتى اليوم.

مدخله إلى معترك الأدب

بدأ حياته الأدبية بشكل ملتزم وجاد سنة 1957م مع إصدار مجموعته القصصية الأولى وكتابته في بعض الجرائد المحلية. كانت أعماله الأولى مشبعة بروح الظلم والتعسف وبمشكلات التعصب والجهل والفقر التي تعانيها بلاده. ورغم معالجته فيما بعد لموضوعات وأفكار عالمية، إلا أن مشاعره المعقدة والمتناقضة تجاه البيرو تتسرب عبر جميع أعماله لتشكل حبلاً سرياً يربط بينها جميعاً.

بعد تخرجه سنة 1958م، تلقى منحة للدراسة في جامعة كومبلوتنس في مدريد لمدة سنتين. انتقل بعدها إلى فرنسا، آملاً بالحصول على منحة دراسية أخرى هناك. إلا أن طلبه قوبل بالرفض ورغم حالته المادية السيئة، لم يشأ مغادرة باريس مهبط وحي الشعراء والأدباء، فقرر البقاء هناك وبدأ يكتب بغزارة. فهو كأي مثقف من بلدان العالم الثالث يحلم بالذهاب إلى فرنسا ومقابلة أدبائها، فقد كان مغرماً بسارتر وكامو، وكان يعشق غوستاف فلوبير الذي كانت الكتابة بالنسبة له عبارة عن «طريقة في الحياة». وقد استفاد كثيراً في بداياته من قراءة مراسلات فلوبير التي صاغ فيها نظرية متكاملة حول الجنس الروائي. وكذلك كان معجباً ببورخيس وسرفانتس وفوكنر وهيمنغواي ومالرو ودوس باسوس. وقد ربطه الأدب بصداقة مع غابرييل غارسيا ماركيز حيث نشر يوسا سنة 1971م دراسة نقدية لقصة ماركيز، وكانت موضوع أطروحته لنيل شهادة الدكتوراة في جامعة مدريد. إلا أن خلافاً حول الشؤون السياسية وقع بينهما سنة 1976م انتهى بلكمة من يوسا على وجه ماركيز، وقطيعة استمرت بينهما لثلاثين سنة دون أن يصرح أي من الطرفين عن أسباب هذا الخلاف.

الناقد الصارم

نشر يوسا روايته الأولى سنة 1963م بعنوان «مدينة الكلاب». وتجري أحداثها في أكاديمية عسكرية في



البيــرو، حيث يــروي تجربتــه الخاصــة في تلـك الكلية منتقـداً نظامها التعسفـي. ورغم أنها حظيـت بإعجاب النقــاد لقدرته على استخـدام أسلوب أدبـي معقد رغم حداثة سنه وتجربته، إلا أنه أثار استياء إدارة الأكاديمية التـي أحرقت ألف نسخة من الروايـة في الساحة العامة متهمة يوسـا بالعمالة للأكوادور وتقويض هيبة الجيش البيروفي.

> «حفلة التيس» توَّجت أعماله عام 2000م، لما تضمنته من نقد لاذع للحكم الديكتاتوري في الدومينيكان

يقـول يوسا: «إن لعبة الأدب ليست من النوع غير المـؤذي. فالخيال الذي هـو نتاج عدم رضـا حميم ضد الحياة، كمـا هي عليه، هو أيضـاً مصـدر استياء وعدم رضـا، لأن من يعيش، من خلال القراءة وهماً كبيراً، يعود إلــى الحياة الواقعية بحساسيــة أكثر تيقظاً بكثير، حيال محدوديتها ونقائصها. ويعرف من خلال تلـك الروايات التخيلية العظيمة، أن العالــم الواقعي، والحيــاة المعيشة، هما أقل صدقية بكثير مــن الحياة التي اختلقها الروائيون. هذا القلق، في مواجهة العالم الواقعي، الذي يثيره الأدب الجيد فــي النفوس، يمكن له، في ظروف معينــة، أن يترجم أيضاً إلى تمرد. ولهذا السبب، ارتابت محاكم التفتيش الإسبانية بالروايــات التخيلية، وأخضعتها لرقابــة صارمة، بلغت حد حظرهــا فــي كل المستعمــرات الأمريكيــة، طــوال ثلاثمئة سنة».



لكـن يوسـا لم يتوقـف عند هــذا الحـد، وتابـع معركته الكيخوتية فـي محاربة الظلم والتعسف. فجاءت روايته الثانيــة «المنــزل الأخضــر» 1965م التي حــازت لجائزة «رومولو غاليغوس» للرواية الدولية، لتؤكد إبداعه وترسخ اسمــه فــي أدب أمريـكا اللاتينيــة. وتتحــدث عــن بيت دعــارة يطلق عليـه اسم «المنزل الأخضـر» ووجوده شبه الأسطـوري الذي يؤثـر في حياة الشخصيـات السياسية التي ترتاده.

أمـا روايــة «محادثــات فــي كاتدرائيــة» 1969م، فتعد من ألــذع رواياته. فهي تــروي قصــة سانتياغو زافالا، ابن وزيــر في الحكومة، الذي تجــري بينه وبين سائقه محادثــات فــي حانة، حيث يحــاول زافالا مــن خلالها البحــث عن حقيقــة دور والده في مقتـل شخص سيء السمعــة فــي البيــرو. وينتهي هــذا البحــث بمقتله من دون أن يتمكــن مــن إيجاد إجابة واضحــة أو بريق أمل لمستقبـل أفضل. انتقـد يوسا من خلال هــذه الرواية حكومة الجنـرال أودريا، وسلَّـط الضوء على ممارسات السلطــة الدكتاتوريــة التــي تحكم وتسيطــر على حياة الآخرين وتدمرها.

أعماله الكبرى

عــام 1981م، نشر يوسا عمله المهـم الذي يُعد تحفة يوسا الفنيــة وكتابه المفضل، حســب تعبيره، والــذي تطلب منه جهــداً كبيــراً لإنهائه وكان أول تجربة له فــي مجال الرواية التاريخيــة المأساويــة وهي بعنــوان «حرب نهايــة العالم». تستنــد أحــداث هــذه الروايــة على وقائــع حقيقيــة جرت فــي البرازيــل فــي القــرن التاسع عشــر في فتــرة التدهور الاقتصــادي الذي تلــى سقــوط الإمبراطوريــة البرازيلية. ويجســد فيها حلمــه الدائم بالبحث عــن المدينة الفاضلة، ويطرح مــن خلالها موضوعات جديدة كالخلاص والسلوك البشــري اللاعقلانــي والبحــث عــن دوافع تمجيــد العنف والتعصــب. كما كانت أول رواية يخــرج بأحداثها من نطاق المجتمــع البيروفي حيث اعتــادت أن تجري أحداث رواياته السابقة.

وأتــت رواية «حفلة التيس» عــام 2000م، لتتوج أعماله التي توجــه انتقاداً لاذعــاً للحكومات والسياســات الاستبدادية. وتتنــاول قصــة الديكتاتور رافائيــل تروخييو الــذي استمر حكمــه الدمــوي لجمهوريــة الدومينيكان منذ عــام 1930م وحتــى اغتيالــه عام 1960م. حيــث تصور أحــداث الرواية جرائــم الحاكم المستبــد وفضائح حاشيتــه الفاسدة، مما أثــار بعضــ البلبلة في مجتمــع سانتو دومينغــو، نظراً لكون جميع الشخصيات مأخــوذة من الواقع. كما تكشف الرواية أثر النظام الديكتاتوري والعنف والتعسف على الإنسان من

خلال قصة امرأة تتم خيانتها من قبل والدها الذي يقدِّمها وهي طفلة للدكتاتور الفاسد لإشباع نزواته.

ومن أعمال يوسا في الرواية أيضاً: «الحياة الحقيقة لاليخاندرو مايتا»، «من قتل بالومينو موليرو»، «قصة مايتا»، «دفاتر دون ريغوبيرتو»، «ليتوما في جبال الانديز»، «بانتا ليون والزائرات»، «شيطنات الطفلة الخبيثة»، «امتداح زوجة الأب». كما كتب في النقد: «لغة الشغف»، «رسائل إلى روائي شاب»، «السمكة في الماء»، «الحقيقة من الأكاذيب»، «بين سارتر وكامو».

دخل الانتخابات الرئاسية، لكنه خسرها بعد أن أدرك كيف يمكن للأديب والسياسي أن يستخدما اللغة ذاتها بأسلوب مختلف

خسر كرسي الرئاسة وكسب القرّاء

ظل يوسا مؤمناً بالأدب الملتزم بقضايا أمته، ورافضاً هروب الأديب من واقعه، وأن يكون أدبه مجرد كيخوتية تحارب طواحين الهواء. فهو يحلم بمدينة فاضلة يشارك الأديب فيها بتغيير مجتمعه، لا من خلال عالم الكلمات والخيال فقط، وإنما بالمشاركة الفعلية ودخول معترك الحياة السياسية. فقد كان يرى أنه من المستحيل على أدباء أمريكا اللاتينية أن يتجنبوا الحديث في السياسة «فالأدب هو تعبير عن الحياة ولا يمكن إلغاء السياسة من الحياة».

في فترة الحياة الجامعية ومرحلة الشباب الجامح المتحمس، كان يوسا من أشد أنصار حكومة فيدل كاسترو. ثم بدأت معتقداته بالتبدل عندما وجد أن الاشتراكية الكوبية لا تتفق مع متطلبات الحريات العامة، ولا سيما عندما قام نظام كاسترو بسجن الشاعر هيبرتو باديلا سنة 1971م. فتقدم مع مجموعة من المثقفين باحتجاج للحكومة على سجن الفنان. وبهذا مرَّ يوسا بعدة مراحل سياسية وتعرَّض لكثير من خيبات الأمل والصدمات، انتقل خلالها من اليسار المتطرف إلى اليمين الليبرالي معارضاً جميع الأنظمة الاستبدادية ومتبنياً القضايا الإنسانية العالمية.

وفي عام 1990م دخل الانتخابات الرئاسية في البيرو، لكنه خسرها بعد أن أدرك كيف يمكن للأديب والسياسي أن يستخدما اللغة ذاتها وإنما بأسلوب مختلف تماماً. واكتشف أنه لم يكن من المفيد أن يملك أفكاراً في حملة انتخابية.. وكم أن الشعارات والأكاذيب كانت فعالة!.

يعيش يوسا حالياً في لندن منذ عام 1990م. وقد حصل على الجنسية الإسبانية حيث يقضي هناك إجازاته ويحضر المؤتمرات. وقد انتخب عام 1994م عضواً في الأكاديمية الملكية الإسبانية وما زال يكتب للصحافة، وينشر الروايات الأدبية ويسافر كثيراً، ويدرّس كأستاذ في عدة جامعات مرموقة ويُعد الضمير الأخلاقي لبلاده، فهو المفكر الليبرالي الأكثر تأثيراً.

في الإعلان عن فوزه بجائزة نوبل لعام 2010م جاء أن تكريمه هذا كان: «لبراعته في تجسيد الصراع على السلطة وتصوير المقاومة والثورة والهزيمة داخل الفرد». وتبرز هذه الموضوعات بقوة في روايتيه: «محادثات في الكاتدرائية» و«حفلة التيس». إذ لم يتناول فقط موضوع الديكتاتورية باعتبارها عنصراً رئيساً في أدب أمريكا اللاتينية وإنما قدم تحليلاً نفسياً دقيقاً للسلطة المطلقة وقدرتها على تشويه القيم الأخلاقية والجمالية في نفوس الشعب.



مقتطفات

مقتطفات من «حفلة التيس»

صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية عام 2000م، بقلم صالح علماني الذي تولى ترجمة معظم أعمال ماريو بارغاس يوسا..

«هل أحسنت صنعاً بالعودة؟ ستندمين يا أورانيا. تبددين أسبوع إجازة، أنت التي لم تجدي الوقت قط للتعرف إلى مدن ومناطق وبلدان كثيرة كنت تحبين مشاهدتها- الجبال والبحيرات الجليدية في ألاسكا مثلاً- تبددينه في الرجوع إلى الجزيرة التي أقسمت ألا تعودين إلى وضع قدميك فيها. أهي أعراض انحطاط؟ أهي عاطفة خريفية؟ إنه الفضول، وليس أكثر. أن تثبتي قدرتك على المشي في شوارع هذه المدينة التي لم تعد مدينتك، التجول في هذا البلد الغريب من دون أن يثير فيك ذلك الحزن أو الحنين أو الحقد أو المرارة، أو السخط».

****

«أتشمئزين منه؟ أتكرهينه؟ هل ما زلت كذلك؟»، «لا، لم أعد كذلك»، تقول بصوت عالٍ. «ما كنت ستعودين لو أن الضغينة ما زالت تتأجج، ولو أن الجرح مازال ينزف؟» مثلما كانت في شبابها، حين كانت تدرس، تعمل، حين تحولت الدراسة والعمل إلى هاجس ووسيلة لعدم التذكر. لقد كانت تكرهه فعلاً آنذاك. بكل ذرات كيانها، بكل الأفكار والمشاعر التي يتسع لها جسدها. «تمنيت له النكبات، الأمراض، الحوادث. ألا يكفي أن النزيف الدماغي قد قتله في الحياة؟ انتقام لذيذ أن يعيش منذ سنوات عشر على كرسي متحرك، دون قدرة على المشي، على الكلام، معتمداً على ممرضة في أكله، نومه، لبسه، خلع ثيابه، قص أظفاره، حلاقة ذقنه، تبوله، تغوطه؟ أتشعرين بالتعويض؟ لا».

****

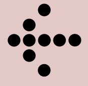
«لا تتذكر من طفولتها، عندما كانت العاصمة سانتو دمنغو تسمى مدينة تروخييو، أنه كان هناك مثل هذا الصخب في الشارع. ربما لم يكن موجوداً، ربما كانت المدينة أكثر صمتاً وأقل هستيرية قبل خمس وثلاثين سنة، عندما كانت أصغر مما هي عليه الآن بثلاث أو أربع مرات، مجرد مدينة ريفية، معزولة، هاجعة في الخوف والخضوع والمذلة، روحها منقبضة توقيراً ورعباً من الزعيم، الجنرال السمو، المنعم، أبي الوطن الجديد، صاحب الفخامة الدكتور رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا».

****

«لقد وجد الزعيم بلداً تسوده البربرية بسبب حروب الزعماء المحليين، لا قانون فيه ولا نظام، بلد مُفقر، آخذ بفقدان هويته، يجتاحه الهايتيون، جيرانه المتوحشون. يخوضون نهر ماساكيري ويأتون لسرقة الممتلكات، المواشي، البيوت، وينتزعون العمل من عمالنا الزراعيين، ويشوهون ديانتنا الكاثوليكية بشعوذاتهم الشيطانية، يفسدون ثقافتنا، ولغتنا وعاداتنا الغربية الهسبانية، فارضين علينا عاداتهم الإفريقية الهمجية. وقد وضع الزعيم حداً لتلك المعضلة: «يكفي!». الدار الكبير يحتاج إلى علاج كبير! لم يكن أبوها يبرر تلك المجزرة ضد الهايتيين في العام سبعة وثلاثين وحسب: بل كان يعدها إحدى مآثر النظام. ألم ينقذ الجمهورية من التعهر للمرة الثانية في التاريخ على يد ذلك الجار النهاب؟ وما أهمية موت خمسة، أو عشرة، أو عشرين ألف هاييتي إذا كان الهدف هو إنقاذ شعب؟»

****

«شقتي في منهاتن مملوءة بالكتب مثلما كان هذا البيت في طفولتي. كتب في الحقوق، في الاقتصاد، في التاريخ. أما في غرفة نومي فلا توجد إلا كتب دومينيكانية. شهادات، دراسات، مذكرات، كتب تاريخ كثيرة. احزر عن أي عهد كلها؟ وعن أي عهد ستكون، عن عهد تروخييو بالطبع. فهو أهم ما جرى لنا طوال خمسمائة سنة. هذا ما كنت تقوله بقناعة راسخة وهذا صحيح يا أبي. ففي الإحدى والثلاثين سنة تلك تبلور ما كنا نجرجره من خبث منذ الغزو الإسباني. إنك تظهر في بعض تلك الكتب، كشخصية مهمة. وزير دولة، سيناتور، رئيس الحزب الدومينيكاني. وهل هناك شيء لم تكنه يا أبي؟ لقد تحولت إلى خبيرة



بتروخييو. فبدلاً من لعب البريدج أو الغولف، وبدلاً من امتطاء الخيول أو الذهاب إلى الأوبرا، صارت هوايتي هي معرفة ما حدث في تلك السنوات. من المؤسف أننا لا نستطيع تبادل الحديث. فكم من الأمور يمكنك توضيحها لي، أنت الذي عشت تلك السنوات في الممارسة، معك زعيمك المحبوب، الذي دفع ثمن ولائك له بأسوأ الأثمان.»

****

«لن تفهمي ذلك يا أورانيا. هناك أشياء كثيرة من العهد استطعت فهمها، بعضها بدت لك في البدء غير قابلة للتفسير، ولكنك من خلال القراءة، والاستماع، والمقارنة والتفكير، توصلت إلى فهم كيف يمكن لكل تلك الملايين من الأشخاص المهروسين بالدعاية والافتقار إلى المعلومات، المخبولين بالتلقين العقائدي والعزلة، المحرومين من حرية الاختيار، ومن الإرادة وحتى من الفضول بسبب الخوف منه وحسب، وإنما إلى حبه، مثلما يتوصل الأبناء إلى محبة الآباء المتسلطين، وإقناع أنفسهم بأن الجلد والعقوبات إنما هي لمصلحتهم. ولكن ما لم تفهميه مطلقاً هو أن الدومينيكانيين الأكثر تأهيلاً، أدمغة البلاد، من محامين، وأطباء، ومهندسين، متخرجين أحياناً من جامعات كبيرة في الولايات المتحدة أو أوروبا، الحساسين، المثقفين، ذوي الخبرة، والقراءات، والأفكار، والمفترض أن لديهم إحساساً متطوراً للشعور بالسخرية، يتقبلون أن يكونوا محط تنكيل بتلك الطريقة الوحشية (وجميعهم تعرضوا لذلك في إحدى المرات) مثلما جرى في تلك الليلة، في باراهونا.»

****

«أهناك ما يستحق كل ذلك يا أبي؟ أكان الوهم بالتمتع بالسلطة؟ أحياناً أفكر أن لا، وأن الازدهار كان أمراً ثانوياً. وأنكم في الحقيقة كنتم تستلذون التلوث بالقذارة. وأن تروخييو قد أخرج من أعماق أرواحكم ميلاً مازوشياً، ككائنات تحتاج إلى من يبصق عليها، يهينها، لأنها بالتحقير تجد ذواتها.»

****

«ليس هناك ما يقيد المرء مثل الدم، هذا صحيح. أيكون هذا هو سبب إحساسه بالارتباط ببلاد الجاحدين والجبناء



والخونة هذه. فلكي يخرجها من التخلف، من الفوضى، من الجهل والبربرية، اضطر إلى أن يلطخ نفسه بالدم مرات كثيرة. هل سيشكره في المستقبل هؤلاء الأوغاد؟»

****

«إنها بلاد جميلة على الرغم من كل شيء. وستكون أجمل بعد موت هذا اللعين الذي أغرقها بالعنف وسمّمها خلال الثلاثين سنة الماضية أكثر مما جرى طوال قرن كامل عاشته الجمهورية تحت الاحتلال الهاييتي، وطوال الغزو الإسباني والأمريكي الشمالي، والحروب الأهلية وصراعات الفئات والزعماء المحليين، وأكثر من كل الكوارث- زلازل وأعاصير- التي نزلت بالدومينيكانيين من السماء، أو البحر، أو من أعماق الأرض. وما لا يستطيع أن يغفره له هو أن التيس، ومثلما عهّر وسفّل هذه البلاد، قد عهر وسفل كذلك أنطونيو دي لاماثا».

****

«كان الجنــرال وراء مكتبـه يرتـدي بدلـة عسكريـة لا يتذكرهــا أنطونيــو، سترة بيضاء وطويلـة ذات أذيال، مع أزرار ذهبية وكتفيتين بحواش مذهبة، وعلى صدره تتدلى مروحة من الميداليـات والأوسمة المتعددة الألوان. وكان يرتـدي بنطالاً أزرق فاتحاً من قماش قطني ناعم مع خط أبيضـ عمودي على الجانبين. إنه مستعد لحضور احتفال عسكـري مـا. كان نـور المصباح يضـيء الوجه العريض، الحليق بعناية، والشعر الرمادي المسرح جيداً، والشارب الذبابي، على طريقة هتلر (الذي سمع أنطونيو أن الزعيم معجـب به «ليسـ بسبب أفكاره، وإنمـا بسبب طريقته في ارتداء الزي العسكـري وترؤس استعراضـات الجيش»). تلك النظـرة الثابتة المباشرة جمـدت أنطونيو في مكانه فـور اجتيـازه العتبة. توجه إليه تروخييـو بعد أن تفحصه لبعض الوقت:

- أعرف أنك تظن بأنني أنا الذي أمرت بقتل أوكتافيو وأن مسألـة الانتحار مـا هي إلا مهزلة دبرتهـا الاستخبارات. لقد بعثت في طلبك لكـي أقول لك شخصياً إنك مخطئ. لقـد كان أوكتافيـو مـن رجـال النظـام. وكان مخلصـاً وتروخييويـاً علـى الدوام. وقـد عينت للتو لجنـة برئاسة مدعـي عـام الجمهوريـة، المجـاز فرانثيسكـو إيليبيديـو بيراس، بصلاحيات واسعة لاستجواب الجميع، عسكريين ومدنيين. فإذا كانـت مسألة انتحاره ملفقة، فسوف يدفع المذنبون الثمن.

كان يكلمـه مـن دون عـداء ومواربـات، ناظـراً إلـى عينيه بالطريقة المباشـرة والحاسمة التي يكلـم بها على الدوام مرؤوسيـه، وأصدقاءه، وأعداءه. بقـي أنطونيو بلا حراك، مصممـاً أكثر من أي وقت آخر علـى الانقضاض على ذلك المهرج والضغط على عنقه، دون أن يتيح له الفرصة لطلب المسـاعـدة. وكما لو أن تروخييـو أراد تسهيل المهمة عليه، فقـد نهض واقفاً وتقدم باتجاهـه، بخطوات بطيئة، وقورة، وكان حـذاؤه الأسود أشـد لمعاناً من خشـب أرضية مكتبه المطلي بالشمع.

- كمـا خولـت مكتـب التحقيقـات الفيدرالـي الأمريكـي بالمجـيء للتحقيـق هنا فـي موت ذلـك المدعـو مورفي- أضــاف بالنبرة الحادة نفسها- إن في ذلك خرقاً لسيادتنا بالطبع. هـل يسمح الأمريكيون لشرطتنا بالذهاب للتحقيق فـي مقتـل دومينيكاني في نيويـورك أو واشنطن أو ميامي؟ فليأتوا. وليعلم العالم بأسره بأنه ليس لدينا ما نخفيه.

كان علـى بعد متر منـه. لم يكـن بإمكان أنطونيـو مقاومة نظرة تروخييو الهادئة، وكان يرمش دون توقف.

- أنــا لا ترتعش يـدي عندما يتوجب علـي أن أقتل- أضاف بعـد توقف قصير، وقـد اضطررت من أجـل مصلحة هذه البـلاد إلـى عمل ذلك مـرات كثيرة. ولكننـي رجل شرف. والمخلصـون لي أحاكمهـم، لا آمر بقتلهـم. وأوكتافيو كان مخلصــاً، مـن رجـال النظـام، تروخييوي مجـرب. ولهذا السبب، تدخلت كـي لا يذهب إلى السجن عندما أفلتت يده فـي لندن وقتل لويسـ بيرناردينو. سيتـم التحقيق في موت أوكتافيو. وأنت وأسرتك يمكنكم المشاركة في أعمال لجنة التحقيق.

دار على عقبيه، وعاد بالطريقة الهادئة نفسها إلى مكتبه. لمـاذا لم ينقض عليـه عندما كان قريباً فـي متناول يده؟ مـا زال يسأل نفسه هذا السؤال بعـد أربع سنوات ونصف السنـة. ليس لأنه صـدَّق كلمة واحدة مما قالـه له. فذلك كان جـزءاً مـن المهزلة التـي كان تروخييـو شديد التعلق بهـا والتـي تفرضهـا الدكتاتوريـة على جرائمهـا، كلمسة إضافيـة ساخرة على الأعمال المفجعـة التي تقوم عليها. لمـاذا إذن؟ ليسـ بسبب الخوف من المـوت، لأنه لا وجود للخـوف من الموت بين كل نقائصه التي يعترف بها. فمنذ أن كان متمـرداً مـع حفنـة من القـوات الهوراسيـة قاوم الدكتاتور بالرصاص، وقامر بحياته مرات كثيرة. ما منعه مـن الانقضاض عليه هو شـيء أكثر غموضـاً وإبهاماً من الخـوف: إنه ذلك الشلـل، تخدر الإرادة والقـدرة العقلية وحرية المشيئة الذي يمارسه ذلك الرُّجيل المتأنق إلى حد الإضحــاك، ذو الصوت النايّ والعينيـن المنومتين، على كل الدومينيكانيين الفقراء والأغنياء، المثقفين والجهلة، الأصدقــاء والأعـداء. ذلـك هو مـا أوقفه هنـاك صامتاً، سلبيـاً، مصغياً إلى تلك الأكاذيب، كشاهد وحيد على تلك التلفيقـة، عاجز عن تحول إرادته في الانقضاض عليه إلى ممارسة ووضع حد لاجتماع الساحرات والمشعوذين الذي تحول إليه تاريخ البلاد».

قول آخر

ورود إلكترونية

أحدثت ثورة الإعلام الجديد نقلةً نوعيةً في الذاكرة الموسيقية. وأعادت تعريف رسالة الفن، بحيث لم يعد الفن اليوم جامعاً للأجيال الجديدة كما كان يجمع آباءهم في ذائقة واحدة، وجمهور متقارب المشارب والتذوق. ففي وقت مضى، كانت الشوارع تخلو من المارة حين تكون أم كلثومٍ على الموعد ليلة الخميس، وكانت الإشاعات تتسرب بعد نزول أغنية جديدة وتنشغل الصحف والأقلام في تأكيد القصة أو نفيها.

فلماذا لم تعد هذه الحفاوة موجودة اليوم لدى الجمهور؟ أهي التقنية المعاصرة؟ أم إيقاع الحياة الجديدة؟ أم ثغرة في الذائقة نفسها؟ ولماذا لم تعد المفردة الموسيقية تأخذ حقها في الانتشار والدعاية والسخرية حتى..

في ستينيات القرن الماضي، اشتهرت أغنية «لا خبر» للمطرب العراقي فاضل عواد، وكانت إذاعة بغداد تبثها على مدار الساعة، حتى إن أحد رسامي الكاريكاتير الظرفاء آنذاك رسم كاريكاتيراً في إحدى الصحف العراقية لمذيع يفتتح برامج الإذاعة قائلاً عبر المايكرفون: «أعزائي المستمعين هنا إذاعة لاخبر»، بدلاً من قوله هنا إذاعة العراق!

كان الناس يستغرقون في لحظاتهم فلا ينسون شيئاً من تفاصيل الوقت والحكايا ..

بينما تجدك اليوم تنتقل من محطة إلى أخرى إلى ثالثة ومن أغنية إلى ثانية إلى ثالثة في ظرف دقائق معدودات، فكيف لخبر واحد أن يكون حديثنا طول اليوم ناهيك عن أسابيع، وكيف لأغنية واحدة أن تتعتق وتمر على جيل كامل في ظل آلاف المغنين ومئات الأغنيات في الأسبوع الواحد.

إن اللحظة الفنية لها حقها الواجب الذي تتطلبه من التأمل والهدوء والوقوف المتأني المنصت. وهذا ما أصبح مفقوداً اليوم. إذ طغت في المقابل الوجبات الفنية السريعة التي تشبه وجبات المطاعم السريعة. وأسهم في ذلك وجود المتلقي المشغول دائماً، الذي لا يملك وقته، والذي وُفرت له كذلك كل الأدوات التي تساعده على ألا يملك وقته كذلك. فلا عجب إذن أن تجد الإقبال الكبير على مواقع اجتماعية ذات إيقاع متسارع كتويتر وغيرها، لتهيئ للكاتب تدوين يومياته ليبيع متعة الاستغراق في اللحظة الحالية، بوهم تقاسم جمال الخبر مع الآخرين في الفضاء البعيد المجهول!

حتى الأطفال لم يسلموا من تشويش ذاكرتهم. فالطفل الذي كان يلعب الكرة في الحارة ويذهب إلى المناسبات العائلية، أصبح يقارع أصدقاء افتراضيين على ألعاب الفيديو الموصولة بالإنترنت، ويلعب مع منافسين من دول بعيدة وقارات أخرى، بينما قد لايعرف اسم ابن الجيران ولا مهاراته..

وقد يأتي العيد فتقتصر التهاني على رسائل قصيرة وكتابات على حائط الفايسبوك، ولا يملك الطرفان غير الابتسامات والورود الإلكترونية ناهيك عن الصناعية!

لي صديق يرفض أن يقتني ابنه جهاز الهاتف النقال حتى يتخرج في الثانوية العامة متعللاً بالحفاظ على حواس ابنه الخمس..

يزعم صديقي أن انشغال ابنه بالمحمول في هذه السن الصغيره، لن يترك له فرصة للتأمل في الألوان وجدران البيوت ومقابض الأبواب حوله، ولن يسأل يوماً عن اسم صوت الريح ولن يرحب بالربيع كما ينبغي!

قد يكون صديقي على صواب.. وقد يكون ابنه قد ولد في زمن غير زمن والده!

خالد ربيع السيد 

الزمن

هو في جزء منه كل الماضي، وفي جزئه الآخر كل المستقبل، وما بينهما الحاضر، الذي قبل أن ننتهي من كتابة اسمه يكون قد أصبح من الماضي.

هو في مروره من حولنا واحد. ومع ذلك، فهو في العلم غيره في الأدب، وفي الأدب غيره في الحياة اليومية، وفي الحياة اليومية غيره في الشعر، وفي الشعر غيره في الفلسفة..

اخترع الإنسان أدوات لقياس بعض أجزائه فقط.. أما هو ككل فيبقى في طرفيه خارج كل المقاييس مهما تعددت الأصفار. فكان الخيال المعين الوحيد للإنسان في التطلع إليه، وكانت ثمرة هذا الخيال تارة فلسفة وتارة شعراً وتارة أخرى علماً.

في هذا الملف، يجول بنا عبود عطية على هذا الوعاء الذي يحتوينا، الشاهد على ماضينا، ومحدد كل خطوة في طريقنا إلى المستقبل: الزمن.



Corbis



..ومن أين نبدأ للإمساك بطرف الحديث عن الزمن، وهو الذي لا طرف له.
ففي مرحلة ما من مراحل جمع مادة هذا الملف، خطر لنا أن نستطلع على شبكة الإنترنت الأقوال المأثورة التي قيلت في الزمن. فطالعنا ما أدهشنا بكثرته وتنوعه، وما يمكنه أن يملأ وحده صفحات هذا الملف. وكأن تناول الزمن (وضمناً الوقت) ولو بكلمة في العمر، هو طقس يجب أن يمارسه كل أديب وشاعر وفنان وعالم، من هوميروس إلى آينشتاين، وكل من الزاوية التي تروق له، سواء أكانت هذه الزاوية مستمدة من متاعب الحياة اليومية مع عامل الوقت، أم من حيثما عجزت العلوم عن تحديد أمر ما في الزمن، فلجأت إلى الفلسفة أو الخيال لتقول شيئاً بصدده.

تاريخ الزمن

درجت العادة أن تتضمَّن بدايات ملف القافلة نبذة موسعة قليلاً عن تاريخ الموضوع الذي يتناوله الملف. وعلى الرغم من أن الزمن هو في جزء منه كل التاريخ، يمكننا أن ننطلق من الزاوية نفسها التي درجت عليها العادة.

في العام 1988م، أصدر عالم الفيزياء الشهير ستيفان هوكينغ كتابه الشهير «مختصر تاريخ الزمن»، وهو كتاب في علم الفيزياء الكونية، يتناول بأسلوب مبسط للعامة موضوعات مختلفة مثل نظرية «الانفجار الكبير» و«البقع السوداء» و«القُمع الضوئي» وغير ذلك.. وكانت النتيجة أنه خلال سنوات عشر فقط، أعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات وبيعت منه 10 ملايين نسخة، وظل لمدة سنوات ثلاث ضمن الكتب الأكثر مبيعاً حسب استطلاعات الصحف الأمريكية والبريطانية.

وكان هذا الرواج مثار دهشة لكل المعنيين بعالم النشر، لأن الأمر لا يتعلق بعمل أدبي لأحد حملة جائزة نوبل، بل بكتاب علمي في الفيزياء، ما كان أحد يتوقع له مثل هذا الرواج. وفي تفسير ذلك، تردد كثيراً أن العنوان الذي يضع عبارة «الزمن» على الغلاف حرك آلاف الأسئلة الموجودة في لا وعي الإنسان حول هذا «المفهوم» الغامض للزمن، ودفع الملايين إلى قراءة هذا الكتاب بحثاً عن أجوبة لهذه الأسئلة. ليس فقط لأنها تتراوح حول بدايات الزمن، ونظريات نشوء الكون وتطوره، بل أيضاً لارتباط الحياة من الولادة إلى الموت بعامل الزمن، وما بين الولادة والموت يرتبط كل ما يقوم به الإنسان وما لا يقوم به أيضاً بالزمن نفسه.

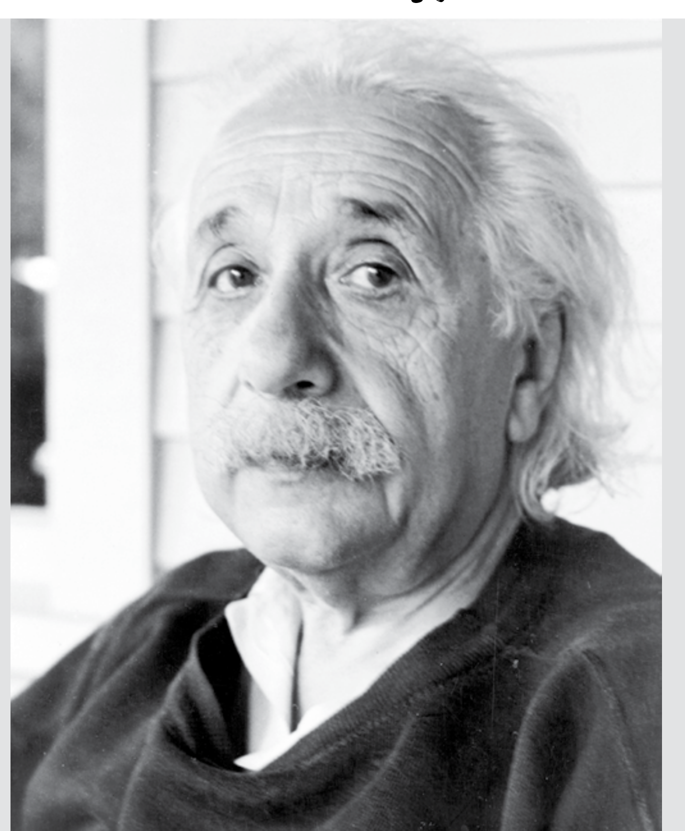


Corbis
في الرياضة: مسألة جزء من الثانية



Corbis
ستيفان هوكينغ وكتابه

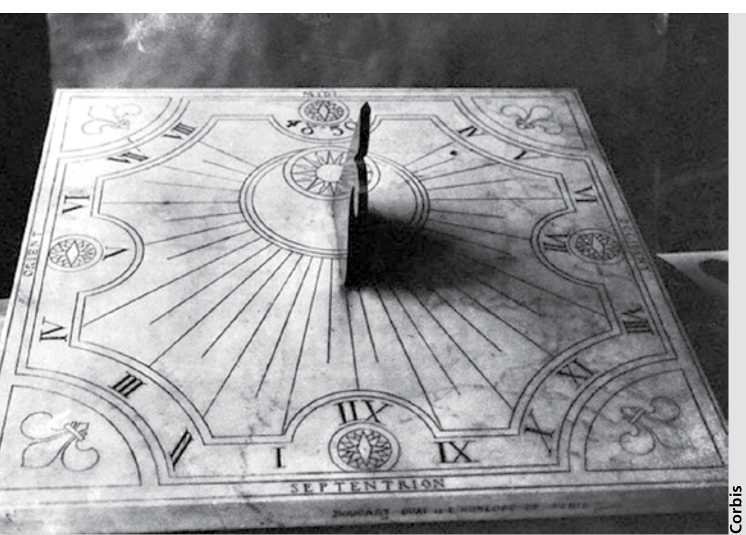




أينشتاين الذي أضاف الزمن بُعداً رابعاً على الطول والعرض والعمق

فإن تعذر علينا بدء الحديث عن الزمان من طرفه، يمكننا أن ننطلق من موضع ما منه.. من زمننا الحاضر المؤلف من مستقبل قريب نقترب منه بسرعة منتظمة ليصبح ماضياً قريباً.. ونشير إليه بمصطلح «الوقت».

فالوقت هو السلم المعتمد لتنظيم كل أمور الحياة، تلك التي يفعلها الإنسان أو تلك التي يخضع لها من دون أية قدرة على التدخل في مسارها.. والساعة التي نتقلدها في معصمنا صارت بتطور الحضارة، قائداً يوجه مسار الحياة اليومية.. في أي وقت نذهب إلى العمل، وبعد كم من الوقت نعود إلى البيت، وفي أي وقت نأكل لتلافي الجوع، ومتى سنلتقي بفلان.. وكل هذه التفاصيل والزخارف تحصل تباعاً. وهذه الملاحظة البديهية حول تتابع حركة الحياة، هي التي وفرت لأينشتاين مجالاً لتحديد الزمن بشكل مبسط للعامة، عندما سُئل مرة عن ذلك، فقال: «الزمن هو ما يمنع الأشياء من أن تحصل دفعة واحدة».



Corbis

المزولة

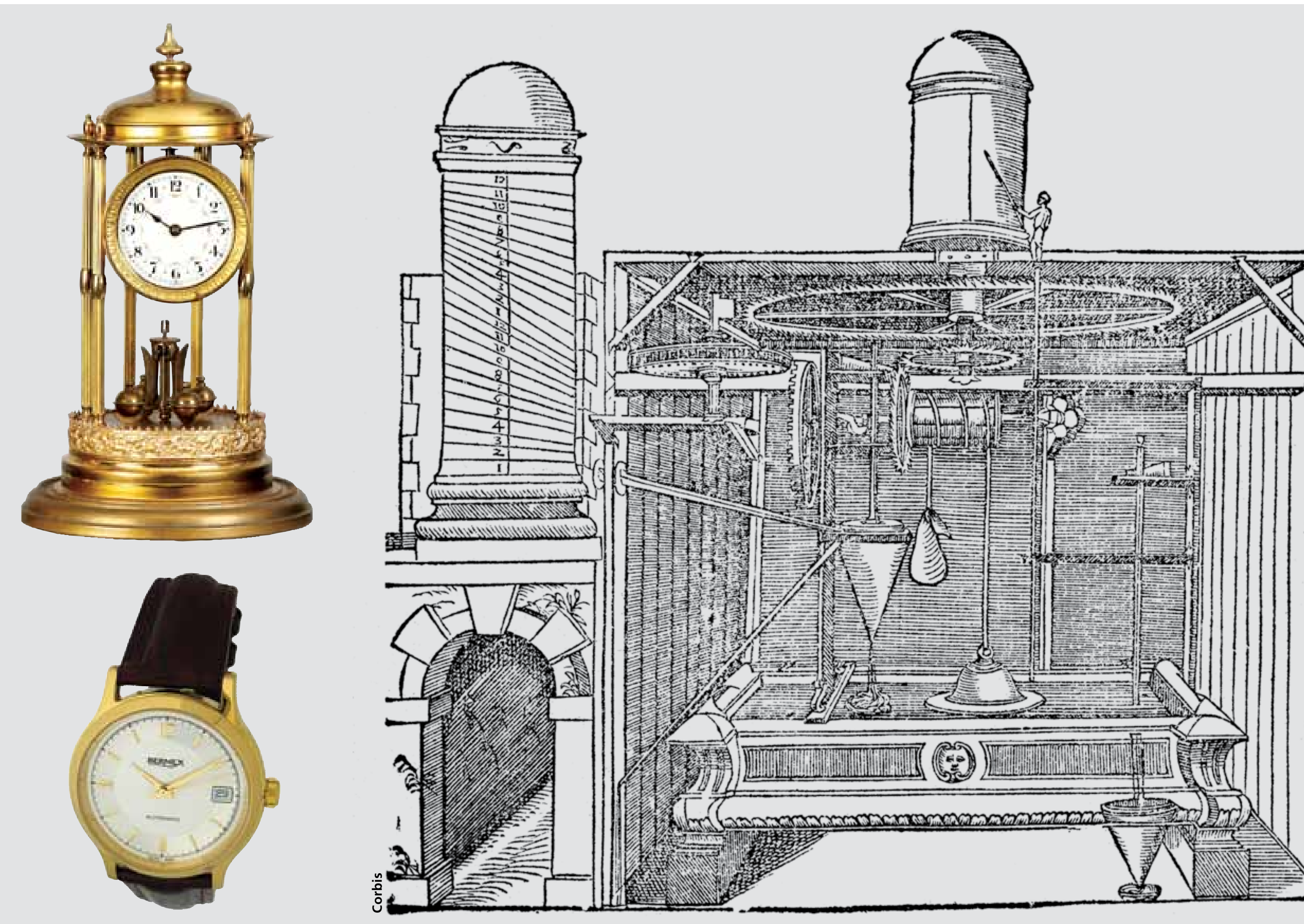
فبمرور الأجزاء الصغيرة من الوقت تباعاً ما بين المهمات الموزعة على الساعات والأيام والأشهر والسنين، ينتبه الإنسان إلى أنها مجتمعة غيَّرت العالم من حوله، وصارت مسافة فاصلة بين الولادة والموت، بين ضعف الطفولة وقوة النضوج وعجز الشيخوخة.. ومن هذه النظرة إلى هذه الأوقات مجتمعة، يفتح هذا الإنسان ملفاً في ذاكرته ووجدانه بعنوان «الزمن»، هذا الشيء غير الملموس الذي يتحكم بكل ما هو ملموس، ويتقدم وفق مسار خطي لا عودة فيه إلى الوراء. وهذا ما دفع كاتباً يدعى روبرت برو إلى السخرية ممن يعتقدون أن الزمن «يدور»، أو أنه من الممكن أن يكرر نفسه فقال: «ظل الإنسان لقرون يعتقد أن الشمس تدور حول الأرض. وبعد ذلك بقرون لا يزال يعتقد أن الزمن يتحرك باتجاه عقارب الساعة». فهل هو الزمن الذي يتحرك من حولنا، أم نحن من يتحرك ضمن الزمن الواحد؟ لا يمكننا أن نعطي جواباً قاطعاً بالأدلة والبراهين، ولكن يمكننا أن نتهرب من الجواب بالقول إن الزمن هو «مفهوم»، ويمكن لأي كان أن يفهمه وفق ما يرتئيه صحيحاً. وهذا بالفعل ما قام به كل إنسان حاول أن يتنطح لهذا السؤال.

من الوعي بالزمن إلى أدوات قياسه

تكشف الأفلام الوثائقية التي تدور حول الحيوانات المفترسة، أنها تحتسب غريزياً الوقت الملائم والسرعة المناسبة للانقضاض على طريدتها. وبالتالي يمكننا أن نرجِّح أنه في حالة الإنسان، فإن وعيه للوقت تشكَّل مع بداية تشكل وعيه على الحياة. ألا يتطلب حمل المرأة



المسلات الفرعونية: أولى أدوات قياس الزمن



ساعات بكل المقاييس

وقتاً تشرق فيه الشمس وتغيب 270 مرة تقريباً قبل أن يولد الطفل؟ ومن المرجح أيضاً أن عامل الوقت راح يزداد أهمية عندما تعلَّم الإنسان الزراعة. فكانت له مقاييسه آنذاك وعلى الأرجح من خلال تعداد الشروق والغروب، بعبارة أخرى اليوم. وكان عليه أن ينتظر نشوء الحضارات الكبرى ليتمكن من وضع مقاييس للوقت، وليجمع كل هذه الأوقات تحت عنوان الزمن.

فالمسلات الفرعونية كانت أدوات لقياس تقدم الوقت خلال النهار من خلال متابعة حركة ظلها على الأرض. وبموازاة المسلات هذه، اخترع البابليون على الأرجح، وليس الفراعنة، المزولة، كأول نبيطة تسمح بقياس الزمن اعتماداً على حركة ظل الشيء بتحرك الشمس من الشرق إلى الغرب، وكان ذلك حوالى العام 2000 ق.م.

والواقع أن للبابليين فضلاً كبيراً في تأسيس مقاييس الزمن. فهم الذين قسَّموا اليوم إلى 24 ساعة. منها 12 ساعة مابين الشروق والغروب، و12 ساعة من الغروب وحتى الشروق. وبهذا تكون الساعة البابلية متحركة، تطول أحياناً ثم تقصر بتتابع فصول السنة.

ولأن النظام الذي وضعه البابليون للرياضيات وعلم الحساب هو النظام «الستي» وليس العشري الذي نعرفه اليوم، فقد اعتمدوا مضاعفات العدد 6 في كل شيء، بما في ذلك الساعة التي قسَّموها إلى 60 دقيقة، واستطراداً، الدائرة إلى 360 درجة أو زاوية.

وبتطور الحضارات واتساع دائرة المعارف الإنسانية، راحت وسائل قياس الزمن وأدواته تتطور بتطورها. فظهرت الساعة المائية والساعة الرملية، ثم الساعة الميكانيكية فالكهربائية والإلكترونية، وساعات المعصم في القرن العشرين. ووضعت التقاويم لضبط أعداد الأيام في مقاطع الزمن القريبة من الحاضر، أو من الأصح القول، توضيح ترتيبها أمام أعيننا، لتساعدنا على تنظيم شؤوننا خلالها. ولكن هل تقتصر أدوات قياس الزمن على هذه الأجهزة والأدوات الدقيقة؟ ألا يشمل ذلك أيضاً تلك الخطوط التي يرسمها السجناء على جدران زنزاناتهم لعدّ الأيام والأسابيع والسنوات؟ ألا يشمل ذلك أيضاً قراءة المزارع لتطور نمو الغلال في حقله موسمياً، أو اقتراب نضوب مخزونه من هذه الغلال؟ ألا نقرأ الزمن من حين إلى آخر في المرآة، ونحن نرى إطلالة الشيب في المفارق، أو تجاعيد بشرة الوجه؟

هل من الممكن السفر عبر الزمن؟

على هامش الآلات التي اخترعها خيال الأدباء والسينمائيين، بقي السفر عبر الزمن حتى الأمس القريب موضوعاً خارج البحث في صفوف علماء الفيزياء. ولكن يبدو أنه بدأ يتسلل إلى اهتماماتهم، وإن كان لا يستحوذ منها إلا على بعض أوقات فراغهم. وغالباً ما يغلب على الأفكار المطروحة في هذا المجال شيء من الهزل والسخرية.

يقول علماء الفيزياء إن السفر عبر الزمن إلى الماضي أو المستقبل هو نظرياً أمر ممكن. ولكن شتان ما بين النظري والعملي.

نظرياً الأمر ممكن، لأن الفيزياء الحديثة (ما بعد أينشتاين) تنظر إلى الزمن كبُعد رابع بعد الأبعاد الثلاثة الأخرى. واستناداً إلى نظرية أينشتاين يرتبط هذا البعد الرابع بسرعة الحركة وفق الأبعاد الثلاثة الأولى. وتخلص هذه النظرية إلى أن الزمن يتوقف عن التقدم عند بلوغ سرعة الضوء، أي 300,000 كلم في الثانية. ونظرياً أيضاً، إذا تم تجاوز هذه السرعة يبدأ الزمن بالتراجع.. ولكن من المرجح أن وقتاً طويلاً جداً سيمضي قبل السعي جدياً إلى وضع هذه النظريات موضع تطبيق، أو حتى اختبار.

ولكن المدهش في الأمر أن أحد المواقع الإلكترونية الذي يبحث هذا الشأن، وطرح السؤال على مرتاديه، تلقى مئات الأجوبة التي تُجمع من دون استثناء على إمكانية السفر عبر الزمن في وقت ما قريباً. والأمر لا يكشف حتى الآن إلا عن الثقة الكبيرة التي استطاع العلم أن يغرزها في أنفسنا تجاه قدراته على الإنجاز.



الساعة: ضابطة إيقاع الحياة اليومية

إن كل ما تقدَّم هنا يندرج تحت عنوان الوقت، أي المقطع الزمني الذي نتفاعل معه أو يفعل فينا.. ولكن من أهم ما أنجزه التطور الحضاري للإنسان هو في توسعة وعيه للزمن. فهناك من جهة، إعطاء أصغر المقاطع الزمنية أهمية متزايدة لم تعرفها في السابق، علماً أنها قصيرة إلى درجة ألَّا تحولات ملحوظة تحصل خلالها عادة مثل الثانية أو جزء الثانية. ولكن ألا تُوزَّع الميداليات الأولمبية على الذين كانوا أسرع من غيرهم بجزء من مئة في الثانية؟ ألم يدخل جهاز قياس هذا الجزء من المئة في الثانية ضمن الساعات التي نتقلدها في معاصمنا، علماً بأننا لا نخصه ببرامج محددة علينا أن نقوم بها خلاله؟

من الثانية إلى الدهر كل شيء نسبي

من جهة أخرى، أدى تطور العلوم، وبشكل خاص علوم الأرض والجغرافيا والتاريخ، إلى وضع مقاييس مختلفة للزمن، مقاييس يمكن أن يصل احتمال «الخطأ المقبول» فيها إلى ملايين السنين. واستخدمت لهذه الغاية جملة مفردات ومصطلحات قد نستخدم الكثير منها في حياتنا اليومية، ولكن ما تعنيه في موضع ما قد يكون نقيض ما تعنيه في مكان آخر.

ففي حياتنا اليومية قد تكون الملابس قديمة إذا تجاوز عمرها الثلاث أو الخمس سنوات. وعند تجار العاديات (الأنتيكا) يكون الشيء الذي صُنع قبل عشرين أو خمسين سنة جديداً. ولكي يكون قديماً يجب أن يكون قد صُنع قبل قرن أو قرنين من الزمن. واستطراداً نشير إلى أن القوانين الجمركية في بعض الدول (مثل أمريكا وأوروبا الغربية) تصنِّف الآثار على أنها كل ما أنتجه الإنسان قبل أكثر من مئة سنة، في حين أن علماء

الآثار أنفسهم يصنِّفون ذلك على أنه «تراث» إلا إذا كان مستخرجاً من باطن الأرض. وفي حين أن المؤرخين يصنفون الحضارات التي قامت قبل الميلاد وحتى بُعيده بـ «القديمة» ومن ثم يتحدثون عن «العصور الوسطى» التي انتهت قبل خمسمائة سنة، نجد أنه في علم الجيولوجيا، تكون الصخور التي تشكَّلت قبل ثلاثين مليون سنة «جديدة».

ومن باب الجيولوجيا وتاريخ الأرض يمكننا أن نطل على الزمن بأوسع مقطع منه، فطالما تشكلت الأرض قبل 4.570 بليون سنة، كيف يمكن قياس المقاطع الزمنية التي يتألف منها هذا المقطع الكبير الذي لا يقدم فيه كثيراً ولا يؤخر ما يضاف إليه باستمرار؟

في بحثنا عن جواب، لجأنا إلى «الموسوعة العربية العالمية» حيث طالعتنا مقاييس قد تختلف قليلاً عما طالعناه في غيرها. ولو بدأنا بما تقوله هذه الموسوعة، لوجدنا أن تاريخ الأرض يُقسَّم علمياً إلى مقاطع وكل مقطع إلى مقاطع فرعية على الشكل الآتي:

1 – الدهر العتيق، الذي يشمل أول أربعة بلايين سنة من عمر كوكبنا الأرضي.

2 – الدهر القديم، الذي بدأ قبل 570 مليون سنة وانتهى قبل 240 مليون سنة.

3 – الدهر الوسيط، الذي بدأ قبل 240 مليون سنة وانتهى قبل 63 مليون سنة.



ثقافياً، تختلف وظيفة الزمن من مجتمع إلى آخر

ولا يحدثنا المصدر نفسه عن أي شيء اسمه «الدهر الحديث». بل عن «حقب الحياة الحديثة» التي بدأت قبل 8 ملايين سنة، وحقب الحياة المتوسطة التي بدأت في مطلع الدهر الوسيط. وكل دهر يتألف من عصر. مثل العصر الكمبري الذي بدأ قبل 570 مليون سنة واستمر لنحو 70 مليون سنة، والعصر الكربوني الذي استمر نحو 30 مليون سنة وبدأ قبل 360 مليون سنة، والعصر الطباشيري الذي بدأ قبل 138 مليون سنة واستمر 75 مليون سنة... إلخ. وهناك العصر الحديث المستمر منذ 63 مليون سنة، ومقسم بدوره إلى فترات، تبدأ بفترة الباليوسين التي استمرت 8 ملايين سنة وتنتهي بـ «فترة الهولوسين» التي بدأت قبل 10 آلاف سنة من يومنا هذا، أي قبل التاريخ المدون بكثير.

أما المصادر الأوروبية فتتحدث عن وحدات قياس للزمن بالمقاييس الجيولوجية، ولكن من دون ارتباط قسري بهذا العلم. وهذه المقاييس هي:

1 – Eon = نصف مليار سنة، غير مترجم إلى العربية، ومن الممكن الاصطلاح على أنه دهر.

2 – Era = عدة مئات ملايين السنين. ومعناها حقبة.

3 – Epoch = عشرات ملايين السنين، ومعناها العصر.

4 – Age = ملايين السنين، ترجمتها إلى العربية هي العصر أيضاً، ولكن الأصح اعتماد تسميتها «فترة».

5 – Chron = أصغر من Age، غير مستعمل.

أما أكبر وحدة زمنية فهي «Supereon» التي تتألف من عدة إيونات. وطالما أن عمر الأرض لا يزيد على 9 إيونات، فابتكار هذا المصطلح الذي لا مجال لاستعماله في معارفنا الحالية، يشير إلى استعداد العلماء للتنطح إلى دراسة الزمن حتى قبل تكون كوكبنا الأرضي. إنه الزمن الذي يستحيل تخيل عدم وجوده قبل مئة مليار «سوبر إيون»، والمستمر في التقدم والنمو إلى ماشاء الله.

الزمن في الوجدان
سريع في أمريكا بطيء في الهند

وكما أن الزمن بمقاساته المختلفة هو نسبي في المعارف والعالم، فهو نسبي أيضاً في الوجدان الإنساني، يتطلع إليه المرء وفق نظرته إلى الحياة والعالم من حوله.

ففي الغرب مثلاً، نجد الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي يقول: «يجب أن نستخدم الوقت كأداة، وليس كأريكة». وهذا واحد من آلاف الأقوال التي ظهرت على ألسنة الكتَّاب والمفكرين الغربيين، وكلها تدعو إلى الاستفادة من الوقت وملئه بالعمل والإنتاج. والأمر طبيعي في بيئة خاضعة لفلسفة تمجِّد العمل والإنتاج، وإيقاع الحياة اليومية فيها هو في سباق دائم مع عقارب الساعة.

أما في بيئة مختلفة، كالهند مثلاً، حيث إيقاع الحياة أبطأ، حتى إن التأمل هو مجال من مجالات الإنتاج الفكري، نجد الشاعر رابندرانات

بعض ما قيل في الزمن

- «الزمن مثل الريح، يحمل كل ما هو خفيف ويترك الثقيل فقط».

دومينيكو استرادا

- «الزمن هو المصحح عندما نخطئ في أحكامنا».

اللورد بايرون

- «الزمن هو أفضل الأطباء.. إنه يشفي كل الجروح».

مجهول، ينسب إلى عديدين

- «الزمن هو سيد عادل. كل إنسان يمتلك عدد الدقائق والساعات نفسه في اليوم. فلا الأثرياء يمكنهم أن يشتروا ساعات إضافية، ولا العلماء بمقدورهم أن يخترعوا دقائق جديدة».

مجهول

- «الزمن هو أطول مسافة بين مكانين».

تينيسي وليامس



ليوناردو دي فينشي — اللورد بايرون

- «إذا اعتنينا باللحظات، فستعتني السنوات بنفسها».

ماريا إدجورث

- «التحسر على الزمن الضائع هو مزيد من الزمن الضائع».

مايسون كولي

- «الوقت يبقى طويلاً بجانب الذين يستخدمونه».

ليوناردو دي فينشي

طاغور يقول: «الفراشة لا تكيل عمرها بالأشهر، بل بالساعات. ومع ذلك، فهي تملك متسعاً من الوقت». ومثل هذا القول يحمل ما معناه أن الأوقات القصيرة تكفي لأمور كثيرة.. ولكنه يعني من جهة أخرى، أن هناك دائماً متسعاً من الوقت للعمل والإنجاز.

من جهة أخرى، ما من إنسان إلا ويردِّد من حين إلى آخر أمام بعض الأمور: «لا أملك وقتاً»، وذلك لإعفاء نفسه من عمل أو مهمة ما. وعلى هذه الذريعة يرد جاكسون براون جونيور بقوله: «لا تقل أبداً أنك لا تملك وقتاً. لقد أُعطيت نفس عدد الساعات في اليوم الذي أعطي لباستور وميكل أنجلو وليوناردو دي فنشي وتوماس جيفرسون وألبرت أينشتاين..».

فكل هؤلاء أنجزوا الكثير لخدمة الإنسانية، مقابل الكثيرين الذين عاشوا حياتهم من دون أن يتركوا أي أثر وراءهم.. وهل هناك ما يبرئ الوقت مما يُحمِّله الإنسان من مسؤوليات أكثر من هذا القول؟

أمام الماضي والحاضر والمستقبل حنين وألم وقلق

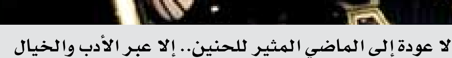
لو قسَّمنا الزمن بأسره إلى ثلاثة مقاطع هي الماضي والحاضر والمستقبل، لوجدنا أيضاً تحديدات مختلفة لكلٍ من هذه المقاطع، تتنوع بتنوع ثقافة صاحب التحديد.

فالماضي هو بالنسبة للبعض الحاضر الذي لم يعد موجوداً. والحاضر بالنسبة إلى البعض الآخر «نقطة مرت لتوها»، حسب تعبير دايفيد راسل، والمستقبل حسب تحديد باراسيلسوس «هو ما يصل إليه كل شخص بمعدل 60 دقيقة في الساعة، مهما كان ومهما فعل». أما سومرست موم فيقول: «إني لا أفكر بالماضي. كل ما يهمني هو الحاضر الأبدي». فبالنسبة إليه الحاضر سيبقى دائماً موجوداً، وإلى الأبد.

أما ما يشترك به معظم البشر فهو ليس في تحديد هذه المراحل الزمنية، بل في الموقف منها. فالحاضر (الذي يشمل بمعناه العام ما مضى منه قبل قليل والمستقبل القريب جداً) هو دائماً متعب ومؤلم ومثقل بالقضايا التي تتطلب من الإنسان جهداً وعملاً لمواجهتها. والمستقبل هو دائماً مصدر قلق. قلق من المحاذير التي قد تحملها الأيام والسنوات المقبلة: الفقر، المرض، المشكلات الاجتماعية، الحروب، الموت.. ولا ينجو من هذا القلق كل ما ومن يقع بين الأفراد والحكومات الدول. وفي مواجهته هناك ما سماه الإنسان «التخطيط للمستقبل»، الذي يشمل نطاقات ومجالات لا حصر لها، تبدأ بسعي الإنسان إلى ادخار بعض أمواله درءاً لـ «غدر الزمان»، وتنتهي بالمشاريع المستقبلية للحكومات والدول والمؤسسات العلمية العالمية. أما الماضي فحكايته مختلفة.

الماضي هو المرحلة الزمنية الوحيدة التي أصبحت خالية من الألم والقلق. ولهذا، فهو دائماً مثير للحنين.





لا عودة إلى الماضي المثير للحنين.. إلا عبر الأدب والخيال



Corbis

إن رصد المواقف التي تصدر من حولنا في حياتنا اليومية حول تبدل بعض الأمور ما بين الأمس واليوم، يكشف دائماً شكلاً من أشكال الحنين إلى الماضي. وهذه الملاحظة عامة، يمكننا أن نلحظها في كل المجتمعات، وبوضوح وحزم، وكأن لسان حال العالم يقول إن كل ما كان في الأمس من أمور وعادات وتقاليد وصناعات ومنتجات هو أفضل مما أصبح عليه اليوم. علماً بأن المقارنة المجردة والحسابات الباردة تعطي لكل هذه الأشياء والأمور كما هي الآن أفضلية على ما كانت عليه بالأمس. ولكن هيهات أن تستطيع المقارنة المنطقية أن تتغلب على الحنين إلى الماضي.

إن كل شعوب العالم ترى هوياتها الوطنية في تاريخها وتراثها العظيم. وتبجيل «الماضي الجميل» صاغ بشكل ما المعارف الإنسانية. فإن كانت بعض العلوم، مثل علم الآثار وعلم التاريخ، غير مرتبطة بالمزاج الإنساني وحنينه إلى الماضي، فإن صناعات كاملة ما كانت لتقوم لولا هذا الحنين. ومنها كل ما يربط الإنسان بالتحف القديمة، سواءً أكانت فنية أم لا. إذ يكفي أن تمر بضعة قرون من الزمن على إناء فخاري لشرب الماء، لكي يصبح أغلى على قلب الإنسان (وأغلى ثمناً أيضاً) من أي منتج معاصر يؤدي الوظيفة نفسها بشكل أفضل.

في نظرة الإنسان إلى ما مضى من الزمان، يبدو العالم وكأنه كان خالياً من الآلام والهموم والمساوئ. فتختار كل ثقافة مرحلة من تاريخها لتطلق عليها اسم «العصر الذهبي». ولكن من المرجح أن هذه العصور لم تكتسب «ذهبيتها» إلا بعدما ولَّت إلى غير عودة.

وفي مواجهة طغيان مقارنة زمننا بالأزمنة السابقة في صِيغ عاطفية وأدبية عموماً، كتب أرت بوشوالد، المعلِّق الساخر في جريدة «هيرالد تريبيون» ذات مرة: «سواء أكان هذا الزمن هو أفضل الأزمنة أم أسوأها.. إنه الزمن الوحيد الذي نملكه».

الزمن في اللغة والأدب

هو أبو اللغة

عندما يكون الحديث عن حضور الزمن في الآداب وثقافات الشعوب، لا يمكن الاكتفاء بتعداد الأعمال الشهيرة التي حضر فيها بشكل مباشر، رغم أن هذه الأعمال هي أكثر من أن تُحصى، بل يجب التطلع إلى الموضوع من زاوية اللغة أولاً.

فالكلام هو ما يصوغ، بمفردات معبِّرة، وعي الإنسان إلى العالم ونظرته إلى الكون. ولأن هذا الوعي تشكل على أساس الزمن ومفاعيله، نجد أن مئات وآلاف المفردات ما كان يمكنها أن تظهر في كل لغات العالم لولا العلاقة الوثيقة ما بين الإنسان ووعيه من جهة والزمن من جهة أخرى.

فإضافة إلى الكلمات المرتبطة مباشرة بالزمن مثل الماضي والحاضر والمستقبل واليوم والدهر والثانية والغد والأمس.. هناك آلاف المفردات التي ما كانت لتظهر لولا دور الزمن الذي دفع الإنسان إلى استنباطها عندما كان يصوغ لغته. ومنها، نذكر بشكل عشوائي حفنة صغيرة يمكن لكل قارئ أن يزيد عليها العشرات وربما المئات.

الحنين، الذكرى، التذكار، الأثر، التاريخ، الأمل، التشاؤم، التفاؤل، التخوف، التوقع، القديم، الحديث، الجديد، المهلة، الانقضاء، الانتهاء، البدء، المتحف، السباق... وأيضاً: حين، حتى، سوف، لما، منذ، عندما.. إلخ. وإلى ذلك، ألا نجد الأفعال تُصرَّف في كل لغات العالم في ثلاث صيغ هي صيغة الماضي والحاضر والمستقبل (الأمر)، لكي تصبح الكلمة مطواعة وصالحة بما يتماشى مع ممشى الشزمن. فهل من المبالغة بعد هذا القول إن الزمن هو أبو اللغة، وكل اللغات؟

الزمن في الرواية والسينما مجال للرحلات

لو تصفحنا المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت بحثاً عن «الزمن في الرواية»، لطالعنا فيها جميعها حديث عن أشهر رواية على الإطلاق


هـ.ج. ويلز

Corbis

كان الزمن بطلها وعنوانها، وهي رواية الكاتب البريطاني هـ. ج. ويلز «آلة الزمن»، التي صدرت عام 1895م.

تدورهذه الرواية حول عالم بريطاني يخترع آلة تسافر به عبر الزمن إلى العام 802701 بعد الميلاد، حيث يكون الجنس البشري قد انقسم إلى قسمين: قسم متحضر وأنيق ولطيف، وقسم يعيش «تحت الأرض» في شكل متوحش ويأكل لحوم البشر.

كان النجاح الذي لقيته هذه الرواية مدوياً. وصوَّرتها السينما في فيلم بالعنوان نفسه عام 1960م، وأعيد تصويرها في فِلم تلفزيوني عام 1978م.

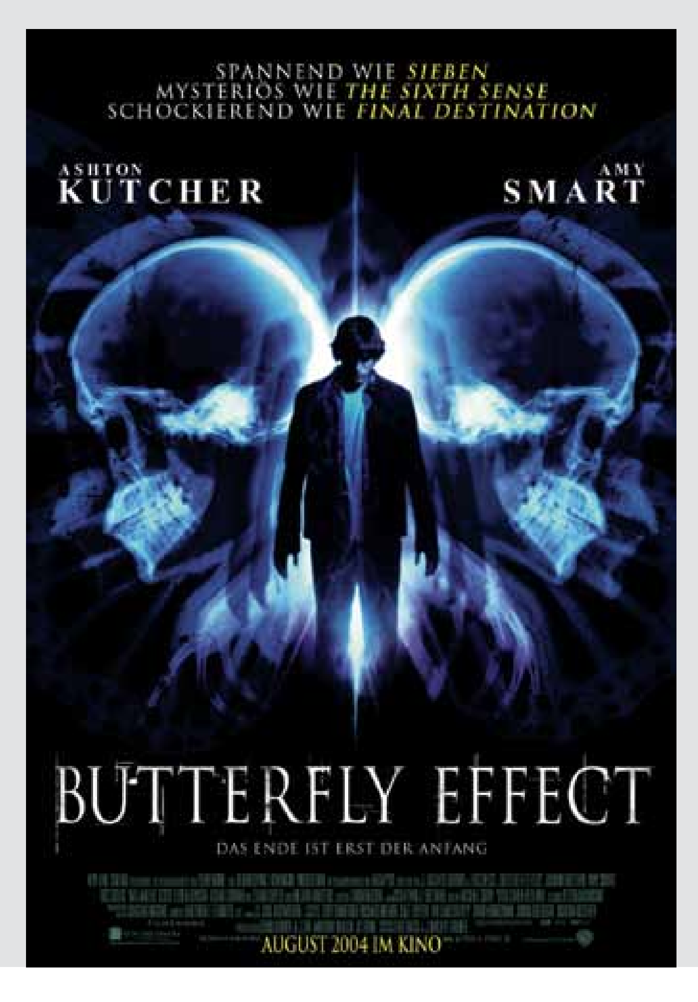
ويبدو أن ويلز فتح بروايته هذه الأبواب أمام مذهب روائي جديد. فتعددت الروايات المطبوعة، أو تلك التي تكتب للسينما، وتتمحور حول شخص ينتقل عبر آلة أو فجوة في مكان ما أو حتى خزانة، إلى عصر غير عصره. سواء أكان هذا العصر عصراً قديماً، أم عصراً مستقبلياً.

ففي بعضها عاد البعض إلى عصر الملك الأسطوري «آرثر» الذي تنسب إليه مجموعة فضائل أخلاقية وتنظيمية تدخل في صميم الحضارة الغربية اليوم. وفي بعضها الآخر مسعى لقراءة الحاضر على ضوء الماضي مثل «أثر الفراشة»، وهي قصة شاب يعود إلى الماضي لمحو المشكلات التي اعترضت طفولته وتركت آثارها على شبابه، فيعود أكثر من مرة ليعالج كل مشكلة على حدة، وفي كل مرة تكون النتيجة أسوأ من الواقع.

وتوسعت دائرة الرحلات عبر الزمن في الروايات والأفلام السينمائية، لتشمل سفر شخص من الماضي ليعيش بيننا اليوم ويقارن عصرنا بعصره، مثل الفِلم الذي شاهدناه مؤخراً على شاشة إحدى الفضائيات العربية بعنوان «كيت وليوبولد» حيث ينتقل شخص نبيل من القرن التاسع عشر إلى نيويورك في يومنا هذا، لينتقد ويقارن في إطار كوميديا عاطفية خفيفة. ولم تتأخر السينما المصرية عن ركوب هذه الموجة، فوجدنا عادل إمام يقوم في أحد أفلامه بدور فارس من عصر محمد علي باشا يصل عن طريق كهف إلى مصر الحاضرة بكل شؤونها وشجونها الحالية لينقدها في قالب فكاهي.

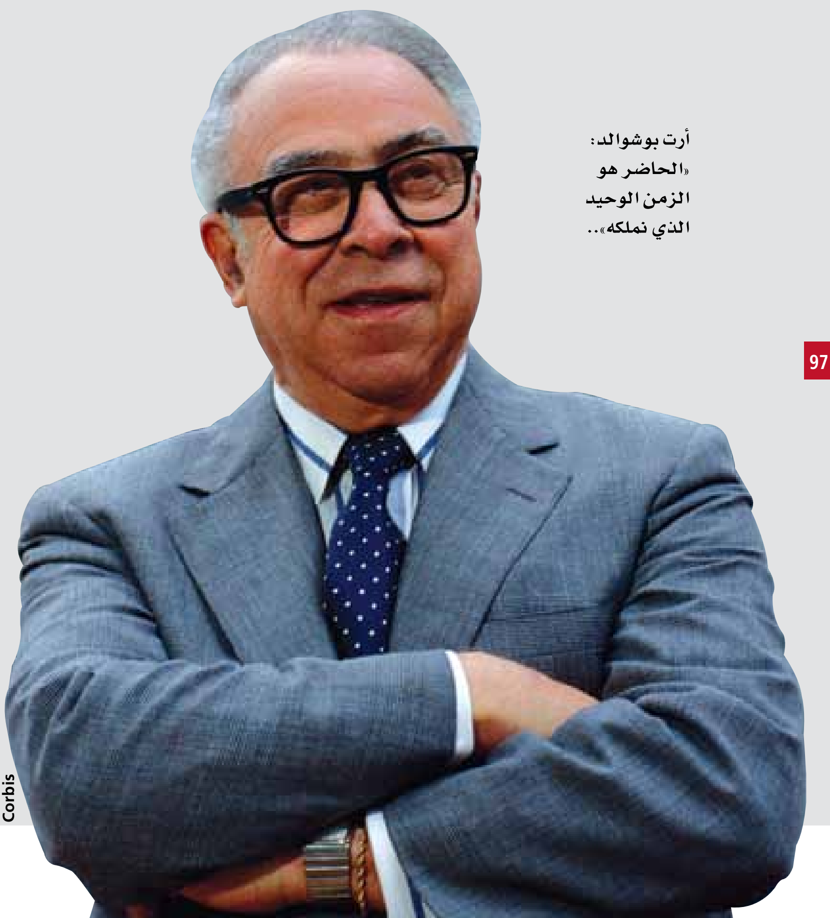
ولكن بعيداً عن روايات السفر عبر الزمن (المباشرة جداً، وأحياناً السطحية)، يمكننا بسهولة أن نكتشف أن الزمن هو حاضر في الأدب والرواية بشكل أعمق من ذلك بكثير.







لقد كتب هوميروس الإلياذة (وعلى الأرجح الأوديسة) في وقت ما يدور حول العام 850 ق.م. وفي هاتين الملحمتين الشعريتين يروي لنا هوميروس القصة الملحمية لحرب طروادة. ولكن حروب طروادة، إن جرت فعلاً، فقد جرت في وقت ما بين نهاية القرن الثالث عشر ومطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي قبل مولد الشاعر اليوناني بنحو خمسة قرون. فهو إذن كتب عن الماضي، ترك عصره وسافر بشاعريته خمسة قرون إلى الوراء لينقل إلى أبناء عصره صورة عن هذا الماضي، أو مقطعاً منه.. وليس هوميروس وحده هو الذي سافر إلى طروادة التي محا معالمها الزمن، بل أيضاً كل من قرأ هذه الملحمة ويقرأها اليوم أو سيقرأها غداً.



أرت بوشوالد: «الحاضر هو الزمن الوحيد الذي نملكه»..

وفي العصر الحديث (نسبياً) أي بعد تبلور شخصية الرواية في أوروبا بعيد عصر النهضة، ظهرت الرواية التاريخية كلون أدبي مستقل من ألوانها. هذه الرواية التي تعود بالقارئ إلى مراحل زمنية مضت قبل قليل أو كثير، إما لمجرد أن تأخذه إلى حيث يستحيل عليه الذهاب فعلاً، وإما لتحفزه على تكوين نظرة مختلفة إلى حاضره. ومن أشهر الأسماء في هذا المجال يمكننا أن نذكر ألكسندر دوماس في الأدب الفرنسي، وجرجي زيدان في الأدب العربي الذي كتب سلسلة روايات تاريخ الإسلام الشهيرة. فمن خلال هذه الروايات يمكننا أن ننتقل بخيالنا إلى عوالم مضت، مثل عالم الخليفة المأمون، أو عالم شجر الدر.. إنها قدرة الأدب على الإمساك بالزمن وتثبيته.

وحتى لو وضعنا جانباً الروايات التاريخية والرحلات عبر الزمن، يبقى هذا الزمن حاضراً في بنية كل رواية، وفي الصنعة الروائية ككل، منذ أن يضع مؤلفها تصميماً لها. فبموازاة الموضوع والحبكة وتحديد الأبطال، يجد المؤلف نفسه مضطراً لأن يرسم الإطار الزمني الذي به تبدأ وبه تنتهي. ولهذه القاعدة، لا يوجد استثناء يستحق الذكر.

وإضافة إلى ما تقدَّم، هناك المذكرات واليوميات، التي يلعب الزمن الهارب دوراً كبيراً في صياغتها، وفي وجودها ككل. فالمذكرات هي فن استعادة مقطع زمني كامل دفعة واحدة، واليوميات هي فن جمع ما حمله كل يوم بيومه.

وأخيراً، لا يجب أن ننسى عبارة: «كان ياماكان في قديم الزمان..»، هذه اللازمة التي تبدأ بها حكايات الأطفال، وتكفي وحدها كي تكون تذكرة سفر لخيال الطفل يرحل بها بعيداً عن يومه وسريره.

بين الفيزياء والاقتصاد.. لكل علم زمنه الخاص

الزمن في الفيزياء

بعدما أضاف ألبرت أينشتاين الزمن بُعداً رابعاً إلى الطول والعرض والعمق (وهي عناصر كلها قابلة للقياس)، أصبحت الفيزياء الحديثة تقول إن الزمن كمية أساسية يمكن قياسها.

وبعدما اعتقد الفيزيائيون لقرن أن الزمن ينساب بشكل خطي منتظم، بدأ هذا الاعتقاد يخضع للمراجعة، طالما أن الزمن هو أحد أبعاد الكون الأربعة. والكون يتوسع ويصبح عديم الانتظام أكثر فأكثر. من هنا ظهرت أفكار تقول إن مسار الزمن هو منحنٍ وليس مستقيماً. وذهبت نظريات أخرى إلى القول باحتمال انسياب الزمن إلى الوراء في ظروف محددة، إلا أن هذه النظرية تبقى بعيدة حتى الاختبار.

الزمن في أشكال الصحف والمجلات

تكمن المهمة الأساسية للصحافة في تدوين مجريات الأحداث خلال فترة زمنية محددة، ونشرها على الملأ. ونظراً للمنافسة ما بين المطبوعات الصحافية، يشكل اختيار اسمها قضية بالغة الأهمية، نظراً للدور الذي يمكن أن يلعبه في ترويجها. ومن كل مصادر الوحي التي اختارت منها الصحف والمجلات أينما كان في العالم، يبقى الزمن بمشتقاته المصدر الأول من دون منازع، استفادة من المكانة التي يحتلها الوقت والزمن في وجدان الناس.

فما من بلد في العالم إلا وتحمل بعض أبرز منشوراته الصحافية أسماء مشتقة من الزمن:

في المملكة، نجد صحيفة «اليوم»

في مصر، مجلة «آخر ساعة».

في لبنان، صحيفتا «النهار» و«المستقبل».

في فرنسا، نجد «نوماتان» (الصباح)، و«فرانس سوار» (فرنسا المساء)، وغيرهما..

وفي إيطاليا، «آل تامبو» (الزمن).

أما الاسم الأكثر رواجاً على مستوى العالم فهو «تايم» (أي الوقت أو الزمن) بالمفرد، أو بالجمع «تايمز». فإضافة إلى مجلة «تايم» الشهيرة، فلكل مدينة تقريباً في أمريكا والعالم الأنكلو ساكسوني بأسره صحيفتها اليومية التي تحمل اسم «تايمز» بعد اسم المدينة، مثل «نيويورك تايمز» و«لوس أنجلوس تايمز».. وصولاً إلى مجلة وصحيفة في «تايمز أوف إنديا» في الهند.




Corbis

الزمن في علوم الأرض

ولعلماء الجيولوجيا «ساعاتهم» الخاصة لقياس أعمار الصخور وطبقات القشرة الأرضية التي تعود إلى مئات وبلايين السنين.

ومن وسائلهم في ذلك تحليل الأورانيوم حيثما وجد. فالأورانيوم يتحول ببطء إلى مادة الرصاص من خلال تفككه الإشعاعي. ومن قياس كمية الرصاص في عينة من الأورانيوم الخام يستطيع العلماء تقدير عمر الصخرة الحاضنة له.

وإضافة إلى الأورانيوم، هناك ساعة جيولوجية أخرى، هي «الكربون المشع». فكل الكائنات الحية تمتص هذا الكربون وتفككه، ومن خلال قياس معدل تفكك الكربون في جسم قديم يحتوي عليه، يمكن للعلماء تحديد موت هذا الجسم سواء أكان حيواناً أو نباتاً.

والساعة البيولوجية

في تكيفها مع الزمن، وقتت الكائنات الحية دورتها الحياتية وأوجه النشاط اللازمة لها استناداً إلى إيقاع الليل والنهار. فجسم الإنسان يحتاج إلى النوم ليلاً، وإلى التغذية كل ست أو سبع ساعات. كما أن النبات يتنفس خلال النهار بشكل معاكس لتنفسه ليلاً (تبدل امتصاص الكربون والنيتروجين من جهة والأكسجين من جهة أخرى). وقس على ذلك حياة كل الكائنات الأخرى وهذا ما يُعرف باسم الزمن البيولوجي، أو الساعة البيولوجية.

السنة المالية

وفي عالم الاقتصاد، وتحديداً عالم المصارف والشركات الكبرى، هناك ما يسمى السنة المالية، التي تشبه السنة الميلادية لجهة عدد الأيام، ولكنها تبدأ من وقت ما من هذه الأخيرة، وليس من مطلعها. ويختلف بدء السنة المالية من بلد إلى آخر. والغاية منها هو استطلاع أداء المؤسسة المالية أو الاقتصادية خلال سنة كاملة، ووضع مفصل محدد للمشاريع المستقبلية واحتساب العوائد وما شابه ذلك،

الشعر والمغنى يشكوان الزمن.. للزمن

«قضية الزمن في الشعر العربي، الشباب والمشيب» هو عنوان دراسة من إعداد فاطمة محجوب، وصدرت عن دار المعارف في مصر. وتتضمَّن هذه الدراسة أكثر من 1500 بيت شعر، من القديم والحديث، تدور كلها حول مفاعيل الزمن على شخصيات قائليها.

سقنا هذه المقدمة لإيضاح سعة المساحة التي احتلها الزمن في الشعر العربي، من خلال موضوع واحد. فكيف الحال إذا أضفنا إليه كل الحُلل الأخرى التي ظهر بها؟

ففي إطار مفاعيل الزمن على شخص الشاعر، كلنا نعرف قول أبي العتاهية:

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما صنع المشيب

والتمني الذي يبدأ به هذا البيت يؤكد إقرار الشاعر لاستحالة تحقيق ما يتمناه. وهذا ما يقوله في صيغة أوضح أبو العلاء المعري:

وقد تعوَّضتُ عن كل بمشبهه
فما وجدت لأيام الصبا عوضا

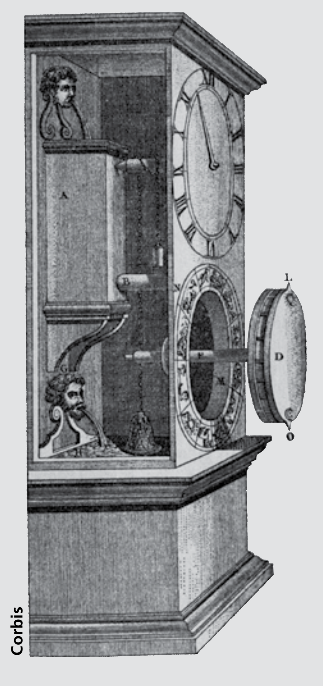
وهناك شعراء ممن بكوا على الشباب باكراً جداً، مثل حبيب بن أحمد الأندلسي الذي قال وهو في الثلاثين من عمره:

ثلاثون من عمري مضين فما الذي
أؤمل من بعد الثلاثين من عمري؟
أطايب أيامي مَضَين حميدةً
سراعاً ولم أشعر بهن ولم أدرِ

ومن هذين البيتين اللذين يهمسان بالحنين إلى الماضي أكثر مما يتضمنان شكوى من متاعب الشيخوخة، يمكننا أن ننتقل إلى «تيمة» الحنين إلى الماضي، الخالصة. وواحد من أكثر الأمثلة وضوحاً عليها، هو ما قاله الشاعر الأندلسي زهير بن بكر، في قصيدته «هل تُستعاد». وهي قصيدة تتغنى بمحاسن العيش في الأندلس وبهجته، مع ذلك يبدؤها الشاعر بقوله:

هل تستعاد أيامنا بالخليج
وليالينا
أويستفاد من النسيم الأريج
مسك دارينا
واد يكاد حسن المكان البهيج
أن يحيينا

فبهجة العيش في المكان البهيج، لم تقوَ على حنين الرجل إلى لياليه في الخليج.



والواقع أن الشعر العربي لم يترك جانباً من جوانب الزمن ومفاعيله واختلاف النظرات إليها إلا وعبَّر عنه. فالزمن حاضر في البكاء على الأطلال الذي كان قديماً من مستلزمات مطلع أية قصيدة. وهل الطلل هو غير صورة لمفاعيل الزمن على المكان؟

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فالصورة التقليدية كما يرسمها صدر هذا البيت ما كان يمكنها أن تكون على ما هي عليه لولا الزمن الحاضر هنا بمفاعيله كما هو حاضر بقوة في زمن الشاعر، وإن غاب ذكره مباشرة.

إن الجولة العشوائية على حضور الزمن في الشعر يمكنها أن تمتد إلى ما لا نهاية. فماذا لو حصرنا هذه الجولة في إطار؟ وليكن ذلك على سبيل المثال القصائد المغناة من شخص واحد: أم كلثوم.

في هذه الباقة وحدها، يمكننا أن نجد الزمن ومشتقاته في كل الصور التي يمكنها أن تخطر على بال.

ففي قصيدة جورج جرداق «هذه ليلتي» نرى اختيار الإنسان للحظة زمنية معينة ذات مكانة في نفسه:

هذه ليلتي وحلم حياتي
بين ماضٍ من الزمان وآت

وفي رباعيات عمر الخيام كما ترجمها الشاعر أحمد رامي، نقرأ شعراً يذكِّرنا بما قلناه سابقاً حول القلق الذي يثيره المستقبل في وجدان الناس:

غدٌ بظهر الغيب واليوم لي
وكم يخيب الظن في المقبل


أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب


سعيد عقل: أجمل التاريخ كان غداً!

وفي الرباعيات نفسها تطالعنا أيضاً نظرة إلى استمرارية الزمن وامتداده:

فكم توالى الليل بعد النهار
وطال بالأنجم هذا المدار

وفيها أيضاً نظرة إلى الحاضر مطابقة لبعض ما أوردناه سابقاً عن لسان بعض المفكرين، الذين يرون في الحاضر كل شيء:

لا تشغل البال بماضي الزمان
ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس في طبع الليالي الأمان

وتتضمن هذه الباقة من القصائد المغناة صوراً شتى من صور الزمن الذي تحول على أيدي الشعراء إلى «شخص» يستمع ويتجاوب ويخون ويظلم وينتقم ويجور ويهنأ..

ففي قصيدة «ليه يازمان» العامية التي كتبها أحمد رامي أيضاً، نسمع أم كلثون تخاطب الزمن:

ليه يا زمن كان هواي
سبب شقاي وهواني

ثم تسأله:

يا هل ترى يا زماني
أرجع وأشوف الحبيب

ثم تشكك في وفاء الزمن:

ولا تخون الأماني
وأحيا حياة الغريب

وفي قصيدة عبدالفتاح مصطفى «لسه فاكر» يصبح اسم الزمان، كل الزمان، مرادفاً للماضي الذي انتهى برمته: «لسه فاكر؟ كان زمان، كان زمان».

وفي القصيدة نفسها نرى «الأيام» بقسوة الإنسان:

ياما حليت لك آهات قلبي وهي
من قساوتك انت والأيام عليَّ

ولكن أقوى صور الزمن «المشخصن» في كل ما غنته أم كلثوم هو ما جاء في الكلمات التي كتبها عبدالوهاب محمد بعنوان «حسيبك للزمن»، حيث يصبح الزمن بحد ذاته ومن دون أي فعل مصاحب من قبل الإنسان، أداة انتقام مخيفة، لا تعرف الرحمة:

رايحة أسيبك للي
لا بيرحم ولا تقدر عليه
مش حَ قول لك
انت عارف الزمن رح يعمل إيه
الزمن هو اللي حيخلص لي تاري
الزمن هو اللي حيطفيلي ناري.

وختاماً، نشير إلى أن الشعر قادر على إعادة ترتيب الزمن كما يشتهي قائله. ومن أقوى الصور الشعرية في هذا المجال، هو ما نجده في قصيدة وطنية لسعيد عقل خصَّ بها مدينة دمشق، ويقول فيها:

رُبَّ أرضٍ من شذى وندى
وجراحات بقلب عِدى
سكنت يوماً، فهل سكتت؟
أجمل التاريخ كان غدا

لكل حضارة تقويمها



أن يكون الزمن واحداً في كل الحضارات، فالأمر لا ينعكس توحيداً للقراءات المختلفة له في كل هذه الحضارات. وكلنا نتلمس يومياً مقياسين مختلفين للسنة: هجرية وميلادية.

فالتقويم الهجري يعتمد حركة القمر حول الأرض لقياس الزمن، وينطلق من تاريخ الهجرة النبوية الشريفة كبداية للسنة الأولى فيه. وهو التقويم المعتمد اليوم في بعض الدول الإسلامية ومنها المملكة، وهو أيضاً التقويم الذي اعتمد في كل تاريخ الثقافة الإسلامية. وهناك أيضاً التقويم الميلادي الذي يُعرف أيضاً بالتقويم الغريغوري نسبة إلى بابا الفاتيكان غريغوريوس الثالث




Corbis


Corbis

عشر الذي أمر علماء الفلك في القرن السادس عشر بتصحيح التقويم «الجولياني» الذي وضعه الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر عام 45 ق.م.، وكان لا يزال معمولاً به حتى آنذاك.

ويُعد التقويم الغريغوري أن تاريخ ميلاد النبي عيسى المسيح هو بداية السنة الأولى فيه. وقد تم اعتماد هذا التقويم تدريجاً في أوروبا الغربية بدءاً من العام 1582م، ولم يصل إلى أوروبا الشرقية إلا في بدايات القرن العشرين. وبسبب النفوذ الاقتصادي للدول الصناعية الغربية، وازدياد حركة التجارة العالمية في العصر الحديث، حظي هذا التقويم بما يصح أن نسميه «أخذه في الاعتبار» أكثر مما هو اعتراف عالمي به، أو تبنٍّ عام له.

فحتى اليوم، لا يزال لكل حضارة تقويمها السنوي الخاص بها. فهناك السنة الصينية (شمسية وقمرية في آن) التي تبدأ من يوم مختلف. وفي الهند وحدها مثلاً، هناك التقويم الهندوسي، وفي إحدى ولاياتها (كيرلا) هناك تقويم سنوي آخر يُعرف باسم تقويم «المالايالام»، وفي دولة النيبال المجاورة هناك تقويم سنوي مختلف عن الاثنين السابقين. وتعدد المصادر عدد التقاويم السنوية المعمول بها في العالم حالياً بنحو 43 تقويماً، عدا التقاويم القديمة التي انقرضت بانقراض الثقافات التي أنجبتها، مثل تقويم حضارة المايا، الذي يحدد موقع «نهاية الزمن» في العام 2012م!! وكان وراء إنتاج الفلم السينمائي الشهير الذي يحمل العنوان «2012»، وعرض مؤخراً في دور السينما وعلى شاشات التلفزيون.

الزمن في زمننا ساعات وتقاويم


Corbis



Corbis

بعدما كانت أدوات قياس الزمن عند الفراعنة عبارة عن مسلات عملاقة، تزن أطناناً عديدة، ولا مكان لها إلا في الساحات العامة، راحت هذه الأدوات تصغر شيئاً فشيئاً إلى أن رست على ساعة الجيب الصغيرة في القرن التاسع عشر، التي انتقلت إلى المعصم في القرن العشرين.

وإن لم نجد أرقاماً دقيقة تشير إلى حجم صناعة الساعات وتجارتها في الاقتصاد العالمي اليوم، فيكفينا أن نعرف أن من بين كل 8 أشخاص في العالم، هناك 7 يملكون ساعة يد. وبالتالي فإن عدد الساعات المصنَّعة حديثاً يزيد على 5.5 مليار ساعة، وإذا احتسبنا متوسط ثمن الساعة الواحدة مئة دولار، فتصبح قيمة الساعات في معاصم العالم نحو نصف تريليون دولار.. الأمر الذي يضعها في مرتبة عليا ضمن قائمة الصناعات العالمية التي تضم السيارات، والملابس والأغذية..



أما أحدث الصناعات التي طرأت على أدوات قياس الزمن، فهي التقاويم السنوية المطبوعة.

ظهرت هذه التقاويم أولاً في أمريكا خلال القرن التاسع عشر. وظلت حتى أواسط القرن العشرين تتخذ أشكالاً فنية بسيطة رغم اختلافها عن بعضها، فقد اتخذ بعضها شكل الكتاب الذي يخصّ كل صفحة بيوم، واتخذ بعضها شكل وريقات مجموعة إلى بعضها بمسامير للاستخدام المكتبي، أو شكل لوحات متعاقبة تعلَّق على الجدار، تختص كل منها بشهر.

كانت الغاية من هذه التقاويم مساعدة العمال والموظفين على تذكر المهمات المستقبلية، وتسهيل معرفة موافقة الأيام بأسمائها مع تواريخ محددة. ولما كانت تكلفة طباعة عدد قليل منها يجعل من ثمن الواحدة مرتفعاً جداً، راحت المؤسسات تطبع أكثر من حاجتها، لتوزع الفائض على أصدقاء المؤسسة. ومن ثم تحولت هذه التقاويم إلى وسيلة إعلانية بحد ذاتها، فصار الاهتمام بتصميمها وأناقة طباعتها على ورق أفضل جزءاً من شخصيتها، تسعى المؤسسات من خلالها إلى إظهار تميزها عن المؤسسات المنافسة وتفوقها عليها.

وفي السنوات الأخيرة، أصبحت التقاويم السنوية التي تطبعها المؤسسات الكبرى والمتوسطة وتوزعها في مطلع كل عام، جزءاً من هويتها وصورتها، توليها الحدود القصوى من العناية على أعلى المستويات، بحيث باتت تكلفة تصميم تقويم من 12 لوحة ورقية وطباعتها، تناهز الرأسمال الذي يمكن به تأسيس تجارة صغيرة أو حتى متوسطة.



قيل الوقت مال

حافظ على مالك





القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2011
المجلد 60 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com